الرواية الفائزة بجائزة الطيب صالح للإبداع الكتابي

رواية

بيت السنّاري

عمار علي حسن

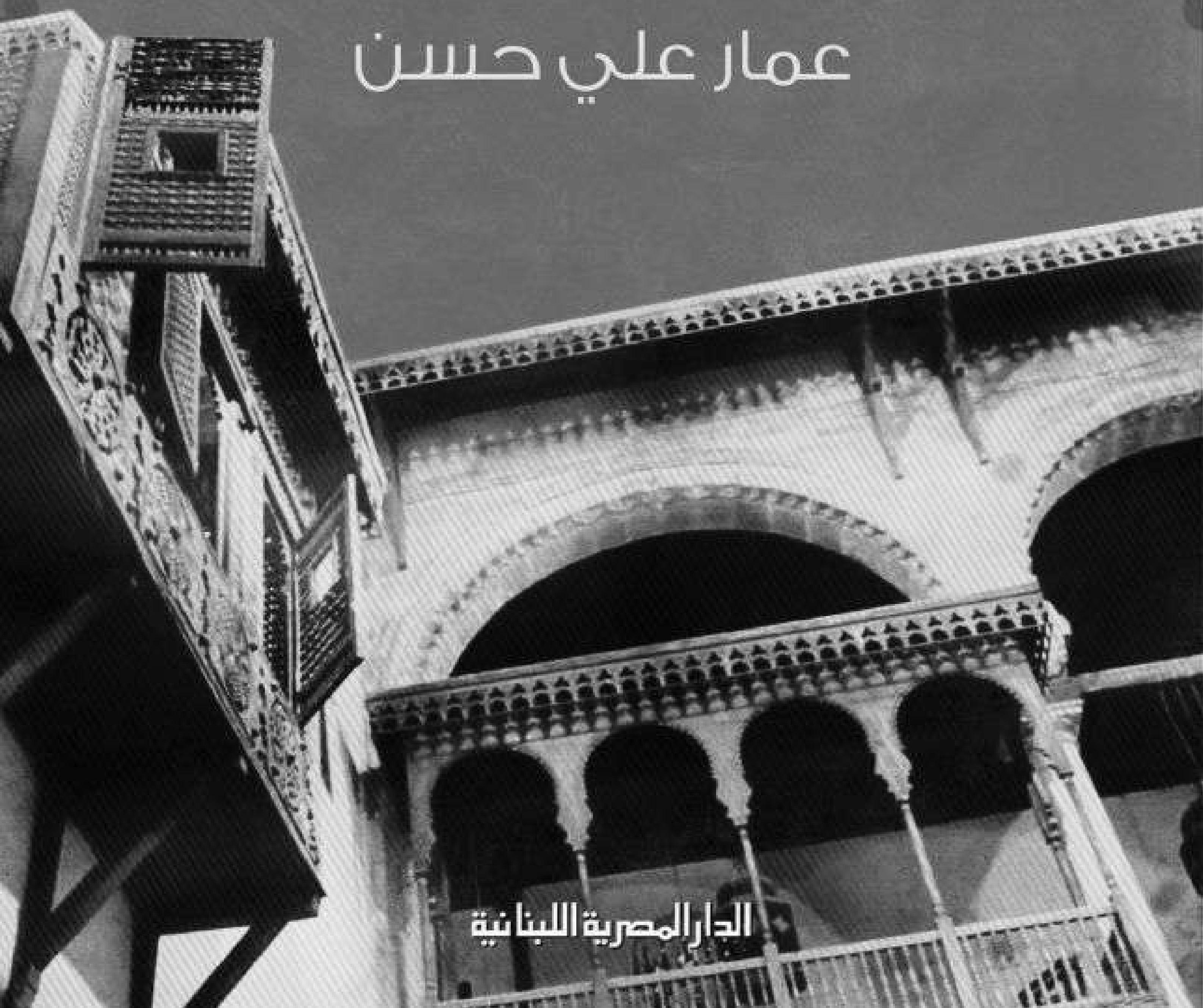

الدار المصرية اللبنانية

الرواية الفائزة بجائزة الطيب صالح للإبداع الكتابي

رواية

بيت السَّنّاري

عمار علي حسن

الدار المصرية اللبنانية

بيت السناري

رواية

حسن، عمار علي.
بيت السناري: رواية / عمار علي حسن .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2016.
328 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 080 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 19874 /2016

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ذو الحجة 1437 هـ - سبتمبر 2016م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

بيت السناري

رواية

عمار علي حسن

الدار المصرية اللبنانية

1

ألقى سمعه، ومدَّ بصره، نحو شارع «طولون» ليلتقط ما يصرخ به منادٍ يمتطي حمارًا أبيض، يسير في صهد الظهيرة، والناس يتطلعون إليه مرجفين، ثم يهرولون نحو الشمال، مثيرين غبارًا يصعد إلى النوافذ التي امتلأت بأعناق نسوة متشحات بالسواد، يمددن أعناقهن من خلف المشربيات في حيرة.

انطلقت خيول نحو «قلعة الجبل» عليها فرسان مدججين بسيوفٍ لامعة، ونقرات أقدامها المطوقة بالحديد ترن في الآذان، مختلطة بحمحمات راكبيها، الذين راحوا يصغرون كلما تقدموا نحو الأسوار العالية، إلى أن اختفى الركب في أحد المنعرجات التي تنتهي عند «باب الجبل»، ولم يبقَ منه سوى غلالة من غبار تدل على هول ما يجري.

سأل أحد خدمه بفمٍ مملوءٍ بدخان النارجيلة:

ـ ماالذي يجري؟

هزَّ رأسه:

ـ لا أعلم يا سيدي.

وقفت أصغر الجاريات وأحلاهن بعد أن أمسكت «الماشة» ووضعت جمرتين فوق المعسِّل، وأرسلت عينيها إلى عُمق الشارع الذي يغصُّ بالهاربين، وقالت:

ـ يا ليت ما في بالي يكون صحيحًا.

قهقه فبانت أسنانه البيضاء في صفحة وجهه شديد السمار وسألها:

ـ ما الذي في بالك يا حلوتي؟

جلست ومدَّت يدها إلى ركبته اليسرى وراحت تدلكها على مهلٍ وهي تنظر في عينيه الغارقتين بالظلال، وأجابت:

ـ يكون ربنا خلصنا من شرالمماليك على يد الفرنسيس.

سحب نفسًا طويلًا، ثم نفخه في وجهها، وقال لها:

ـ أنسيتِ أن «مراد بك» له عليَّ أفضال جمَّة؟

طوَّحت يدها فجرحت الهواء بأصابعها الخمس، وردت في غيظ:

ـ أنسيت أنت أنه كان يريد قتلك؟

ـ بلى، لكنني الآن نائبه، والأقرب إليه، وبجواره صرت من أعظم الأعيان في هذا البلد، أمتلك التزامًا وإيرادًا ومماليك وسراري وحبوشًا وخشداشية وحاشية وخدمًا، وممَّا جاد به عليَّ بنيت هذا البيت.

ضحكت، وداست على ركبته، وقالت:

ـ وهذا ما يخيفني، ما قرَّب منه أحدًا ورفعه إلا وقتله!

تغضَّن وجهه بمسحة حزن طارئة، وسألها وهو ينظر مليًّا في عينيها الواسعتين:

ـ كيف يجتمع الحسن والشر معًا فيكِ يا «زينة»؟

رمت رأسها على فخذه فانداح شعرها الذهبي على ثوبه الأبيض، وقالت:

ـ أنا على درب سيدي «إبراهيم كتخدا السناري».

قرصها في خدها بلطف، وقال:

ـ أي حُسنٍ في هذا الوجه الأسود؟

رفعت رأسها إلى عينيه من جديد وقالت:

ـ بيضاء مثلي لا يعجبها إلا مثلك، وأراك أجمل مَن في الدنيا.

وضع راحته تحت ذقنها وجعل عينيها في عينيه وسألها:

ـ أتحبينني أنا حقًّا أم تحبين مالي؟

لم تسحب عينيها وقالت في ثقةٍ متناهية:

ـ هناك في المحروسة مَن لديه مال أكثر منك وجرى ورائي حتى انقطعت أنفاسه، وأبعدته عني كأنه كلب أجرب.. كل هذا من أجلك، وأنت تعلم.

لم تكن تكذب عليه، فهي كلما اختلت إلى نفسها قالت في سرِّها: «أنا أعشق هذا الرجل»، وتكرر قولها وهي تغتسل بعد المضاجعة التي يتحول فيها إلى شخصٍ غريبٍ تتمزج فيه الرجولة الطاغية بطفولة غضَّة، ويلهو معها كطفلٍ قد شُغف بلعبةٍ لا يريد أن يبرحها. يقلبها ويُقبِّلها في كل جزء من جسدها، ويمرغ أنفه العريض بين كل حناياه، ويغسله بلسانه الطويل العريض الذي لم ترَ مثله عند أحد من قبل، ثم يدك حصونها زمنًا يطول، تنسى فيه كل شيء، وحين ينتهي تعرق هي وتبتلُّ كل خلاياها، أما هو فيبقى جسده جافًّا ويابسًا كبوصةٍ، لكن تعرق عيناه بدموع غزيرة ساخنة.

تنتابها حيرة شديدة من هذا الرجل الذي يُشبعها، ويجعلها تطير كفراشةٍ في ربيع ندي، ثم يجهش بالبكاء، وكأنه عجز عن إيلاجها. في هذه اللحظة تبيض عروقه الزرقاء، وتصفو ملامحه، ويتحول شيطان السحر الذي يسكنه إلى ملاك، ويبدو رغم ذكائه الحاد وكثرة الحيلة التي يملكها، غارقًا في الحيرة والعجز والسذاجة.

هكذا بدا أمامها في هذه الساعة، رغم أنهما يجلسان سويًّا على سطح البيت، وليس في السرير. فتح عينيه واسعًا، ودلدل لسانه، ونحَّى قصبة النارجيلة جانبًا، وراح يتابع المنادي الذي كان قد اقترب، لكنَّ صوته ضاع في زحام الناس عند «بركة الفيل». بدا أنهم يتحاورون، ويرفع بعضهم أكُفَّه إلى السماء، ثم يهرولون صوب الجامع الأزهر.

سحب نفسًا طويلًا من النارجيلة، وغطَّى وجهها بالدخان، وقال لها:

ـ تظلمين «مراد بك» حين تحملينه مسئولية قتل أبيك.

طوحت يدها في الهواء باستهانة، وقالت:

ـ ليس هذا فقط، ما يغيظني منه أنه...

وصمتت، وتاهت في نفسها طويلًا. نغزها في خدها الأسيل، وأعادها إليه، وسألها:

ـ أنه ماذا؟

تنهدت ونظرت إلى صفحة وجهه المثلثي، وقالت:

ـ لا يمنع جلوسك على رأس مصر سوى هذا الخائر الجبان المتهور الطائش، الذي هو أعظم الأسباب للخراب الذي حلّ بالأقاليم المصرية.

قهقه، وهزَّ رأسه، ولمس بيده بشرته السوداء، وسألها:

ـ أنا؟

ابتسمت في عذوبة وأجابت:

ـ عندك الحكمة والهمَّة ولك في السحر باع طويل.

صمت برهة، وترددت في أذنه أصوات يكرهها طالما كانت تناديه آمرة: «يا عبد يا زربون»، أيام كان بوابًا فقيرًا في «المنصورة» ينام بنصف بطن، لكنه طردها سريعًا، وقال لها في حزن:

ـ يبدو أنكِ نسيتِ أن مصر ولاية في ملك بني عثمان، والفرنسيس سيأخذون كل شيء، ولن يكون لي مكان في كل ما هو آت.

اعتدلت في جلستها، ونظرت إليه مليًّا، ثم قالت:

ـ لن يستغنيعنك الفرنسيس، كما فعل كل مَن جاءوا قبلهم، وجلسوا على الكرسي الكبير.

لعب الكلام برأسه، فنحى النارجيلة جانبًا، ونظر نحو الأفق المملوء بالهاربين، وقال:

ـ حوله جُند، ومعه مال، والباشا العثماني ترك له كل شيء، هو ومنافسه «إبراهيم بك».

امتقع لونها وقالت في غيظ:

ـ أجلاف العثمانيين، لا يشغلهم سوى نهب خيرات البلد، ويتركون الناس للمماليك يفعلون بهم ما شاءوا، وآخرهم هذا الوالي الضعيف الذي يسمى «بكر باشا».

ضحك ملء شدقيه وقال:

ـ ماذا يدرينا أن يكون الفرنسيس جاءوا إلى هنا بترتيب مع بني عثمان.. أليستبينهم مصالح ممتدة كل هذه القرون؟

لكنها، وهي التي عاشت الدسائس في قصر «مصطفى بك الكبير» قبل أن يهديها إلى «إبراهيم السناري»، هزَّت رأسها نافية، وقالت:

ـ لا أظن، بل جاء الفرنسيس ليبلعوا مُلك الترك الذي يهتز.

تنهَّد في حرقة، ورنا إلى البعيد، حيث كان الناس يتزاحمون هناك، وجلبتهم تنتهي هنا همهمات لا يتبين منها شيئًا.

تابعت شروده، ثم ابتسمت وقالت:

ـ جئت إليك بالبُشرى.. رأيت الليلة أن نهايته قد اقتربت، وأنت تعرف أن ما أراه في منام الليل ترونه أنتم بالنهار.

وضع يده على كتفها وقال:

ـ إياكِ أن تقُصِّي رؤياكِ على أحد.

2

قبل مدة ليست بالبعيدة كان الناس يجرون في الاتجاه المضاد، وأقدامهم تغوص في سرسوب ماء ضحل، يلثم جدران البيوت. رآهم من جلسته تلك، ولم يحرِّك ساكنًا، وهو غارق بين سحابات الدخان الأسود، وتحت لسانه قطعة أفيون من أفخر الأنواع.

كانوا يحملون ألواحًا ثخينة كبوابات عالية، وخوابير متينة طويلة من الأخشاب، وتجري خلفهم عربات «كارُّو» تجرها خيول مجهدة، حاملة ألواحًا وخوابيرَ أطول، وأخرى تحمل صفائح حديد مثقوبة، وجوابي صيد هائلة، وغلقان فارغة، وأحجار صلدة كبيرة الحجم، وظهرت حمير عليها لفائف من القش، يسوقها رجال حفاة.

ونادى المنادي:

- فاض النيل فالحقوه.

وجاء وقتها الخادم إليه وهو جالس في مكانه، وقال وهو يلهث:

- هناك أمر بخلع الطواحين في البلاد القريبة، وهدم الأبنية القديمة، حتى الجوامع التي في الساحل.

شفط «السناري» الدخان وسأل في حنق:

- وهل هذا يكفي؟

- يكفي، المد ليس هائلًا كالذي جاء قبل ثماني عشرة سنة.. كان فظيعًا، غلب الرجال، وقهر السواتر، وأغرق البيوت، وجعل الغلة تعز حتى إن إردب القمح سعَّروه أيامها بعشرة ريالات.

ضحك حتى لمعت أسنانه البيضاء في خيط من شعاع شمس العصر، وسأل فجأة:

- هل حواصلنا مملوءة؟

وقف الخادم صامتًا، وتطوعت «زينة» وقالت:

- هو لا يعرف، لكنني سمعت الخدم يقولون بالأمس إنها عمرانة بالقمح والفول والسمن والزيت والعسل والملوخية الجافة.. مملوءة عن آخرها من أرضيتها إلى سقفها، وسمعت وأنا قادمة صوت الطاحون يهرس الحبوب.

هزَّ رأسه وقال للخادم:

- لا تنسوا الحبوب المجروشة للدواب.

- ملأنا طوالة الخيل بالعليق.

هذه المرة لم يكن فيضانًا، ولا حتى زلزالًا كذلك الذي ضرب البيوت فرقصت وترنحت وخرج الناس إلى الشوارع مذعورين، كان فيضانًا وزلزالًا من نوع آخر لم يألفه الجالس على أريكته اللينة مغمورًا بالدخان، والأفيون يسري في عروقه، فيتصلب ذكرُه، ويرفع ثوبه في عينيَّ «زينة» وهي تبتسم في دلال.

هكذا عرف كل شيء، فمات الدخان، وغاب أثر الأفيون، وهبَّ هو مذعورًا في مكانه، يملأ عينيه من الزحام عند «بركة الفيل» وتقاطُر الناس في الشوارع، مهرولين نحو الأزهر، وصوت همهماتهم يتصاعد.

لقد جاء أحد حُرَّاسه وألقى في وجهه الخبر الذي ظنَّ أنه لن يسمعه أبدًا:

ـ الفرنسيس على باب القاهرة، والناس يتجمَّعون في كل الساحات.. «بركة الفيل» و«قراميدان» و«الأزبكية» و«الرميلة» و«بيت القاضي».

وأدهشه أن «مراد بك» لم يرسل في طلبه، ليقول له في نبرة تمزج الأمر بالرجاء:

ـ افعل شيئًا.

ثم ينظر إلى عينيه حين تغيمان، بينما العرق يتفصد من جبينه، وهو يتابع وحده الأشباح التي تهل في المكان، وتضع نفسها تحت مشيئته.

3

كلما خلت «زينة» إلى نفسها استعادت كل ما سمعته من أمها، التي لا تدري عنها شيئًا الآن. كانت سيدة حسناء الوجه، ممشوقة القوام، لينة الجسد حتى بعد أن طالها الكبر، وأورثت ابنتها كل شيء، بما في هذا رخامة الصوت، ونعومة الشعر واسترساله، والطلّة الناعسة لعينين نجلاوين.

كانت الأم تقول لها في ثقة تامة:

- أبوكِ قتله كبير المماليك.

في البداية ظنت البنت أن هذا الكبير قد جزَّ رقبة أبيها بسيفه، أو طعنه بخنجر، أو رماه برُمح، أو أمر جنده بأن يسحلوه في شوارع المحروسة، لكنها فهمت فيما بعد أن أباها غرق في النيل.

- وهل النيل مِلك «مراد بك» ليأمره بقتل أبي؟

سألت أمها وعلى وجهها دهشة، وانتظرت الإجابة، فقالت لها وهي تغالب دموعها:

- قتلوه في سنة الفيضان الكبير.

- ذبحوه؟

- أغرقوه في النيل، غرسوا رأسه في الطين الخفيف، رفرف كفرخ حمام مذبوح، ثم سكن بلا حراك.

- كيف عرفتِ كل هذا؟

- أحد الجنود كان يعرفه، وطالما جلس معه على عتبة دارنا البسيطة لشرب شاي بالقرنفل أعددته أنا بيدي، وحين عاد زارني سرًّا، وحكى لي ما جرى.كان يقول له دومًا: «قلبي انفتح لك يا عبد الرحمن بلا حدود، وبلا سبب.. وربك رب قلوب»، وكان أبوكِ يقول له في امتنان: «الحال من بعضه أيها الجندي الهُمام».كان «مراد بك» على رأس تجريدة لقطع الطريق في «بني سويف»، وكان أبوكِ يعمل على مركب لتاجر غلال، نهبوا كل ما على المركب، وحمَّلوه على الجِمال، قاومهم؛ لأنه كان أمينًا على مال التاجر، فغرسوا رأسه في الطين، كأنه فسيلة بصل.

- هل فعل «مراد» هذا بنفسه؟

- لا، جنوده.. هو لم يكن معهم لحظة موت أبيكِ، كان يطارد عصابة من العربان خطفت بعض ما نهبه المماليك من القرى، وهربت نحو الجبل.

داست «زينة» على أضراسها وقالت في غيظ:

- هذا الجندي عبدٌ مأمورٌ، وثأري مع آمره.

4

كان «السناري» واثقًا من أنهم سيلجئون إليه، ولذا راح يستعد لهذه اللحظة. هبط من فوق سطح بيته، الذي صار حديث أهل المحروسة، ودخل إلى الحمَّام، وخلفه المكيساتي، وخادم يحمل أواني مملوءة بالماء الساخن، وخرج البخار من النوافذ العلوية نحو الأفق الملبد بسحاب أسود، هبَّ فجأة، وحجب زرقة السماء.

شرد والماء الساخن يُصبُّ فوق رأسه فيما سمعه عن استهانة «مراد بك» بخبر الفرنسيس، وقوله لمَن أنبأه بأن أسطولهم أبحر منذ أيام قاصدًا الشرق:

ـ نحن خير من ركب الجياد ولعب بالسيوف.. فرساني أجلوا أسنانهم وينتظرونهم لينهشوا لحمهم الأبيض الطري.

وكان يعرف أيضًا أمر السلسلة الغليظة التي أغلق بها المماليك بوغاز «رشيد» في وجه السفن الغازية. وقال له مَن نقل إليه الخبر:

ـ لن يتمكنوا من النزول على اليابسة، وإن نزلوا لن يتقدموا شِبرًا واحدًا.

لكنهم نزلوا، وعرف هو بما فعلوا، لكنه أيقن أنهم سيُخفقون في مواصلة الزحف إلى هنا، وإن زحفوا فإن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا، إلا أن الحارس رمى الخبر على رأسه كالصاعقة:

ـ أصبحوا على أبواب المحروسة.

ارتدى ملابسه على عجل، وجلس على أريكة في التختبوش، ولم يمضِ وقت طويل حتى جاء الرسول إليه:

ـ أسرع يا سيدي، فالأمر جلل.

ركب عربته التي تجرها أربعة خيول، وتوزع الخدم أمامه في الطريق: «وسع يا عم. وسع يا خال. على جنب يا ست. افتح عينك يا ولد»، فانزاحت جانبًا نسوة يحملن فوق رؤوسهن صوانٍ عليها أصناف من الطعام جانبًا، وجرى سقَّاء يحمل قربتين على ظهره، فانسكب الماء من إحداها، وجرى كثيرون يرتدون جلابيب زرقاء والتصقوا بجدر الحوائط، فاتسع الطريق أمام الدوكار.

ووقف أناس كانوا يجلسون على المقهى يدخنون القنب ويحتسون القهوة والسوربيت، ويلعبون الشطرنج والمنجلة والضامة، وسكتت الربابة التي كانوا ينصتون إليها، وبقي الراوي الجالس في صدر المقهى فاتحًا فمه، وناظرًا إلى الأمام.

غمزه النادل في كتفه وصاح فيه:

ـ هل رأيت عجبًا؟ هذا الدوكار مرَّ من هنا مرات ومرات.

ابتسم الراوي عن أسنان مثرمة وقال وهو يشخص ببصره بعيدًا:

ـ هل نسيت أنني قادم إلى المحروسة من أيام قلائل؟

وصمت برهة ثم قال:

ـ كأني رأيت الرجل الذي يركب الدوكار يُباع يومًا في سوق «الجلابة» عبدًا من بين المخطوفين من إفريقيا.

كادت الصينية التي تتراص عليها فناجين القهوة تسقط من يده، فعدلها وقال في فزع:

ـ أنت مجنون؟ هذا «كتخدا»، وإن سمعك أحد من المقربين إليه وأخبره، سيأمر بقطع لسانك، فلا تروي شيئًا بعدها، وتعود إلى بلدك حافيًا، وربما يقطع رأسك فتخمد إلى الأبد.

ـ كتخدا؟! كبار المماليك بيض وشقر، والترك كذلك، فمن أين لهذا بتلك المكانة؟

ردَّ النادل وهو يهم منصرفًا نحو رجلين يستعجلانه على القهوة:

ـ هي إرادة الله.

فأمسك الراوي فنجانه، وشفط رشفة طويلة، وقال:

ـ في الأمر سر.

ردَّ عليه شاب يُدعى «حسن جعيدي» في غيظ:

ـ لا سر ولا يحزنون، الرجل أفاق، يسحر ويُنجم ويضرب الودع ويقرأ الكف ويزعم أنه يعرف الغيب، وهذا جعل له مالًا ومكانة.

وابتسم صاحبه الذي لا يفارقه كلما جاء إلى هذا المكان، وقال:

ـ ربما كان الراوي يقصد السر الذي جئت أنت من أجله إلى هنا.

فطوح «جعيدي» يده في الهواء، وردَّ عليه بصوت خفيض:

ـ لا يعرف ما في قلبي إلا الله، وأنت يا صاحبي.

ووضع يده على جيبه، وتحسس الخنجر المسموم الذي كلَّفه الكثير، وواصل:

ـ لو أضمن حتى مجرد الوصول إلى شريان في أحد قدميه قبل أن يقطع «الحرسجية» رقبتي لانطلقت إليه، ولا أعود إلا وقد دفعت السم في دمه.. لكن ستأتي هذه اللحظة مهما كلفني هذا من انتظار.

كان الجالسون على المقهى غير مبالين بما يجري حولهم، وربما لم يسمع أي منهم أن الناس يتجمعون هناك في الساحات، ويجرون نحو الأزهر، وربما سمعوا فضربوا عما سمعوه صفحًا، لكن الشيء الوحيدالذي جعلهم ينتبهون هو مرور الدوكار الهائل، ونقرات الجياد الأربعة أمامه، واللمعان الخاطف من سقوط الشمس على سواد «إبراهيم السناري» عبر فتحة واسعة في الستائر المزركشة التي تظلله.

لم تكن «زينة» معه كما اعتاد أن يصطحبها في نزهاته، فهو لم يكن ذاهبًا في نزهة، إنما في كرب عظيم.

وحتى حين كان يذهب إلى سهرات في قصر «مراد بك» لم يكن يأخذها معه، خوفًا من أن تلتقي عيناها الغاضبتان بعينيه، وهو داهية ماكر، فيرى كل ما تخفيه من غلٍّ، أو تقع عيناه على وجهها الساحر وهي رائقة صافية ناسية فيطمع فيها.

لا ينسى أن «مراد» خان سيده من أجل امرأة. كانت سيدة شركسية في حرم «علي بك الكبير» فاتنة بلا حد، رآها مرة واحدة فوقع في هواها، حاول أن يتناساها فلم يقدر، شغلته ليل نهار، فضحى بمَن كان له عليه عظيم فضل من أجل أن يظفر بها، فاشترط على «محمد بك أبو الدهب» أن تكون من حريمه إن فاز في المعركة.

لم يكن «السناري» معه في هذه الأيام، لكن تلك الحكايات رواها المماليك في الطرقات، وتندَّر بها الأغاوات، وضرب بها الأمراء مثلًا على نزق الرجل وشهوانيته المفرطة.

استعاد هذه الحكاية، وهو غارق في وجه «زينة» يراه مرسومًا أمامه على الطرقات، بينما الحوذي يفرقع سوطه فوق آذان الجياد لتجري مسرعة نحو «الجيزة»، وبانت البرك الصغيرة التي انحسر عنها جريان النيل، تحط على أطرافها غربان سوداء، راحت تنعق وترفرف، وتحوم في الهواء، ثم تعود.

رآها «السناري» من الفتحة التي كانت لا تزال تشاكس الهواء الطري، وقال لنفسه بقلب منقبض:

ـ منظر لا يبشر بخير.

لم يكن الطريق ممهدًا، فالأحجار التي تم وضعها أيام الفيضان تناثرت بعد أن رحلت المياه، وتلال قصيرة من التراب ظلت مكانها، تهب الريح شيئًا لتكنسه كلما هبت، وأكوام من القمامة تتابعت، وانبعثت منها روائح عفنة، وانتشرت فوقها الكلاب والقطط، تبحث عما يقيم أودها، وحام فوقها الذباب، يطنُّ مقتربًا من الدوكار، ثم يهرب فزعًا من نقرات الخيول. ذبابتان تمكنتا من الدخول خلف الستائر، وحامتا حول وجه «السناري»، فراح يضربهما بمذبَّةٍ كانت ملقاة أمامه، وينفخ وهو يلعن كل شيء، لاسيما أن العجلات كانت تعلو وتهبط فتقلقله يمينًا ويسارًا بلا رحمة، إلى أن وصل إلى مركب كبير حمله هو ودوكاره إلى الضفة الغربية من النيل.

وأخيرًا انعطفت الخيول نحو قصر «مراد بك»، وبدا من الخارج كالحًا، ووقف على سوره الأمامي غراب ضخم، كان يمد عنقه إلى الأمام، وينعق بلا توقف.

فجأة سقط الغراب فوق الدوكار، وفي عنقه سهم، وتناثرت الدماء على رأس الحوذي ومؤخرات الجياد، ونقطة وحيدة لوثت الجلباب الأبيض للسيد الجالس في الخلف يتقلب من فرط القلق.

همَّ الحوذي أن يرمي الغراب، بعد أن قبض عليه من ريشه، لكن «السناري» أمره:

ـ لا ترمِه، هاته.

أعطاه إياه، فنزل ممسكًا به، ودخل القصر الكبير.

5

لم تدع «زينة» سيدها يمضي إلى حيث تم استدعاؤه دون أن توصيه، وهي تضع عينيها النجلاوين في عينيه:

ـ ما الذي يجري لو لم تذهب؟

لسعه سؤالها فأجاب على الفور:

ـ هذا مستحيل.

حكَّت ذقنها بأطراف أصابعها وقالت بصوتٍ مفعم بالرجاء:

ـ لا تدعهم يورطونك.

نظر إليها في استغراب، وقال:

ـ طريقي طريقهم.

لكنها كانت مصرة على رأيها القديم:

ـ هم ذاهبون ومجدك آتٍ.

أبدى ضجره من حديثها، وقال لها وهو يدوس على كتفها بأصابعه المسنونة القوية:

ـ أنتِ واهمة.

ثم وهو يلبس مركوبه الأسود النظيف:

ـ إن كنتِ تحلمين في الليل، فلا تنسي أنني ساحروعرَّاف في الليل والنهار، يمكنني أن أعرف الخبر قبل أن يأتي.

وتركها واقفة مكانها حائرة، ومضى، فجلست شاردة في كل ما رأته بالليل، وهي تغط في سُبات عميق.

كذبت عليه؛ إذ إن ما رأته لم يكن خيرًا، بل كل الشر، وهل هناك أشر من القتل؟ لقد رأته قتيلًا، رأسه مفصول عن جسده، وصنابير الدم تتدفع من عنقه، وتطير نحو صارية عريضة عالية، ثم تنسكب ليأكلها الماء الذي يبدو بلا نهاية، فلا يبقى منها أثر.

قالت لنفسها:

ـ سيقتلونه هناك.

لكنها تصبَّرت حين تذكرت الصارية والماء الذي لا حدَّ له، وقالت بصوتٍ مسموع، لم ينتبه له أحد من الخدم: «للنيل شاطآن يراهما حتى الكليل، وصواري مراكبه صغيرة».

وفكرت في هذه اللحظة أن تفعل معه كل ما يؤجِّل اللحظة التي رأتها في المنام، وكتمتها عنه، حتى لا يعيش لحظة واحدة في كدر.

قالت لنفسها من جديد:

ـ لن أدعه يذهب أبدًا إلى البحر.

وزفرت في أسى: «أبي مات في النهر، وحبيبي سيموت في البحر، لم يكن بوسعي أن أنقذ الأول، لكن يمكنني أن أنقذ الثاني. لن أدعه يذهب إلى ذات الصواري العالية، وسأدعو الله ألا يتحقق ما رأيته في المنام».

كانت صغيرة، أصغر منه بكثير، لكنها كانت تجد في كنفه أبوة افتقدتها، وحين يعطف عليها، ويسكب حنانه فوق رأسها الملقى على كتفه، تشعر أنه أمها التي لا تعرف أين هي الآن. لكنها حين تخلع ملابسها كاملة في سريره، تجد نفسها في أحضان شاب في العشرينيات من عمره، وحين تقارن بينه وبين «مصطفى بك» تضحك من أعماقها وتقول: «لم أعرف المتعة إلا معه، وقبله كنت أظن أن النساء يتعرين كي يتعذبن في فُرُش الرجال، يلهون بهن، ويفرغون فيهن شهواتهم ثم يتركونهن يتوجعن ويمنعن أنفسهن غصبًا من التقيؤ».

وسألته ذات يوم:

- أين تعلمت كل هذه الفنون؟

فضحك عن أسنانه البيضاء، وقال:

- في أحراش «سنار» كانت لي صولات وجولات.

ومع الأيام لم يعد يطلب غيرها للمضاجعة، وتعلمت هي كيف تجعله لا يفكر إلا فيها، ويلين بين يديها كطفل، ويبوح لها بدفائن أسراره.

6

قبل أن تنهض من مكانها وتعود إلى جناح الحريم، جاءها خادم مسرع، وهو يلهث، وقال:

ـ أبلغني الحارس أن رجلًا غريبًا بالباب.

ـ ماذا يريد؟

ـ يقول إن معه رسالة لسيدي «إبراهيم».

ـ أي رسالة؟

ـ لا أعرف.

هزَّت رأسها، وقالت:

ـ دعه يدخل.

مشى خطوتين، ثم توقف، وقال:

ـ ملامحه تشبهنا، لكن لكنته غريبة، ليقابله أحد من الخشداشية، أو الحارس نفسه.

طوحت يدها في ضجر وقالت له:

ـ بل سأقابله أنا.

وانفتح الباب عن رجل نحيل طويل القامة، أسمر الوجه، له أنف مخروطي، وعينان ضيقتان، تنفتحان على مكرٍ شديدٍ ممزوج بمسكنة. مشى من أمام مصطبة الحارس ودخل من باب صغير ينفتح على الساحة التي يطل عليها التختبوش والحرملك. كان يرفع وجهه ويطالع جدران البيت ونوافذه، ويتوقف عند المشربيات البديعة، والشخشيخات النفيسة، ويمصمص شفتيه. لكنه ما إن رأى «زينة»، التي رفعت اليشمك عن وجهها، حتى اتسعت حدقتاه عن آخرهما، وبدا مخطوفًا بجمالها.اقتربت هي منه، وسألته بغتة:

ـ أيعجبك البيت؟

ابتسم في هدوء وقال:

ـ هو حديث الناس في المحروسة، وقد كنت هنا قبل أربع سنوات حين اكتمل بناؤه، رأيته من الخارج، لكن هذه هي المرة الأولى التي أرى داخله.

تفرَّست في ملامحه لبرهة ثم قالت:

ـ أنت لا تزال خارجه، يا هذا.

عاجلها بالرد:

ـ تأسرني روعته.

ثم تمتم بصوتٍ لا يسمعه أحد:

ـ وروعتك أنتِ أيضًا.

ابتسمت وسألته في استخفاف:

ـ أجئت لشرائه.

قبض ملامحه المنبسطة، وقال:

ـ وهل بوسع مثلي أن يقدر على ثمنه.

تجهَّمت وتساءلت في استنكار :

ـ وهل صاحبه في حاجة إلى بيعه، لا قدر الله؟

ابتسم في خبث، وقال:

ـ املئي عينيك من كل ركن فيه، فلا يدري أحد ما الذي سيجري في الغد.

وبينما هي مشدوهة من قوله، عاجلها حين دخل في الموضوع مباشرة:

ـ أنا رسول إلى «كتخدا».

ـ رسول؟ من أرسلك؟ ولماذا؟

سكت مدة، وبلع ريقه، وأرسل ناظريه تجوبان الجدران، ثم أعادهما إلى وجه «زينة» وقال بصوتٍ هامس:

ـ رسول الفرنسيس.

7

لم يكن «إبراهيم السناري» يدري حقيقة ما يجري في الخارج حين وصل إلى قصر «مراد بك» على عجل. لم تسعفه تعاويذه في أن يعرف ما يخفى على عموم الناس، ولا يمكنه أن يكذب على نفسه ويوهمها، كما يوهم نفوسًا كثيرة بأنه يعرف الغيب، أو طرفًا عريضًا منه.

كل ما سمعه هو قول خادمه إن الفرنسيس على الأبواب، لكن ما سمعه قبل أيام هو أن كاشف البحيرة (1) ، وعربانها يتصدون لهم، ويحرزون ضدهم انتصارات، وأنهم سيدحرونهم، ويجبرونهم على أن يعودوا من حيث أتوا.

فهم هذا من «مراد بك» نفسه، لكن ها هو يقابله فور دخوله البهو:

- نحن في محنة يا «إبراهيم».

كان وجهه مخطوفًا، وكثير من التجبر الذي يسكن ملامحه قد تراخى، وبدا رجلًا مقبلًا على أخطر مُلمَّةٍ في حياته، حتى إن صوته قد زالت عنه حشرجته، التي تصاحب صراخه وهو يأمر ويزجر وينفخ دومًا.

ولم ينتبه للغراب النازف في يد «السناري» إلا حين رماه على البلاط، فتناثر منه زُغب ملطخ بالدم، وقال:

- استبشر خيرًا، طالما توقف هذا الملعون عن النعيق.

بدت عليه حيرة، ولاذ بالصمت، مسترجعًا كل التمائم والتعاويذ التي صنعها «السناري» من أجله، ولم يكن أمامه من سبيلٍ سوى تصديقه، كما اعتاد.

وقرأ «السناري» عودة بعض الارتياح إلى وجه «مراد بك»، فأراد أن يخفف عنه كربه تمامًا، فقال له وهو يبتسم:

- «ياما دقَّت على الراس طبول».

لكن رفع إصبعه التي يزينها خاتم الزمرد، وقال في فتور:

- الطبول هذه المرة مختلفة.. الأخبار التي تأتينا من «البحيرة» ليست على ما يرام، لا بد أن نستعد بكل ما لدينا من قوة لمعركة فاصلة.

كان كثيرون مجتمعين عنده، أمراء، وعلماء من الأزهر، ومشايخ الطرق الصوفية، وأرباب الأشاير، والقاضي، وبعض رؤوس الناس.

وقبل أن يجلس «السناري» قال له «مراد بك»:

- ليس لدينا وقت، لا بد أن نذهب لاجتماع، نحسم فيه أمرنا، في «قصر العيني».. سيكون هناك «إبراهيم بك» ورجاله، وسينزل إلينا «بكر باشا» من القلعة، ويأتي نقيب الأشراف.. لا توجد لحظة أعز من تلك لتوحدنا جميعًا في وجه الغزاة.

وبينما كانوا يستعدون للخروج دخل الخدم حاملين صناديق، ووضعوها أمام «مراد بك»، فمدَّ يده على الفور ورفع أغطيتها، فبانت قطع السكين المحبوب والنصف سكين والربع سكين، وأنصاف الفضة والبارات والحلي (2) ، ثم ارتسمت ابتسامة رضا على شفتيه، ونسي للحظة همومه، لكنها

داهمته، فنظر حوله وقال:

ـ هذا ما جمعناه من التجار وأصحاب الدكاكين والأهالي، الخزائن خاوية، ونحتاج إلى شراء أسلحة وبارود وخيام ومؤن، واستمالة العربان بالمال.

ثم نظر إلى أحد الأمراء وقال:

ـ لا بد من إنهاء الهرج والإرجاف، فلتضربوا بشدة على قُطَّاع الطرق الذين استغلوا خوف الناس وعاثوا في المحروسة وغيرها فسادًا. افتحوا الأسواق والمقاهي، وعلقوا القناديل على البيوت والدكاكين.

هزَّ الأمير رأسه وردَّ:

ـ سمعت أن الوالي أمر بذلك، ليستأنس الناس بعضهم ببعض.

ابتسم «مراد بك» في سخرية وقال:

ـ أخيرًا فعل والي بني عثمان شيئًا مفيدًا.

وغمغم وهو يهم ليركب فرسه:

ـ أقطع ذراعي إن لم يكن الترك قد باعونا لـ «بونابرته».

(1) الكاشف هو مَن تعينه السلطة للإشراف على تحصيل عائد مساحة كبيرة من الأرض المزروعة في إقليم معين.

(2) عملات كانت تُتداول قبل الغزو الفرنسي لمصر.

8

لم تتمالك نفسها من الدهشة وهي تسمع الرسول المغربي النحيل يتلو على سمعها ما تحويه الرسالة. كانت في البداية تظن أن بها تكليفًا لسيدها بتولي منصب أعلى في كنف الذين سيحكمون بعد انتصارهم الذي هو آتٍ لا ريب فيه، أو دعوة له كي يقف إلى جانب الجيش الزاحف نحو القاهرة أسرع مما كان أهلها يتصورون، ثم بعد ذلك سينظرون في أمر مكافأته.

لكن الأمر لم يكن على النحو الذي تمنته «زينة»، فالرجل المغربي، أخرج لفافة ورقية من صندوق صغير، وقال لها:

ـ تعهُّد من كبير الفرنسيس للمصريين بأن لهم الأمان والحرية، وعليهم التخلي عن نصرة المماليك.

لوت شفتيها في امتعاضٍ وقالت له:

ـ وما لسيدي وما يريده هذا الكبير؟

ابتسم في خبث وقال:

ـ هم يعرفون أن لسيدك شأنًا عظيمًا، ويعتقد عموم الناس في قدرته على السحر وقراءة الطالع، فإن طلب منهم الامتثال مقابل ما وعدهم به «بونابرته» سيتبعونه، ووقتها لن ينسى كبير الفرنسيس جميل صنعه، وسيكون له ما يريد.

استغربت كلامه، وردت بصوت ثقيل:

ـ عندك شيوخ الأزهر، الناس يسمعون لهم.

هزَّ رأسه رافضًا، وقال:

ـ كبيرهم «عمر مكرم» لن يقبل، وبقية المشايخ سيجارونه.. يعرف الفرنسيس أنهم جميعًا مع المماليك والترك.

شعرت أنها أمام جاسوس وليس رسولًا، فباغتته بسؤال:

ـ مَن أنت؟

ـ رسول من الفرنسيس، وإن كنت عربيًا مثلكم.. لا تتعجبي،

ولا تعتقدي أنني عدو لكم، بل أريد بكم خيرًا.. جبخاناتهم (3) مملوءة، ومدافعهم قوية، وبنادقهم جيدة التصويب، لا تُقارن بما لدى جند المماليك المغرورين. المعركة محسومة، ولا أريد لأبناء البلد أن يدفعوا ثمنًا بلا طائل، وفي سبيل مَن يمصون دماءهم بلا توقف.

وجدت أنه يسير في الاتجاه الذي تمنته، ولو ببطء، فألقت بكل أوراقها في وجهه:

ـ لا بد لهذه الرسالة أن تصله قبل أن يتورط.

تهللت أساريره وقال لها:

ـ أليس هو في البيت؟

هزَّت رأسها:

ـ استدعاه «مراد بك» وذهب إليه قبل أن تأتي بساعة واحدة.

بُهت، وشعر بخيبة أمل، لكنه لم يعدم حيلة، إذ سرعان ما استردَّ أنفاسه، وسألها وهو ينظر في عينيها:

ـ كيف تصله هذه الرسالة بعيدًا عن عين «مراد بك»؟

التفتت خلفها، وصوَّبت نظرها نحو مشربيات الحرملك، حيث ظهرت رؤوس نسوة يتابعن ما تفعله، دون أن يصلهن صوت حديثها مع الرجل المغربي. وسمعت إحداهن تتنهد في غيظ، وأخرى أخرجت لها لسانها من بين فتحات الخشب المعشق، ثم توارت سريعًا إلى الخلف.

وبدا لو أنهن قد وجدن أخيرًا ما يدسسن به لدى «السناري» الذي غاب عقله المتوقد في حضرة «زينة»، فأخذته من زوجاته الثلاث وبقية الحريم، ونسي حتى أشغاله، وبقي في مخدعها أكثر مما يبقى جالسًا على مصطبته العريضة في التختبوش، يستقبل الأمراء والأعيان والشيوخ وكبار التجار، أو يذهب إلى قصر «مراد بك» ليُعينه على إدارة البلاد.

وكانت أكبر الحريم سنًّا تقول وهي تعض على شفتيها بعد أن هجرها تمامًا:

ـ بنت الواطي، سحرت الساحر.

لهذا ما إن رأينها تقف مع الغريب حتى تنادين، ليشهدن عليها أمامه حين يحضر، وسرَّهن كثيرًا أن الخادم والحارس وأيضًا الطباخ الذي كان يجلس في غرفته الصغيرة مستعدًّا لطهي طعام العشاء، والسقاء الذي كان خارجًا للتو بقربةمملوءة من البئر التي تتوسط الدار ليحملها إلى المزاير وأحواض الحريم، قد رأوها جميعًا، وسيكونون من الشهود، إن لم يصدقهن «السناري».

وأدركت «زينة» ما يدور في رؤوس النسوة، لكنها كانت واثقة من نفسها، وتعرف أن سيدها لا يمكنه الاستغناء عنها، ودموعه صارت مختزنة تحت جلدها من كثرة ما أهرقه منها، وهو راقد في حضنها.

لهذا لم تخف لظهور النسوة، وقالت للرجل المغربي:

ـ أعطني الرسالة وأنا كفيلة بتوصيلها إليه.

نظر إليها نظرة فاحصة، ثم سلمها لها، وخرج يتحسس موضع قدميه، وهو يمضي نحو «الناصرية» وتتخالط في أنفه روائح الطبيخ، وعفن خارج من كومة قمامة واقفة إلى جانب جدار، تتسابق عليها قطط وكلاب، حتى اختفى في انحناء الشارع، إلى أين؟ لا يعرف أحد من أهل المحروسة كلها.

هرعت إلى الحرملك متجنبة أن تنظر في عيون بقية الحريم، فقد كانت لديها مهمة أكبر وليس من الحكمة أن تضيع ولو ثانية واحدة في جدل ليس له مبعث سوى الغيرة والحسد. كانت تشعر وهي تصعد فوق الدرج الحجري العالي أنها على باب حياة جديدة مع سيدها، وأنها هي التي ستضع قدميه على بدايتها، ستأخذ قدميه المفرطحتين، وتدفعهما إلى الأمام، بعد أن تمسحهما في لطف، وترفع عينيها لترى آخر الدرب.

كانت قد رأت هذا الآخر في منامها، لكنها تعرف أن رقاب أمثال سيدها تطير في نهاية الرحلة، كأي طائر يطير بعيدًا، أعلى مما يمكن لجناحيه أن يتحملا. لم يكن لديها مانع من أن تصعد معه، حتى لو كان مصيرها مثل مصيره، ولحظة نهايتها تحين مع نهايته.

ارتدت التبان (4) ، فسترت ما بين سُرَّتها وركبتيها، وفوقه سروال، ثم القميص والرداء، وشدَّت فوقهما زنارًا، وملأت جيب السروال بقطع «زر محبوب» (5) ، التي تدرك أنها ستسهل طريق

الوصول إلى سيدها، ولبست فوق رأسها قلنسوة من القماش، موشاة ومذهبة، ووضعت عمامة من أعلى، وتركت طرفها ينسدل على وجهها، فصارت في هيئة رجل.

حين خرجت، تتصبب عرقًا من حر يوليو الشديد، وجدت الدهشة مرسومة في عيني اثنتين من الحريم، كانتا تقفان في وجه الباب، لكن إحداهن عرفتها، وصرخت فيها:

ـ ما هذا يا مجنونة؟ لو رآك أحد من الخدم الواقفين في الأسفل سيظن أن رجلًا في الحرملك.

لكنها تركتهما وهبطت الدرج، وهي مطمئنة إلى أن مَن يراها سيعتقد أنها رجل، وقالت لنفسها وهي تسحب الحصان الأبلق من الإسطبل:»المحروسة في قبضة سيدي، ويمكن أن تكون مصر كلها، حتى ولو من خلف الستار».

دسَّت الرسالة تحت السرج، وأوثقتها فيه بخيط متين، وانطلقت نحو قصر «مراد بك» في الجيزة. ركبت وحصانها مركبًا كبيرًا استأجرته وعبر بهما النيل، وتذكرت وهي ترسل بصرها إلى امتداد النهر، وترمق الشاطئين بلا انقطاع، ما جرى لأبيها في لُجج الماء والطين أيام الفيضان، وسقطت من عينيها دمعتان فوق الماء.

بالقرب من الباب سألت واحدًا من الحرسجية، بعد أن أعطته عشرة «زر محبوب»:

ـ هل «إبراهيم كتخدا السناري» في الداخل؟

دسَّ النقود في جيبه، وقال:

ـ ذهبوا جميعًا إلى «قصر العيني».

ضربت سرج الحصان بقدميها، مسرعة نحو المكان الذي ذكره، وسمعته يقول وهو ينظر إليها في استغراب:

ـ لم أرَ في حياتي عينيْ رجل بهذا الجمال!

كانت غاية في الحذر، تتلفت حولها بعينين مفتوحتين على اتساعهما، كأن الفرنسيس قد جاءوا من آخر الدنيا ليقتلوها أو يأسروها، أو أن المماليك قد استبدلوها بالفرنسيس عدوًّا ويستعدون الآن لها.

وصلت إلى مشارف «قصر العيني» والشمس تنتحر على مشانق غربية، حبالها زرق وسود، وريح تندلع وتزمجر فجأة في وجه السكون، وكأنها آتية في ركاب جنود «بونابرته» الذين كانوا يتقدمون في اتجاه المحروسة، ورؤوسهم مسكونة بحكايات قادتهم عن «القاهرة» مدينة السحر والعجائب.

كان قلبها ينبض بشدة، فلو انكشف أمرها، ستعجل بنهاية سيدها، وتذكرت ما رأته في المنام فجفلت، لاسيما أن مياه النيل كانت تسود مع قدوم الليل، فزادت الخوف خوفًا جديدًا.

في الطريق المؤدي إلى القصر، غطاها الظلام الوليد، هي وحصان سيدها، لكن القناديل التي أشعلها الخدم على الأسوار، جعلت أحد الحرسجية ينتبه لها. تقدم إليها، وخلع البندقية من كتفه، وقبض عليها بيديه، ومدَّها، وصرخ:

ـ مَن القادم؟

فقالت بصوتٍ خفيضٍ جعلته يخشوشن:

ـ أنا.

كانت إجابة مبهمة، فلم تؤدِّ إلى شيء، لكنها صرخت «لا.. لا»، حين سأل الحارس بصوت يحاول أن يجعله يتجاسر:

- جاسوس من الفرنسيس؟

توقف، ومدَّ بصره في الظلام الذي تلونه قناديل ملتاعة من جريان الريح. كانت هي قد ترجَّلت حتى تُشعره بالأمان. وتقدمت إليه بخطوات حذرة، وقالت:

- أنا رسول إلى «إبراهيم كتخدا السناري».

- رسول مَن؟

- مُصاب ألمَّ بحريمه، ولا بد له من أن يعلمه.

كانت قد جهزت هذه الإجابة في الطريق، وهي تدرك وقعها على كل مَن يسمعها. فما يخص الحريم لا يسأل عنه أحد، ولا يُمنع مَن وقع مصاب بحريمه من الاستجابة لمَن يحمل إليه الخبر والاختلاء به،
ولا من الانصراف فورًا، والذهاب معه.

وقبل أن يجادلها، دسَّت يدها في جيب سروالها وأخرجت له عشرة «زر محبوب»، وقالت:

- هذه لك، لقاء أن تخبره على الفور، فإن أتى فلك مثلها.

كان قد أعاد البندقية إلى كتفه، فتناول منها ما جادت به، ودسَّه في جيبه وهو يتلفت حوله، وقال لها:

- لا تذهب بعيدًا أيها الفارس، سآتيك بخبر، لكن هذا يحتاج إلى عشرة أخرى.

- لمَ؟

- لكبير الخدم، هو وحده الذي بوسعه أن يصل إلى مَن تريد.

هزَّت رأسها بالإيجاب، وأخرجت ما طلبه، وقالت له، وهو يهرع نحو الباب العالي:

- لا تتأخر، فالأمر لا يحتمل الانتظار.

لكن الحارس عاد بعد قليل وقال لها:

- «إبراهيم بك» متواجد الآن مع «بكر باشا» و«مراد بك» في غرفة مغلقة، ولا يجرؤ أحد على أن يدخل إليهم مهما كان.

(3) الجبخانة هي وعاء الذخيرة الحربية.

(4) لباس داخلي كان الرجال يرتدونه خلال القرنين الثامن والتاسع عشر في مصر.

(5) زر محبوب، هو عملة مصرية كانت متداولة قبل وصول الحملة الفرنسية، وكانت تساوي 120 مديني، والقرش كان يساوي ما بين 40 و60 مديني.

9

كانت جثة الغراب لا تزال في يد «السناري»، تجلط دمه، لكن بقي فمه مفتوحًا، والسهم مستقرًّا فيه، ورأسه يطل من بين أصابعه، ويتردد في أذنيه صدى ما قاله الحارس حين رأى الغراب: «خير، خير. ازعق
يا طير.. وإن كان شر خده وانجر».

ورغم أنه يمسك بجثة الغراب منذ وقتٍ طويل، لم يسأله أحد عما يحمل؛ لأنهم قد اعتادوا أحواله الغريبة، وكثيرًا ما سألوه في الماضي، ولم يتلقوا إجابة. وعرفوا فيما بعد أنه ما فعل هذا بلا حساب، فعند السحرة وقرَّاء الطالع، تصبح الغرائب شيئًا عاديًّا.

وضع الغراب القتيل على طاولة عريضة فغطَّى بعض حوافها المعشَّقة بالصدف الملون الرائع، وغامت عيناه، وقال لهما:

ـ الفرنسيس يمضون بلا تعب، وتنفتح الصحراء أمام حوافر خيولهم.

امتقع وجه «مراد بك»، لكنه أطلق فيه دفقة من تفاؤل عارض، وردَّ:

ـ ستنغلق أمامهم في «إنبابة»، وهناك سندفنهم، ونغنم كل ما حملوه من وراء البحر الكبير.

لم يَلْقَ كلام «مراد» صدى في رأس الباشا، الذي كان متجهمًا طوال الوقت، يحزنه نقصان ملك بني عثمان كل عام، وتضنيه قلة الحيلة، فهو يعرف جيدًا أن رسوله الذي أرسله عبر البحر ليأتي بالترياق من العراق، لن يفلح في تغيير الأمر، فالأتراك ضعفوا واستكانوا، ويستغرق الطريق من المحروسة إلى بغداد، ذهابًا وعودة زمنًا طويلًا، يكفي الفرنسيس بأن يقبضوا على برِّ مصر كله.

وتطلَّع الاثنان إلى «السناري» الذي كان قد شرد طويلًا، ثم عاد إليهما، وقال:

ـ لا يُنجي حذر من قدر.

فانقبض قلب «مراد بك» واختبأ في نفسه، وراح يتابع عيني «السناري» وهما ذاهبتان إلى الجدار، وشفتاه تتمتمان بما لا يمكن لأذني أحد أن تلتقطه.

وتوالت الصور على الجدار، لا يراها إلا هو، ويميل معها يمينًا ويسارًا، بينما الباشا والبك، مذهولان.

رأى خيامًا عريضة منصوبة عند الجسر الأسود بالجيزة، ومدافع تجرها الخيول، وعساكر خيالة وألاديش مترجلون (6) ، وقلينجية يقفون فوق غلايين صغيرة. (7) وفجأة اندلعت نار هائلة فوق الماء، وفرقع صوت جبار، وطارت جثث في الهواء، وحطت محروقة في النيل، ورآها الناس فهرعوا لعمل متاريس من بولاق إلى شبرا، وظهرت نسوة يجرين في الشوارع، وخلفهن عربات كارو تجرها أحصنة وحمير تحمل أمتعة، وتمر على دكاكين مغلقة، وأسواق خربة. وظهر ثلاثة من أصحاب الأشاير يتقدمون موكبًا هائلًا يضج بالطبل والزمر، وبان على جانبهم رجال معممون يقرأون «البخاري» ويبتهلون بالدعاء، ويرددون
بلا انقطاع: «يا لطيف.. يا لطيف.. يا لطيف».

وانطلق الموكب نحو الشمس، التي كانت تميل إلى الغرب فوق صفحة النيل وزراعات إمبابة، فانضم إليه الشيخ «عمر مكرم»، وهو يمسك بيمينه بيرقًا كبيرًا، ويقود ألوفًا يمسكون بأيديهم النبابيت والعصي وسيوفًا صدئة وسنجًا وسكاكين وبُلطًا، وينسل بعضهم ليقلبوا في مخازن وبيوت، وخلفهم

أناس على صدورهم صلبان، بعضهم يبكي في حرقة، ويقولون: «نحن معكم ولسنا عليكم».

وعلى الجانب الأيسر من الجدار بانت خيول تجفل، ورؤوس تطير، ونار تمد ألسنتها بقسوة، ودماء تسيل، وجبخانات تتبعثر، وسيقان تسلم نفسها للريح، وشيوخ يتعثرون في ضيق الطريق، وعميان تركهم مَن يأخذون بأيديهم. وسُمعت ولولة نساء، وعويل أطفال، حتى الكلاب كانت تنبح بشدة.

ورأى «مراد بك» العرق يتفصد من جبين «السناري» فوضع يده عليه، وسأله بقلب واجف:

- أين ذهبت؟

فرفع رأسه في انكسار وقال بصوت غارق في الألم:

- قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

(6) هم فرقة من المشاة سلاحهم السيوف، والكلمة تحوير مصري عن كلمة «بولداش» التركية التي تعني «الرفيق في الطريق».

(7) القلينجية هم العساكر البحرية.

10

عادت «زينة» إلى «بيت السناري» كسيفة البال، تجنبت استهزاء النسوة، بعد أن خلعت ملابسها الغريبة عن أنثى، وكظمت غيظها الشديد، ليس لضحكاتهن الباهظة، لكن لأنها أخفقت في الوصول إلى سيدها.

رأته خارجًا مع «مراد بك» وتابعتهما وهما يمتطيان جوادين، وقفا لحظة تحت القنديل الكبير، وودَّعا الباشا، الذي عاد إلى قلعة الجبل، وانطلقا في اتجاه الزراعات الغربية، وابتلعهما الظلام. اقتربت من الحارس الذي كانت قد رشته، وسألته، فأجابها وهو يبتعد عنها مسرعًا كأن ثعبانًا قد لدغه:

ـ لا أدري.. لا أدري.

راح هو، وترك لها الرسالة، التي التقطتها من تحت السرج، وخبأتها في خزانة ملابسها، وأوصدت بابها بإحكام، ووضعت فوقها ملحفة وسجادة مزركشة، وحركتها قليلًا، لتصير إلى جانب مخدعها، بحيث يكون بوسعها أن تستيقظ إن امتدت إليها يد، وأرادت فتحها.

كانت تقول في نفسها: «سيعود سيدي غدًا أو بعد غدٍ، وسيقرأ الرسالة، وستنفتح أمامه وأمامي دنيا جديدة». وشردت فرأت نفسها تجلس على كرسي عريض عالٍ مُذهب، وعلى رأسها تاج، وهو جالس عند قدميها، يدلكهما ويبكي.

لكن حلم الليل الذي مرَّ بها قبل أيام أيقظها من شرودها الناعم، فانتفضت واقفة في منتصف الغرفة، وولّت وجهها نحو الجدار الحجري الأصم، وذرفت دمعتين.

«أين أنت الآن يا سيدي»، سألت الجدار، فلم يجبها، وتناهى إلى سمعها غنج النسوة في الخارج والغرف المجاورة بالحرملك، وهن يدخلن في نوبة هزار طويلة كالعادة، يقتلن بها بعض وقتهن الطويل الممل، ويخفين الألم الذي سرى في نفوسهن منذ أن جاءت «زينة» إلى هذا البيت، فأخذت منهن الرجل، الذي لم يبكِ تحت قدمي أيٍّ منهن.

كان يقول لـ «زينة» وهو غارق في دموعه:

ـ أشعر كأني أنتِ، وكأنكِ أنا.

تأخذ وجهه بين راحتيها الطريتين وتقول:

ـ أنا منك وأنت مني.

يضع كفَّه السوداء إلى جانب كفِّها البيضاء، ويقول:

ـ كاختلاف الليل والنهار.

فتضرب ذقنه في لطف وتقول:

ـ لا وجود لأحدهما بدون الآخر، وليس أحدهماأفضل من أخيه.

وتتذكر أن كل مَن في الحرملك من البيض إلا واحدة خمرية البشرة، فتسأله:

ـ هل تفعل مع أيٍّ منهن ما تفعله معي؟

فيجيب على الفور:

ـ ليس فيهن مثلك.

تكرر هذا بينهما مرات ومرات، هي تسأل السؤال وهو يجيب عن طيب خاطر، ولا يجد غضاضة في أن يفسر لها كل شيء:

ـ أنا يتيم مثلكِ، أنتِ خُلعت من حضن أبيكِ، وأنا خُلعت من بلدي.. نعم وجدت هنا ما لم أجده هناك، ولم يكن بوسعي أن أجده لو لم آتِ إلى هنا، لكن الحنين إلى جذوري لا يفارقني.

وتمسد شعره في حنان فيبوح أكثر:

ـ حياتي كانت مُرَّة مثل حياتك، ومذ رأيتك في قصر «مصطفى بك» والدنيا ضحكت لي.

يعرف هو مَن هي، وتعرف هي مَن هو، رغم فارق السن بينهما، والمقام الآن، في اللحظة التي يدفن رأسه بين نهديها، ويبللهما بحرقته ويقول لها:

ـ جئت من «سنار» عاصمة السلطنة الزرقاء التي تحكم السودان، يقولون إنها «سن نار» فدمج الناس النونين، فصارت هكذا.. ألسنة نار الشعل التي كانت تضيء حلقات الذكر وجلسات تعلُّم القرآن، تركت الناس هناك في صباي يُرجعون اسم المدينة إلى هذا، محتفين وفرحين، لكنَّ رجلًا ركب معي المركب الذي أقلني إلى «بولاق» أخبرني أن «سنار» اسم امرأة سميت المدينة باسمها، وأنا صدقت هذه الرواية، وزاد صدقي حين قابلتك، ولو كان الأمر بيدي، لسميت القاهرة «زينة» على اسمك.

ضحكت حين قال لها هذا، وزادت ضحكتها لمَّا كرر الكلام على مسامعها، وردَّت:

ـ أتريد أن تسمي المحروسة على اسمي؟

ـ بلى، أليست «زينة» أجمل من «القاهرة»؟ أنا أراها أجمل.

حكى لها حين سألته ذات مرة، بعد أن تعب جسداهما من كثرة الوطء:

ـ مَن أنت؟

ردَّ دون تفكير:

ـ عبد، جلبني تجار الرقيق عنوة، وباعوني في سوق الجلَّابة بثمن بخس؛ لأني كنت نحيلًا وصفرتي تغلب سمرتي، لدرجة أن مَن اشتراني ظن أنني مريض بالطاعون، فأعادني إلى التاجر، واستردَّ ما دفعه، فأبقاني التاجر ثلاثة أشهر، أجبرني فيها على أن آكل فوق طاقتي. كان يحشر الطعام في فمي بأصابع يديه العشرة، فإن تأففت يقرصني بمقراض من حديد في فخذي، فأزدرد ما يقدمه لي لأقتل ألمي بألم آخر. ولما سمنت باعني بضعف ثمني الأول، لكن سيدي رأى مني أشياء عجيبة، فأطلق سراحي.

ـ أشياء عجيبة؟!

تسأله «زينة» وهي تنظر في عينيه اللتين تتسعان كلما أوغل في البوح. وترمي أذنيها لتلتقط كل حرف ينطقه، فلا يجعلها تنتظر طويلًا، ويُكمل:

ـ دخل عليَّ مرة فوجدني أتمتم بكلمات لم يفهمها، وبشرتي السوداء صارت بلون حبة العنب الناضجة، ورموشي تلمع كريشة من ذهب، والكراسي حولي تتحرك يمينًا ويسارًا، وبعضها يتصادم ويتساقط فوق الأرضية. لم أكن أشعر بما يجري حولي، هو الذي حكى لي ما رآه، وخاف مني، وعرف أن لي في السحر، وكتابة التعاويذ، فطلب مني أن أُحصِّنه ضد حسد منافسيه من التجار والأعيبهم، وأطعته مقابل أن يُطلق سراحي، فوافق على الفور، فكتبت له حجابًا، وعلَّقته في رقبته،

وقبّلت رأسه، وانصرفت لا أعرف وجهتي.

- كانت وجهتك قصر «مصطفى بك».

- هاهاها.. زمن طويل مرَّ حتى وصلت إليه، فبعد أن تركت بيت التاجر، همت على وجهي في شوارع المحروسة، حتى وصلت إلى «الناصرية»، وألقيت جسدي على الأرض إعياءً، فضلت الموت على أن أمد يدي إلى الناس، وبينما أنا على حافة الإغماء من فرط الجوع، ربَّت كتفي رجل ربعة، في وجهه سماحة لم أرَها عند أحد من قبله، وأوقفني، وسقاني شربة ماء، ثم أعطاني حفنة من التمر، وسألني إن كنت أبحث عن عمل، فأومأت له موافقًا، فعرض عليَّ أن أذهب معه إلى «المنصورة»،وكنت قد سمعت عنها حديثًا طيبًا، فمشيت معه بلا كلام، فلما وصلنا، ظننت أنني سأعمل معه فرَّاءً، فهو كان كبير الفرائين، لكنه سلمني إلى صاحب دار وسيعة، وقال له: جئت إليك من المحروسة بالبواب الذي كنت تطلبه.

- بوااااااب؟ يا لها من مصادفة عجيبة! فأنت الآن بواب، لكن على المحروسة كلها.

قرصها في خدها اللين، وقال لها:

- لم أتحدث مع أحد عن حقيقتي غيرك.

- أعرف، لكن لا أريد لك أن تقف بي في منتصف الطريق، فقد كرهت الحكايات الناقصة.

- جلست في مدخل دار كبيرة، بابها سميك، مكتوب عليه «هو الخلاق الباقي»، وخلفه مزلاج متين، أراه يملأ عيني وأنا جالس على ناصية ممر ينعطف بعد خطوتين من الباب، حتى لا يرى الواقف على الباب أهل الدار. كانت شغلتي إن طرق أحد الباب، أقوم مسرعًا لأفتح له، وأعرف حاجته. وكان صاحب البيت هو كبير النشارين والنجارين، فيأتيه الناس كثيرًا، سواء من أهل الحرفة، أو ممَّن كلفوه بأعمال لهم، وكنت أحيانًا أرفع مع العمال ألواح خشب السنط والنبق واللبخ والجميز، وأحيانًا أشاركهم في الشق والجز والقلع والطرق، في ساحة ضيقة أمام الدار، وبهم عرف أهل المدينة أن لي في قراءة الطالع، ومداواة المرضى، فازدحم المكان بطالبي الرقية، والخائفين من الحسد، والراغبين في معرفة ما في أيامهم الآتية، فتركت شغلي، واكتريت دارًا، فصارت وجهتهم، وامتلأ جيبي بالمديني والأنصاف، وكان بعض الناس يأتون إليَّ بالقمح والفول والطيور والخراف والسمن والبيض، كي أقرأ لهم أكفهم، أو أعرف لهم مَن سرق بيوتهم وحظائرهم. كانت دارًا ضيقة، لا تُقارن بما أنا فيه الآن.

ها هي داره أمام عينيها الآن، تراها من خلال دموعها السخية، وتعرف أن سيدها أنفق عليها سبعة عشر ألفًا وخمسمئة وثمانية وسبعين «زر محبوب»، وتعرف أنه كان يقف على رأس البنائين والنحاتين والجيارين والجصاصين والسقافين والحدادين وهم يعملون، ليستعجلهم حتى ينتهوا من بنائه في أسرع وقت.

وسمعت جلبة في الفناء، فجرت نحو المشربية، فرأت بعض الحرسجية والخدم يتجاذبون حديثًا صاخبًا في فزع، فسألتهم من وراء الخشب المعشق والمنمنم البديع:

- ماذا جرى؟

قال أحدهم:

- سمعنا أن سيدنا ذهب مع «مراد بك» على رأس جيش لملاقاة الفرنسيس في إقليم «البحيرة».

قفز حلم الليل المفزع إلى رأسها، فضربت صدرها، وكانت ضربة قوية جعلتها تشهق، فجرت إلى قُلَّة الماء، وعبَّت منها، غير مبالية بسرسوب يخر على رقبتها، ويسيح حتى بطنها، مبللًا ملابسها.

ولم تجد أمامها من سبيل سوى صعود سطح البيت، الذي كان يعلو كل البيوت المحيطة به، ما عدا بيت «حسن كاشف» فقد كان يساويه، ووقفت على أطراف أصابعها وأرسلت ناظريها إلى البعيد، وتمنت لحظتها لو كانت زرقاء اليمامة التي حكى عنها سيدها الغائب ذات يوم، حتى ترى أعماق الصحاري الممتدة بعد الزراعات، ويحط ناظراها على «السناري» وهو واقف على رأس الجند، ووجهه قد تخالط فيه الأحمر والأسود، فصار حبة عنب ناضجة.

يوم حكى لها عن هذه التي كانت ترى ما تجري الخيل يومًا كاملًا حتى تصل إليه، سألته:

ـ من أين لك بهذه المعرفة؟

ضحك، وأخذها بين ذراعيه القويتين، وقال:

ـ تعلمت القراءة والكتابة والحساب، حتى لغة الترك ألممت بها، ففتحت أمامي أبوابًا مغلقة، تعلمت ما أعلمك بعضه، وثقتي في أن نجابتك ستجعلك قريبًا قادرة على القراءة بطلاقة، والكتابة باقتدار.

الآن هو هناك، يمتطي جوادًا، يغرس حافريه في الرمل، ويصهل ناظرًا إلى البعيد الذي يشغله جنود غرباء.

تذكرت فجأة ما قاله لها ذات ليلة:

ـ أشعر أن هذا البيت صار لعنة.

ـ لِمَ؟

ـ منذ أن استوى في عيون الناس، والحسد يُطاردني.

ـ أيقدر الناس على أن يحسدوا ساحرًا؟

ـ السحر يأتيني ويغادرني، وهو ليس عاصمًا من الحسد.

كان يتوه منها، ويرى الأحجار ترقص، وبعضها يطير في الهواء، ثم يتفتت إلى حصوات صغيرة، ويعود ليتجمع من جديد، حجرًا حجرًا فيصير مدماكًا في حائط، وتتقابل الحوائط لتصبح غرفة، هي تلك التي يجلس بين جدرانها وغيرها.

هو كان يعرف ماذا يعني ما يراه، ولذا طالما ردَّد على مسامعها:

ـ بنيته لغيري.

ـ ستعمره، ويطول عمرك، وتملأه زراريك.

حدق في الفراغ وابتسم في هدوء وقال لها:

ـ شيء سيئ أن يعرف الإنسان منَّا ولو طرفًا قليلًا جدًّا ممَّا سيأتي.

ارتجفت لكلامه وسألته:

ـ هل تعرف شيئًا عن مصير هذا البيت؟

حبس دموعه، وغطى كفيها بكفيه العريضتين، وقال:

ـ ليس هذا بالضبط، لكن انقبض قلبي حين دخلته للمرة الأولى بعد اكتمال بنائه.

ضربته على ركبته، وقالت له لتخفف عنه:

ـ هذا يحدث دومًا عندما يدخل الواحد منَّا للمرة الأولى بيته الذي كلفه الكثير.. يخاف عليه من كل

شيء، الهواء والمطر وأحذية الداخلين وعيونهم، وهذا ما جرى لك.

عندها قال لها في امتنان:

ـ أنتِ الأقرب إليَّ؛لأنك تحبينني بصدق، ولذا سأكشف لكِ عن سري الدفين.

ـ سرك في بئر.

ـ سأعرفك مكان خبيئتي.

ـ لا أريد.. لا تفعل.

ـ لمَ تقولين هذا؟

ـ يكشف الناس خبيئاتهم قبل الرحيل.

ـ أنا بين مَن يرحلون بلا موعد، أعناقهم على أكفهم، ودسائسهم تجري بينهم، ودماؤهم تسيل بلا توقف.

ـ لكنك غيرهم.

ـ «مَن عاشر القوم أربعين يومًا، صار منهم وصاروا منه»، وأنا معهم منذ سنين.

وأخذها من يدها، وخرج من باب الحرملك، وانعطف يمينًا نحو دهليز يؤدي إلى الفناء الواسع في الأسفل. في منتصف الدهليز وقف فوق درجة من درجات السلم الحجري، ورفعها فبانت تحتها صفيحة حجرية بيضاء، رفعها في هدوء، فأطلَّ غطاء صندوق خشبي ضخم، عليه قفل سميك، سحب المفتاح من جيبه، ودفعه في المنيم الذي ران عليه بعض الصدأ، وحرَّكه فانفتح الصندوق عن سبائك من الذهب وجواهر وكومة كبيرة من «زر المحبوب» والبارات.

طلب منها أن تغمس يديها بين ما رأت، فجفلت، ثم فعلت لترضيه، وشعرت وقتها برعد يسري في شرايينها، فاهتزت، وكادت تسقط إلى أسفل لكنه أسندها بذراعيه، وضحك وقال:

ـ لم تتحملي لمس الجواهر، فما بالك لو لبستيها.

ابتسمت وردَّت في دلال:

ـ ليست لمثلي.

التقط عقدًا ولفَّه حول جيدها، وقال:

ـ صار أجمل في رقبتك.

مدت يدها لتخلعه، فوضع كفيه عليها، وأقسم:

ـ هدية لك.

والتقط حُجَّة البيت التي كانت مسنودة في ركن الصندوق، وقال لها:

ـ هذا وقف البيت.

هزَّت رأسها، وقالت:

ـ هو بيتك، لزوجاتك وأولادك.

ابتسم وقال لها:

ـ لكِ فيه نصيب.

سألته مندهشة:

ـ أنا؟ كيف؟

ـ هذا البيت لذُريتي وعقبي، فإن انقرضوا يؤول إلى ذرية عتقائي ذكورًا وإناثًا، بيضًا وسودًا وحبوشًا بالسوية بينهم، وبعدهم لأولادهم العتقاء بعضهم من بعض، فإن انقرضوا جميعًا، وخلت منهم الأرض، يؤجر ويوقف للإنفاق على مصالح ومهمات وشعائر مسجد «السيدة زينب» ومقامها الشريف، فإن تعذر الصرف في هذا الوجه، يُصرف الريع على الفقراء والمساكين من المسلمين والأرامل المنقطعين أينما كانوا، وحيثما وجدوا.

ضحكت وقالت:

ـ أين نصيبي إذن؟ لا أجده فيما ذكرت.

نظر إليها باستغراب، وقال:

ـ نصيبك ليس في أحجار البيت ولا أرضه ولا ريعه، إنما فيما أنتِ على رأسه الآن.

نظرت إلى أسفل، وأشارت بطرف إصبعها:

ـ أتقصد..؟

ـ نعم، لا يعرف أحد في البيت، حتى زوجاتي وأولادي مكان هذه الخبيئة.

وترقرق دمع في عينيه، فمدَّت يدها ومسحته بأطراف أناملها، وهو يدفع رأسه إلى صدرها، وقال:

ـ أنا واثق فيكِ، عليكِ إن جاءك خبر رحيلي عن الدنيا، وكلنا راحلون، أن تأخذي رُبع هذا لكِ، وتوزعي البقية على أولادي، للذكر مثل حظ الأنثيين.

دقت صدرها بيدها وقالت:

ـ بعد الشر عنك، وطال عمرك، لكن أنا إن فعلت هذا سيتهمونني بالاستيلاء على أضعاف ما أكشفه لهم.

ابتسم وقال:

ـ عملت حساب هذا، فأخبرت شخصًا أثق فيه، شيخ من رجال الأزهر اسمه «زيدان الخضيري»، رجل صادق وعدول، هو لا يعرف على وجه اليقين كيف جمعت هذه الخبيئة، لكنه يعرف مكانها،ويعرفك أنت، سيأتي، ويوزعها كيفما قلت لكِ، ومعه ورقة مني بذلك.

ثم أغلق الصندوق، وبسط فوقه صفحة الحجر الرقيق، وأزاح الدرجة فاستقرت مكانها، وعادت إلى هيئتها الأولى.

كانت النسوة نائمات، وكذلك الخدم، ولم يكن بوسع عيني حارس الباب أن تصل إلى الدهليز، أما الحرسجية الواقفون خارج البيت، فهم منشغلون بالمارين من أمامه، وليس مَن يتحرك داخله.

لم يشعر بهما أحد، وهذا ما كان يريده، فهو لا يطمئن لأحد إلا «زينة»، وكان يقول لنفسه على الدوام: «إن كانت قد ملكت روحك، فكم تساوي أموالك من أجل أن تستمر راضية عنك».

«أين أنت يا طفلي الكبير؟»، تساءلت بصوتٍ مرتفع دون أن تدري، فسمعتها واحدة من النساء، فصرخت فيها:

ـ أَلَكِ خلفة ولا نعرف؟

ضحكت «زينة»، ووجدتها فرصة لتغيظها أكثر، فقالت لها:

ـ أسأل عن سيدي الذي غاب.

ـ وهل سيدك طفل؟

صمتت برهة، ثم قالت:

ـ حين نتعانق نكون طفلين.

عضَّت على شفتيها، ونفخت بشدة فتطاير شعرها، ثم مدت يدها إلى قُلة ماء، وخطفتها من أمام المشربية، ورمتها في اتجاه رأس «زينة» لكنها تفادتها بمهارة، فهوت على الأرض متهشمة، وشقفات منها تدحرجت نحو الدهليز، واستقرت واحدة منها فوق الخبيئة.

11

انقطعت أخبار «السناري» وغرقت «زينة» في القلق، وكان ألم الانتظار يأكلها، هي فقط التي كانت متعبة، بينما كل شيء في البيت جرى كالمعتاد، لم ينقصه سوى لحظة وصول «السناري» حين كان يترجَّل من على حصانه، فيأخذه الخادم إلى الإسطبل.

هذا فقط الذي لم يعد يحدث، أما بقية الأمور فقد حدثت، كأن آلات تقوم بها، الشيء الآخر الذي تغير هو أن همسات الخدم تحولت إلى الكلام عن كل ما يتناثر من أخبار شحيحة عن زحف الفرنسيس، بعد أن كانت تنحصر حول المتاعب التي تضنيهم من فرط الكدح ليل نهار، والمؤامرات التي تُحاك في قصور كبار المماليك، وصراع نسائهم في حرملك كل بيت فخيم، وقصر منيف.

كان يضيفون إلى ما يصلهم الكثير من مخيلتهم وهم يتحركون بدأب وهمة، يكنسون الفناء والسلالم والدهاليز، ويرشون الماء، ويطحنون الغلال، ويضعون الحطب في المواقد تحت خزانات مياه حمامات سيدهم وحريمه، ويرمون الغلة المجروشة والتبن في طوالات الخيول بالإسطبل، وتجلس نساء بدينات أمام طسوت الغسيل يدعكن الملابس ويحكين أو يتبادلن بصوتٍ خفيضٍ ألوانًا من الغناء، ويأتي الخضري والجنايني بما يحتاجه البيت من خضار وفاكهة قادمين من أرضٍ التزام «السناري» على عربة كارو تشق الطريق بكل ما يسعها من سرعة.

كل هذا كان يجري على قدم وساق، وتتابعه «زينة» بفتور شديد، وهي غاية في الإجهاد، من الأرق، وقلة الطعام، وانقباض النفس.

كانت تنتظر رحيل الليل بفارغ الصبر، ثم تصعد إلى سطح البيت، وتشرئب إلى البعيد، لعلها ترى أيَّ شيءٍ يدل على عودة حبيبها الغائب.

وذات صباح، سمعت جلبة عارمة حين كانت الشمس قد ارتفعت، ونشرت نورها على البيوت والحوانيت والوجوه في «القاهرة»، ورأت الناس يجرون من جديد نحو الساحات، والتفتت نحو الزراعات والصحراء التي تليها فرأت سحبًا من الغبار تغطي الأفق، وقالت في نفسها، مرتكنة إلى ما تعرفه: «خيول قادمة».

وسمعت خادمًا يصيح بأعلى صوته في الفناء:

ـ هُزم «مراد بك» في «شبراخيت»، وتقهقر إلى «المحروسة».

كان الناس يندفعون نحو «رملة بولاق» وفي أيديهم سيوف وعصي وقصاب وبُلط وفؤوس، وحراب مسنونة، وبنادق قليلة، ورايات لشيوخ الطرق الصوفية، ووسطهم رجل ينادي بأعلى صوته:

ـ حي على الجهاد.

لم تتحمل «زينة» البقاء في البيت، ولم يكن بوسعها أن تنزل بلباس امرأة وسط الرجال المتزاحمين، فالنساء اكتفين بمتابعة ما يجري من خلف النوافذ والمشربيات، ومن فوق سطوح البيوت، والخوف يكسو وجوههن.

هبطت سريعًا إلى الحرملك، وارتدت ملابس الرجال، وخرجت ومعها قصبة طويلة، ولم تمر دقائق حتى كانت وسط المتزاحمين، الذين يتقدمون بخطى سريعة نحو الغرب، لملاقاة جيش «بونابرته».

وهي في الطريق وجدت سيدة طاعنة في السن ملقاة إلى جانب جدار أحد بيوت حي «الناصرية»، مالت عليها، ورفعت وجهها، الذي كانت قد دفنته بين ساقيها، فراعها اصفرار وجه المرأة، والبياض

الذي زحف على سواد عينيها، وأنفها الذي صار جزرة حمراء، وشفتيها المقددتين.

سألتها:

ـ مَن أنت؟

ابتسمت عن أسنان مثرمة وأجابتها:

ـ أنا على باب الله.

وحين ردَّت عليها «زينة»:

ـ كلنا على باب الله.

وضعت المرأة يديها على كتف «زينة» وقالت:

ـ وهل كلنا لم يدخل في بطوننا طعام منذ ثلاثة أيام.

لم يكن هناك دكان واحد مفتوح كي تبتاع لها شيئًا تأكله، ولم تجد بدًّا من العودة بها إلى البيت، فاكترت حمارًا، وأركبتها وسارت خلفها مع المكاري، وهي تقول في نفسها: «أتركها هناك عند الخدم ليطعموها، ثم أعود على الحمار، لعلني أرى سيدي بين العائدين».

في الطريق سألتها:

ـ من أي مكان أنت؟

أجابتها بصوت مخنوق:

ـ كان سكني عند جامع السلطان حسن.

«جامع السلطان حسن» ردَّدت «زينة» وهي تتنهد بحرقة، فقد حلَّت أيامها هناك بغتة في رأسها المثقل بالهموم، ورأت نفسها بنتًا صغيرة ذات ضفائر ذهبية تدب بقدميها الحافيتين إلى جانب الجامع، وتغافل أحيانًا شيوخه وفراشيه وحراسه وتتسلل إلى الداخل، وتتكمش خلف العمود الأخير، لتتنعم برؤية الرسوم البديعة الفاتنة.

كان الفراشون يطردونها، فكيف لبنت أن تدخل مسجدًا يُصلي فيه الرجال؟ كما أن قدميها متسختين من تراب الحارات والعطوف والأزقة الضيقة الخانقة ووحلها، وستلوث البسط التي جاد بها كبار المماليك والأعيان على أرضية الجامع.

لا تنسى يوم أن أمسك بها أحدهم وهي مكورة كقنفذ، وأخذها من ضفيرتيها، ورماها في الشارع وهو ينظر في وجهها ويقول:

ـ عسلية يا بنت، لكن يا خسارة عليكِ كوم تراب وذباب.

لا تنسى؛ لأن هذا الرجل هو الذي سلَّمها بعد سنين لواحد من كبار مماليك «مصطفى بك الكبير» فأهداها إلى سيده.

ولا تنسى هذه البيوت الواطئة التي ينام بعضهاعلى بعض ويتثاءب على مهل، وكأن الزمن قد توقف. بيوت من الطين المخلوط بطوب لبن، تبدو أكواخًا لا يزيد ارتفاعها على أربعة أقدام. جحور تطل منها رؤوس الناس والماعز والخراف والإوز والدجاج، وتفوح منها روائح نتنة.

كانت هي تعيش مع أمها وأبيها في واحد منها، لا يخفف عنها وطأة هذا العيش الكئيب سوى الفرجة على الحواة والقرداتية الذين يجوبون الأزقة، ويقفون في الساحات الضيقة التي توزع بعض هوائها

على المنعرجات التي تنتهي إليها، ويبدأون في ألعابهم العجيبة.

كانت هي تقف في منتصف الدائرة، وتغرس عينيها في وجه الرجل الذي يجز رقبة الطفل، وتسيل دماؤه، لتجيب عن السؤال الذي يؤرقها كل ليلة: كيف تطير رقبة الولد لكنه لا يموت؟ بل يعود ويدور على الواقفين بصندوق صغير من الخشب الخفيف ليجمع ثمن فرجة من أراد الدفع.

اليوم تشعر أن الدائرة اتسعت وأن اللاعبين كثر، ومَن تُجز رقبته
لا يعود أبدًا، ويشتعل في نفسها سؤال: «هل جز أحد الغرباء رقبة سيدي؟».

كانت العجوز تهتز على الحمار، وتصطك عظامها فتُحدث صريرًا، يصل إلى مسامع «زينة» وهي تستحث المكاري أن يضرب الحمار فيُسرع الخطى حتى تصل إلى البيت وتعود إلى حيث يتجمع الناس على الشط الشرقي من النيل، ربما تجد «السناري» قد عاد، وعبر إلى الشط الشرقي في المراكب التي لمحتها تتحرك نحو الغرب لتحمل الجنود المهزومين.

على باب البيت أنزل المكاري العجوز، وقالت هي للحارس:

ـ أحضروا لها طعامًا وشربة ماء، وأبقوها في الفناء حتى أعود، أو تتصرف إن أرادت.

وركبت الحمار، الذي أدار عنقه نحو الشمال الغربي، ليشق طريقه وسط المتزاحمين من الرجال. عند المقهى القريب من «بيت السناري» توقف الحمار فجأة، ونظرت «زينة» بإمعان نحو شاب يجلس في الطرف شاردًا، ومسحت بعينيها جسده وملامح وجهه، ثم ضربت بطن الحمار بكعبيها، فمضى في طريقه.

وظهرت هناك على شاطئ النهر قباب ضخمة، سألت المكاري عنها فقال لها:

ـ نصبوا الخيام ليستعدوا لملاقاة الفرنسيس.

وسمعت ترديدًا طويلًا، كأنه قراءة قرآن، لكنه لم يكن بقرآن. سألت المكاري، فقال لها:

ـ علمي علمك.

وأرهف أذنه، لكنَّ رجلًا فارع الطول كان يمضي على عجلٍ أجابهما حين قال لصاحبه القصير الذي يهرول إلى جانبه:

ـ المشايخ بدأوا في قراءة البخاري من ساعات، حتى يوفق الله جند المماليك وأهل المحروسة في صدر الغازي «بونابرته».

لكنها حين وصلت إلى الشاطئ تاهت وسط خلق كثير، كأن القيامة قد قامت، وحين طالعت الوجوه وجدتهم جميعًا من أهل البلد، جاءوا من الأزقة المعوجة، والحارات ذات المغاليق، وكل منهم يحمل ما وجده في بيته ينفع في معركة آتية، حتى إن بعضهم يحمل أفلاق نخل، وعروق زان، وأسياخ حديد طويلة.

جلست على طرف الحشد، بعيدًا عن الخيام، وطلبت من المكاري أن ينتظرها، وستعطيه أكثر مما أعطته، فربط الحمار في شجرة قريبة، وجلس إلى جانبه، رافعًا رأسه نحو أفواج من الخلق كانت تهل من بطن المدينة وتملأ الجسور.

رغم الحر الشديد لم ترفع العمامة من على رأسها، ولا الشال الذي لفَّته حول وجهها، وكفاها أن صوتها يفضحها أحيانًا، إلى درجة أن المكاري سألها:

ـ لماذا ينعم صوتك أحيانًا يا عم، ليصير كصوت النساء؟

استردَّت خشونتها المصطنعة وأجابته:

ـ حساسية الصدر تُغلق زوري أحيانًا، وتجعل صوتي مبحوحًا.

لم يسألها أحد غير المكاري، لكنها تنبهت حين دلت قدميها في الماء إلى أن رجلًا ينظر إليها من بعيد باستغراب، فرفعتهما، ونظرت إليه، فسألها:

ـ الأخ من أي باب في «المحروسة»؟

أجابته على الفور، بصوت خشن أجش، كلفها كتمة نفس قوية، وشحط حنجرة كادت تشرخها:

ـ من «باب زويلة».

وتركته حائرًا، وتطلعت إلى مراكب كثيرة تنقل الجند والجبخانات ناحية «إمبابة»، والناس على الشط في خيامهم منتظرين، وخلفهم هرج ومرج، وأبواب أُغلقت على حارات مخنوقة، وآمال كاذبة بأن خليفة المسلمين، المُنعَّم في بابه العالي، لن يدع مصر، التي يمص دمها ويأكل لحمها حتى صارت جلدًا على عظم، تسقط في يد أحد غيره.

12

على المقهى القريب من «بيت السناري» في حي «الناصرية» كان كل شيء يجري كالمعتاد. لم يتأثر الجالسون بهذا الذعر الذي يدب في الأزقة والشوارع والساحات، كانوا دائخين من الشراب والإنصات إلى ربابة شاعر أعمى، يكاد قصيده يُرى.

لم يسأل أحدهم عن انكسار جند المماليك في عمق الصحراء، وتراجعهم للاحتماء بالناس في القاهرة، لكن سقاء «بيت السناري» الذي ينهي يومه الصعب بتدخين القنب، اقتحم عليهم عالمهم الهادئ، ورمى في وجههم الخبر المفجع:

- الفرنسيس على باب المحروسة.

قهقه النادل وردَّ في استهانة:

- منذ أيام ونحن نسمع هذا الكلام، ولا نرى أحدًا.

قبض السقاء على كتف النادل بقوة وقال:

- خذ الأمر هذه المرة على محمل الجد.

لوى جسمه فخلص كتفه الممسوكة، وعيناه على الصينية حتى
لا يسقط ما عليها، وقال وهو يمضي نحو زبائن ينتظرون المشروبات:

- لن يختلف حالنا مع الفرنسيس عمَّا هو عليه مع الترك.

انكمش السقاء على مقعد في الركن، مشغولًا بما سمعه، وانشغل معه كل مَن في المقهى، فوقف بيدق الشطرنج وطابيته في مكانهما، وعليهما يدا اللاعبين الشاردين، وكف الزهر عن النقر، وتوقفت شفطات القهوة والسوربيت في الحلوق.

وردَّ «حسن جعيدي» الذي كان يجلس في الركن متوثبًا، والغضب يطل من عينيه:

- هذه فرصتي، ولن أفرط فيها.

ولم يكن أحد يعلم من الجالسين مقصده، باستثناء صاحبه، الذي طالما حاول إثناءه عمَّا يريد أن يفعل، لكنه أخفق في إقناعه، فجاراه إلى حين، وهو يقول لنفسه: «سأبقى إلى جواره لأحميه من نفسه».

كان «جعيدي» مَن ينتظر فرصة دخول الفرنسيس إلى المحروسة، وهو شاب في السابعة والعشرين من عمره، أتى من الحي الذي كانت تقطنه «زينة» قبل أن تُستجلب لقصر «مصطفى بك الكبير»، كان جارها، ما إن يفتح نافذته غير المستوية والضيقة حتى يشرق نورها في عينيه، ثم أشرق في قلبه، فعشقها حتى امتلكت أمره، دون أن تدري.

سابق الزمن حتى يكون فارس أحلامها، فشاغلها بعينيه وأطراف أصابعه وأرسل إليها قُبلًا في الهواء، فكانت تصك ضلفتي نافذتها الأشد ضيقًا في وجهه، متناسية أنهما كانا يلعبان معًا في الحارة أيام الطفولة البريئة. لكن أمام إصراره على مداعبتها من بعيد ابتسمت له وواربت النافذة، ثم فتحتها ليراها، ورآها وهي نائمة على كليم من الخيش في الصيف، وقد انحسر جلبابها عن ساقيها وفخذيها، فطار عقله، وضرب الجدار بيده، وراح يتحين لحظة خروجها من البيت، وهو يقول لنفسه:

- عشقت روحها، وخطفني جسدها، فاكتملت متعتي وعذابي.

كانت تخرج قبيل الظهر إلى سوق الخضار، ملفوفة في خمارها، ومحجوز وجهها خلف اليشمك، فلا يرى أحد منها ما يراه، وكان مطمئنًا إلى أن كنزها المدفون لا يعرف مكانه إلا هو. سار خلفها إلى أن خرجت من الحارة، ووصلت إلى أول السوق، وابتاعت ثلاث أوقيات من البامية، ومثلها من الطماطم، وثلاث بصلات متوسطة الحجم، وربطتي فجل وبصل.

قال لها وهي عائدة:

ـ الأكل القرديحي يقطع النفس.

كانت هي المرة الأولى التي تشعر فيها أنه يتعقب خطاها، فالتفتت إليه وقالت:

ـ لا أشم في بيتكم رائحة اللحم.

وابتهج لردها إذ قصَّرت عليه المسافة، فقال لها على الفور:

ـ في بيتي سيكون لحم عجول وطيور وسمك وفواكه من كل نوع، ولن يمر يوم إلا ويدخل الحلواني عندنا.

ـ أي بيت؟

ـ بيتي أنا وأنت.

لم ترد، وسارت متثاقلة في دلال لكن جسدها اللدن الذي اهتز على مهل، والابتسامة التي رآها تشع من عينيها، جعلته يقول لنفسه في فخر: «صار القمر في يدك».

وكان يتكئ طيلة الوقت على ما لمسته هي وأمها من شهامته، حين واجه لصًّا تسلل إلى بيتهما المتداعي وأراد سرقة أشيائهما القليلة. ليلتها صرخت الأم، فهبَّ «جعيدي» وكان قد دخل الصبا، لنجدتهما، ورغم نحافة جسمه في مواجهة لص قوي البنية، فقد هزمه، وأجبره على أن يترك ما سرق ويفر هاربًا.

ليلتها رأى وجه «زينة» وجيدها الطويل وشعرها الناعم المسترسل وهي في لباس نومها، وقد أزال الفزع من وجهها أي أثر للنعاس.

تخفي هي وجهها عن الناس، رغم أن مثيلاتها في الحي، سافرات الوجوه، حاسرات الرؤوس، فالبيشة واليشمك لنساء الحرملك، أما هنا فيعيش الناس جنبًا إلى جنب مع الخراف والماعز، وينغلق على الكل باب واحد، فيرى الرجال النساء والفتيات في الحواري، ذاهبات إلى الأسواق والأسبلة، وعائدات منها بلا توقف.

لكن فجأة اختفى وجه «زينة»، وقال الناس في الحارة إن شيخ الجامع قد ذهب إلى أمها وقال لها:

ـ بنتك فاتنة، ولا بد أن تداري وجهها عن عيون الرجال حتى لا تأخذ عقولهم.

وأتى اليوم التالي بغير ما أراد «جعيدي»، فقد سُرقت منه «زينة» بينما كان هو خارج الحارة، يكدح في وكالة قريبة من «السكرية» حيث الحوش الواسع الذي يدبغ فيه أكثر من مائتي شاب ورجل جلود الماعز والخراف والجاموس والبقر، بعد أن ينزعوا ما عليها من شعر بماء النار، ويقلبونها في الملح وقرض السنط المدقوق، ثم يأتون بالرمان والجاز وسلفات الحديد والخشب الملون ليعطوها الألوان التي يريدونها، الأصفر والأحمر والأسود، ثم يجففونها في الشمس.

في اليوم الذي قرر أن يهديها فيه مركوبًا وخفًّا وحاشية من صوف الغنم، تجلس عليها في الشتاء وهي تغسل ملابسها هي وأمها في الطست، ضاع كل شيء.

عاد قبيل المغرب، ووقف في النافذة ينتظر خروجها، لكنها لم تخرج، فقال لنفسه: «ربما هي مريضة»، وفي اليوم التالي، قرر أن يذهب ليطرق بابها، ويسأل عنها، وقالت له أمه: «النبي وصَّى على سابع جار»، فطلب منها، وقلبه يرتجف، أن تذهب هي لتسأل، وراحت وعادت لتقول له :

ـ لا أحد في الدار.

نزل ليلتقط الأخبار بأذن مفتوحة ولسان ثقيل، فلم يفده أحد بشيء. عاد إلى البيت حزينًا، وفجأة التقط الحَلة، وجرى نحو «عبد العظيم» مبيض النحاس، الذي يقع دكانه على رأس الحارة، فهو يُسلي نفسه بالنميمة، ويتبادل كل ما استجد من أخبار أهل الحي مع النسوة اللاتي يتحلقن حوله في انتظار تبييض أوانيهن.

حين اقترب منه، وفي يده حلة ازرقَّ جوفها من فرط الصدأ، سمع اسم «زينة» ينطق به لسان إحدى النسوة الجالسات أمام الرجل، فيما هو يدور بقدميه العاريتين، وساقيه النحيلتين، في قلب طست فوق حبات من القصدير وعجينة من الملح والليمون والنشادر ملفوفة في قطعة من الصوف.

بدا كأنه يرقص على إيقاع الكلام الذي يسمعه، فالخبر كان جديدًا غريبًا على سمعه، هكذا بدا، وهو الذي اعتاد أن تهزه الأنباء التي يسمعها للمرة الأولى، أكثر مما يحتاجه في رج جسمه بقوة، كي يجلي أي آنية من الصدأ.

المرأة التي نطقت اسم «زينة» هي زوجة شيخ الجامع «جابر العيوطي»، وحين سألتها إحدى النسوة الجالسات إلى جوارها:

ـ كيف عرفت؟

أجابتها على الفور:

ـ أبلغني زوجي.

عادت المرأة تسأل:

ـ وكيف عرف زوجك؟

ضحكت ثم قالت:

ـ شيوخ الجوامع تسقط الأخبار الجديدة في حجورهم دون تعب منهم.

لكن امرأة بدينة فاجأتها بصوت رفيع لا يتناسب مع حجم صاحبته:

ـ سمعت أن لزوجك يدًا فيما جرى لـ «زينة».

ردَّت زوجة الشيخ في غضب:

ـ كل شيء تم برضاها.

تدخَّل مبيض النحاس، بعد أن توقف برهة وهو ينظر إلى «حسن جعيدي»، الذي كان قد وقف فوق رؤوس النساء دون أن تدري أي
منهن به:

ـ أنت قلت إن الجند قد أتوا قبيل الفجر، وجميعنا نيام، وأخذوها وأمها، فعن أي رضا تتحدثين.

ردَّت زوجة الشيخ في غضب، وهي تشعر أنها تورطت حين أسرَّت بما لا يعرفه غيرها وزوجها:

ـ أراد الله أن ينتشلها من الفقر.. فرق كبير بين زقاقناالبائس وقصر «مصطفى بك الكبير»، فهناك

لن تنام بنصف بطن.

عاد المبيض يرقص من جديد وهو يضحك في فحش وقال:

ـ زهرة الزقاق، وكل الأزقة حول جامع السلطان حسن، صارت جارية، يتلذذ بها الغريب.

سقطت الحلة من يد «حسن» فوق رأس زوجه الشيخ، فقامت مفزوعة، ونظرت إلى الشاب الواقف خلفها بوجه أصفر، وأصابع ترتعش، وصرخت فيه:

ـ أعمى البصر والبصيرة.

«لم أكن أعمى لأني رأيتها»، حدَّث «حسن» نفسه بعد أن التقط ما سقط منه، وعاد بظهره خطوات إلى الوراء، ومضى كسيف البال، يصارع الجرح العميق الذي انفتح في نفسه، ويدوس بقدميه على حلمه الغض، ويحاول أن يرى مدخل بيته المتواضع بعد أن ضاع منه الطريق.

13

«دبرني ماذا أفعل يا أخي الذي لم تلده أمي؟»

سأل «حسن جعيدي» صاحبه الذي لم يجد إجابة تسعفه سوى أن قال له:

- انسها يسترح قلبك.

لكن مَن يأتيه بجرعة نسيان وقد تمكنت «زينة» منه، ويراها أمام خطواته وعلى جدر البيوت، ووجهها مطبوع في كل قطعة جلد تمتد إليها يداه ليصبغها، ويحل في فنجان القهوة الذي يحتسيه، ولم يغب عن باله وهو مسطول بالحشيش أو مخمور بالبوظة.

أهمل شغله، وكان يذهب ليجلس طيلة النهار قبالة قصر «مصطفى بك» من بعيد، فلما يجن الليل يقترب أكثر، ويطالع النوافذ لعلها تظهر في إحداها، بلا جدوى.

ظل أسابيع على حاله إلى أن سمع أحد الحرسجية يتحدث ذات ليلة عن التزام الصعيد الذي كافأ به الباشا، الجالس في القلعة، «مصطفى بك»، فانتقل إلى قصر هناك، ومعه حريمه.

أراد في هذه اللحظة أن يقترب من الحارس ويسأله:

- هل ذهبت «زينة» معه؟

لكن كان يدرك أن في هذا جز رقبته، وعاد في تلك الليلة إلى صاحبه وقال له:

- سأرحل إلى الصعيد.

لكنه سبقه إلى أمه، وباح لها بما جرى لابنها، فحجزته وهي تبكي بحرقة:

- اقترب أجلي، وأخشى أن أموت وأنت غائب.

حاول أن يشرح لها ما يريده، لكنها استعصمت بحبه لها، وبما وصى به أبوه، قبل أن يشهق بالنفس الأخير، وقالت له لتهدئه:

- ستكون من نصيبك في النهاية.

نظر إليها مندهشًا فقالت:

- رأيت في منامي ما أثلج صدري، فلا تيأس من رحمة ربك.

ثم تنحنحت وعاجلته بالسؤال الذي لسعه كضربة سوط، وُضع في النار حتى احمرَّ:

- هل ترضى بامرأة عاشرها غيرك؟

عاد جسمه إلى الاهتزاز من فرط الغضب، فأجهزت عليه:

- ما بالك بأنها محظية لرجل غريب، يمكن أن يهديها لمَن أراد، بعد أن يشبع منها؟!

وأوصاه صاحبه بأن يتذكر ما قالته الأم ليساعده على النسيان، فذكر مساوئ المحبوب، يفتح العين الكليلة عن نواقصه، ويجعلها تنتبه إلى أن خسارته ليست نهاية الدنيا.

لكنه أوصى صاحبه بأن يفعل شيئًا من أجله، فقال له:

- أعرف تاجر عبيد له منزلة في «أسيوط»، ويدخل قصور أمرائها.. هو يأتي ثلاث مرات في السنة

ليبيع رقيقه في الجلّابة.

صرخ فيه:

- ألديك هذا وتتركني أتلوى من الألم؟

وكأن الأم كانت تقرأ الغيب، فلم تمر شهور قليلة حتى وصلته الأخبار من التاجر، الذي ظل يتردد على الجلابة، هو وصاحبه، مرتين في الأسبوع ليسأل عنه. فلما قابلاه سألاه عنها، فحك ذقنه، ثم قال:

- أهداها «مصطفى بك» إلى «إبراهيم كتخدا السناري».

ثم هز رأسه وقال:

- جارية ذكية، صارت لها مكانة عند سيدها في زمن سريع.

ردَّ «حسن جعيدي» في قرف:

- كأنها مركب نزهة، يتهادونها أولاد الكلب.

ضحك التاجر:

- سمعت أن «السناري» هو الذي طلبها، حين فك سحرًا أسود أصاب «مصطفى بك» وأوجع رأسه بصداع قاتل لم يكن يفارقه ليلًا أو نهارًا.

وانقبض «حسن» لما سمعه، لكنه لاذ بصمت مطبق، بينما راح تاجر الرقيق يكمل:

- خيَّره «مصطفى بك» بين هدية من ذهب أو أرض براح، لكن «السناري» طلب جارية من جواريه، وحين سأله البك: أي جارية؟ ردَّ على الفور: اسمها «زينة»، فضحك وقال له: «رغم أنها المفضلة لديَّ، لكن طلبك مجاب».. البك اختصر الوقت، فهو يعرف أن «السناري» ساحر، وإن لم يُعطها له، فقد يسحرها فتنسخط في عين البك قردة، أو تنفش شعرها وتهيم على وجهها، أو تمرض وتموت.

عاد «حسن جعيدي» من وجومه الطويل سائلًا:

- أليس «السناري» هذا هو العبد الأسود الذي جعله العبيد البيض سيدًا علينا؟

تلفَّت التاجر حوله، ثم نظر إلى صاحب «حسن» وقال:

- يبدو أن رقبةً ستُجز قبل أن تغرب شمس هذا النهار.

14

ملأ «القاهرة» خبر القصر الذي يبنيه العبد الذي صار سيدًا. وقال الناس: يطاول قصور كبار المماليك، ويفوقها في موقعه قرب «الناصرية»، حيث الونس في الليل والنهار.

انشغل الناس بالبيت، وعددوا في ذكر تكاليفه، والهيئة التي سيكون عليها بنيانه، وكيف جُهز بالطنافس والبسط والثريات والرياش والأثاث الذي أعده له خصيصًا أبرع النجارين والنشارين والحدادين واللحامين.

أما «حسن جعيدي» فقد شغله أمر آخر، وذهب ذات يوم وسأل الحارس، بعد أن قضى وقتًا يقترب منه بحذر، ويقاوم لعثمة لسانه:

ـ متى سيشرف «إبراهيم كتخدا» المكان؟

ابتسم الرجل وأجابه:

ـ نحن على أهبة الاستعداد لاستقباله في أي وقت، اليوم أو في الغد أو حتى بعد أسبوع، وربما شهر، الموعد بيده هو.

وقبل أن يهم بالانصراف سأله الحارس:

ـ مَن أنت؟

فردَّ على الفور:

ـ صاحب حاجة، وأنتظر عطف البك.

هزَّ الحارس رأسه وقال:

ـ سيجبر خاطرك حين يراك.

مضى مغمومًا، وهو يقول في غيظٍ: «هو مَن يكسر خاطري الآن، وإن رأيته سأقتله»، وسار بخطى متثاقلة، كأن زكائب رمل مربوطة في ساقيه، حتى وجد نفسه أمام المقهى القريب من «بيت السناري» فجلس، وطلب قهوة، وجلس يرشفها على مهلٍ وهو يطالع البيت، الذي تأهَّب لاستقبال صاحبه، ومعه «زينة»، التي لا يرى «حسن» للحياة فائدة في ظل فقدانها.

يومها لم يكن هناك حديث لزبائن المقهى سوى البيت الذي استقام في عيون العابرين وملأها، وأثار حسد كبار المماليك.

وسمع «حسن» اثنين من اللصوص يتساءلان في صوتٍ خفيض:

ـ تُرى أين سيضع «السناري» ذهبه وأمواله؟

لا يدري أيٌّ منهما أن الكنز في هذا البيت ليس أموالًا ولا ذهبًا
ولا جواهر، ولا حجج بيوت وأملاك، ولا التزامًا تجري في أرضه الخيل فلا تصل إلى نهايته بعد ساعات طويلة، إنما هو ذلك البدر الذي غاب خلف اليشمك في البداية، ثم اختفى خلف الجدران، والمسافات البعيدة، وجبروت أصحاب السلطان، الذين يسرقون كل شيء في هذا البلد، حتى فتياته الحِسان.

ولم تمضِ سوى أيام حتى جاء صاحب البيت إليه في موكب عجيب، أمام دوكاره يجري خدم

ينبهون الناس كي يفسحوا الطريق، وعلى جانبيه وخلفه حراس أشداء. وقال أحد الجالسين على المقهى:

ـ يبدو أن صاحب هذا البيت الكبير قد حضر.

في هذه اللحظة كان «حسن» يجلس في الطرف، ناظرًا إلى البعيد، تجاه البيوت الخفيضة، التي يخرج منها عيال ذوووجوه ممروضة متسخة، فالتفت يغلبه خفقان قلبه، وتابع دخول الموكب إلى البيت، بينما وقف الناس يتابعونه في اندهاش ممزوج بالرهبة، ثم عاد كل شيء إلى طبيعته.

قام من مكانه، ومشى نحو البيت، وحام حوله. فراشة كان، والبيت قنديلًا أبيض في ليلة ظلماء، ولذا عرف أنه لو اقترب أكثر سيموت، ويصبح نسيًا منسيًّا. ولم يكن لديه أدنى عبء لو كان لموته ثمن، والثمن أن تعرف هي أنه مات على بابها، وأنه ظل كل هذه السنين ينتظرها دون أن يعرف اليأس إلى نفسه سبيلًا. لكن ماذا لو قطعوا رأسه، وسال دمه وولغت فيه الكلاب، ثم حملوا جثته ورموها فوق جبل المقطم، لتأكلها الذئاب والضباع، وهي لا تعرف كل هذا؟

ورآه الحارس الذي سبق أن تحدث معه فناداه:

ـ تعالَ هنا.

ذهب «حسن» إليه، وهو يقدم خطوة ويؤخِّر أخرى، فسأله الرجل:

ـ ألست أنت مَن لك حاجة عند البك؟

تنهَّد بحُرقة وقال بصوتٍ غير مسموع إلا لأذنيه:

ـ أجمل حاجة في هذه الدنيا.

وحين اقترب منه، أجابه:

ـ أنا، بشحمي ولحمي.

ومع الإجابة تمنَّى لو تنشق الأرض عن جُبٍّ عميق، يأخذه إلى غير رجعة، حتى يستريح من عذابه. وفاجأه الحارس بما لم يتوقعه:

ـ يمكن أن أطلب من الخادم أن يأخذك إلى البك، إن كانت لك مظلمة، وهذا بعد أن نستأذنه بالطبع، ثم نفتشك قبل الدخول. أما إن كنت تريد صدقة، فلتعُد بعد يومين، بالضبط عقب صلاة العصر، فوقتها ستوزع الصدقات على المحتاجين هنا عند باب البيت.

تردد في أن يقول له شيئًا، بعد معرفته أن سبب دخوله إلى فناء البيت، ووقوفه أمام «السناري» وجهًا لوجه، هو أن تكون له مظلمة. لكن أي مظلمة له عنده؟ هل يدخل ويقول له صراحة: «أنت أخذت مني حبيبة عمري»، حتى لو كلفه هذا حياته؟ وبماذا يفيده هذا الاعتراف الذي قد لا يكون هناك طائل من ورائه؟ كما أن الرجل لم يأخذها منه، غيره الذي خطفها من الزقاق، إنه مملوك «مصطفى بك الكبير»، ليهديها لسيده، ومَن يدري كم مرة وطأها قبل أن يهديها لـ «السناري»، وكم مرة وطأها هذا الأسود العجوز؟ كان كلما تخيلها في سرير هذا أو ذاك طار عقله، وعبَّ من الخمور الرخيصة لعله ينسى بلا فائدة.

سلسلة من رجال سطوا على أعز الناس عنده، أولهم كان شيخ الجامع الذي دلَّ عليها، وأخذ نصيبه مالًا يسيرًا، أو رضا من أولي الأمر عنه، وتنتهي بهذا الذي أصبحت ملكه الآن، ولا يدري أيٌّ منهم بالنار التي تكوي حشاياه وضلوعه.

وأكثر ما كان يضنيه أن تكون هي قد نسيته، واستلذت بطيب عيش في كنف البكوات. وطالما ملأت

الظنون رأسه وسأل نفسه: «هل لهذا العشق أصل؟»، فكل ما لقيه منها مجرد ابتسامات وإشارات لم تدُم طويلًا، كانت أخف من أن تستقر لولا الأوهام التي تعتَّقت لديه من طول التفكير والانشغال، وقاده الشك أحيانًا إلى أن يقول وهو يطوح يده في الهواء: «كانت مجرد استجابة عابرة من أنثى لذكر يغازلها، ويبدي رغبته فيها».

وسأل نفسه للمرة الألف: «أتكون قد نسيت كل شيء؟ اسمي وملامحي والحي الذي أعيش وعاشت فيه؟ لكنه لم يقتل الرجاء، واستعاد ما كان بينهما من مواقف عابرة، وحفر فيها حتى بلغت عمقًا كافيًاالابتلاع روحه وجسده.

وكلما تذكر الجند الذين أتوا إلى الحارة وأهلها نيام، كان يُصبِّر نفسه بالقول: «أخذوها عنوة»، فلا يفقد الثقة في نفسه، ويُبقي الأمل في نفسه حيًّا، ويصرخ: «مَن ذهبت عني ستعود إليَّ مهما طال الزمن».

قال للحارس بعد أن تخالطت في رأسه كل هذه الخواطر والهواجس:

ـ أريد صدقة.

لكن الرجل نظر إلى هيئته النظيفة، وفتوته البادية على ملامح وجهه وساعديه اللذين شمر عنهما جلبابه، وقال له:

ـ لتأتِ في الموعد الذي ضربته لك، فإن اقتنع موزع الصدقات بحالتك، فلن يعيدك مكسور الخاطر.

«آه يا زينة! طريقي إليكِ انتهى بي، وأنا عزيز النفس، إلى قبول أن أمد يدي إلى مَن أكره، والله لن أفعل.. لن أفعل أبدًا».

قالها بصوتٍ عالٍ إلى درجة أن رجلًا كان يحمل فوق ظهره حِملًا من البرسيم ويمشي منحنيًا، نفخ وصرخ في غيظ:

ـ قف على جنب، وافعل أو لا تفعل، ضيقت عليَّ الطريق.

وأدرك في هذه اللحظة أنه كان يدور يمنة ويسرة، قاطعًا الشارع بالعرض، دون أن يدري، فتنحى إلى جانب الجدران، ودفن في مقلتيه دمعتين، وداس على أسنانه، وعاد إلى المقهى، ليجلس محسورًا، ظهره إلى البيوت الخفيضة، ووجهه إلى «بيت السناري».

ظلَّ على هذه الحال أربع سنوات. في البداية كان يأتي إلى المقهى كل يوم، ثم يأتي يومًاوآخر يغيب، إلى أن صار المجيء مرة في الأسبوع. في الغالب كل جمعة بعد الصلاة، أو في أي يوم آخر يحصل عليه إجازة من شغله، يأتي ويجلس إلى أن تغيب الشمس، لعله يراها، فلا يرى سوى مَن لا يريد رؤيتهم.

يرمي جسده على المقعد الذي تركه الناس لقربه من صهد النَّصْبَة، ووجوده في طريق النادل المزعج وهو يتحرك كنحلة، ويثرثر مكررًا ما يقوله كببغاء. حتى عُرف هذا المقعد باسمه، وسماه الزبائن: «مقعد جعيدي»، ولو أنصفوه لقالوا: «مقعد العاشق».

15

مرت «زينة» من أمام «حسن» وهي راكبة الحمار إلى «رملة بولاق» دون أن يعرفها، فقد كانت ملفوفة في لباس الرجال. عند المقهى توقفت، ونظرا مليًّا إلى الشاب الجالس في الطرف فعرفته تمامًا.

«هو من كان يتعقب خطواتي على أرض الزقاق»، حدثت نفسها، ومصمصت شفتيها، وثار داخلها سؤال: «هل كان حقا يحبني؟»، ولسعها فعل «كان»، فقد تمنت أن يكون على حالته التي كانت، يطل العشق من عينيه، ويسكر في خطواته المتمهلة، وصوته المبحوح من فرط اللهفة.

أحبت هي «السناري» الذي عشقها، وأنساها هم السنين. كان لها حبيب وأب وصديق، ولم تشعر معه أبدًا أنها جاريته، بل سيدته التي يبكي تحت قدميها، ويمنحها أسراره الدفينة.

لكنها كأنثى، وليست أي أنثى، تمنت لو كان «حسن» باقيًا على حبه لها، وتخيلته وهو لا يزال يمشي وراء طيفها في الزقاق، ويقبل خطواتها القديمة بقدميه، ويقول ما كان يقوله، دون أن تفارق صوته اللهفة وحرقة الشوق.

تنبه هو لحظتها إلى وقوف الحمار أمامه، وإلى الرجل الملفوف لا يبان منه شيء سوى عينيه، وتملكه إحساس بأن هذا المختبئ تحت ملابسه يستحق أن يهتم به، لماذا؟ لا يدري.

وهي راجعة بعيد المغرب لم تجده في مكانه. كعادته، انبعث في أول الليل عائدًا إلى جحره. لكنه في هذا اليوم وجد بدنه يرتجف بطريقة لم يألفها إلا حين كان يراها بغتة أيام أن كانت تسكن الزقاق.

إلا أنه عزا ما هو فيه إلى الأخبار المفزعة التي يسمعها عن تقدم الفرنسيس نحو المعركة الحاسمة على أبواب «القاهرة».

وتملكته مشاعر متناقضة في هذه اللحظة، فداخله ما يقول: لو انكسر المماليك ستنهار مكانة «السناري»، وقد يقتل، وتعود «زينة»، وما يقول في الوقت نفسه: «المماليك مسلمون مثلي، ولا يجب أن أتمنى هزيمتهم.. هم عاشوا في بلدنا، ولا يعرفون غيرها، واعتدنا على سخفهم ونهبهم، وعرفنا طباعهم. أما الفرنسيس، فدينهم غير ديننا، ولا نعرف عن طباعهم شيئًا».

ودخل على خاطره احتمال ثالث: «ماذا لو انكسر الفرنسيس، وتقهقروا حتى غاصت أقدامهم في مياه البحر الكبير، فاستداروا وركبوا مراكبهم، وعادوا من حيث أتوا؟». وأجاب نفسه: «سيكبر صاحب البيت العجيب، الذي في يمينه حبيبتي، وسيبلغ نفوذه الآفاق، وما يدريني أن يجلس على عرش مصر». ألم يجلس عليه «كافور الإخشيدي» وهو عبد أسود مثله؟ هذا ما سمع الراوي يقول به على المقهى حين أتى الحديث ذات مرة عن «السناري» وبيته، وترك أمامه أفواهًا مفغورة، وعيونًا مفتوحة في دهشة.

كان هذا الخاطر يقتله، فتعزز مكانة «السناري» ستؤدي إلى ضياع «زينة» إلى الأبد. لكن داخله ما كان يقول له أيضا: تعاظم نفوذه سيكثر من حريمه، وقد يستغني عنها. ثم يفزعه خاطر في اتجاه آخر: ماذا لو هجرها وأبعدها، لكنها تآلفت مع حياة القصور، فكيف تعود لتعيش معه في جحر؟ ويعود داخله ليقول: من يحب أحد يطيب له العيش معه، ولو في عشة، ويردد المثل «بصلة المحب خروف»، ثم يقول لنفسه: «إذا علا السناري سيسقط. هذا قانون أهل الحكم في بلدنا. لكن ماذا لو أن من أسقطه طمع في أجمل ما لديه، «زينة» الفاتنة؟

كلام في كلام، لم يعتد غيره على مدار تسع سنوات ضاعت منه فيها «زينة» خمسة منها لم يكن يعرف أين تقيم؟ كل ما كان يعرفه أنها هناك في الصعيد تعيش داخل قصر منيف في «أسيوط»،

وأربع سنوات بعدها عرف مكانها، لكن ما إليها وصول.

أراد أن يشغل نفسه بأمر جلل، قد يخفف عنه

يذهب مع الذاهبين إلى «رملة بولاق»، لكن صاحبه قال له:

ـ ليس لنا في هذا الأمر شيء.

نظر إليه باستغراب:

ـ ندافع عن بلدنا.

ـ منذ متى كانت بلدنا؟ أكل الترك لحمها، وأهدوا العظام للمماليك، وتركونا جوعى.

ـ من يدري لعل الله يضرب المماليك بالفرنسيس، ويضرب الفرنسيس بالترك، فيهلكوا جميعًا، وينجوا أهلنا الطيبين.

وفجأة ضحك «حسن» وسأل صاحبه:

ـ هل تعتقد أن الذين احتشدوا في «رملة بولاق» سيحاربون؟

ـ إن لم يكن الأمر كذلك، فلمَ حملوا الشوم والبلط وكل ما يجرح؟

ـ شوم وبلط أمام مدافع وبنادق وقنبر! المعركة محسومة (8) .

ـ إذا كانت محسومة، فما الفائدة من ذهابنا؟

ـ نرى ما قد نحكيه، فهذه فرصة قد لا تعوض.

ـ وماذا لو صوب الفرنسيس مدافعهم إلى المتحتشدين في الخيام، سيموت آلاف الناس، بلا ثمن.

تنهد طويلًا وقال:

ـ بالنسبة لي، فالموت أهون مما أنا فيه.

وتغضن وجهه بمسحة من حزن دفين، وترقرقت في عينيه دموع. رقَّ له صاحبه، فدفعه بلطف في كتفه، وقال له:

ـ هون عليك، إن كان الذهاب إلى هناك سيرضيك، فلنذهب.

وذهبا سويًّا، وباتا ليلتين في العراء إلى جانب الخيام، في إحداهما جلس «حسن» على حجر مستو، ودلّى ساقيه في الماء، دون أن يعلم أن «زينة» قد جلست قبل ساعات في المكان نفسه، وفعلت ما فعله.

(8) القنبر هو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على «القنابل» وقتها.

16

انتفض «حسن» مذعورًا على صراخ وعويل، كان قد عاد الليلة الفائتة من «رملة بولاق» ليسترح ليلة في بيته، فلم يكن له مكان داخل الخيام المزدحمة، لكن الأرق حرمه من النوم حتى قبيل الفجر، وبعد الظهر، أيقظته جلبة عارمة.

فتح النافذة التي تكاد تتخلع في يديه، فوجد امرأة الشيخ وصاحبتها البدينة تتدحرجان حافيتين، وأطفالًا صغارًا تظهر سيقانهم من ملابسهم الممزقة، يهتفون وفي أيديهم عصي رفيعة: «يا فرنسيس يا خسيس، هنخليك تروح فطيس».

نادى على مبيض النحاس، الذي كان يقف أمام دكانه المغلق:

- ماذا جرى يا معلم «عبد العظيم»؟

رفع الرجل رأسه، ونفخ في الهواء، وقال:

- أولاد الهرمة الفرنسيس دخلوا «المحروسة».

دفع قدميه في مركوبه، وهبط إلى الزقاق، ومنه إلى ساحة مسجد «السلطان حسن»، فوجد خلقًا كثيرًا، بعضهم عائد من الخيام التي تهدمت، حين أطلق الفرنسيس عليها مدافعهم، وقبلها حين رأى المحتشدون فيها مراكب المماليك عند «إمبابة» تطير في الهواء محروقة، وآلاف الناس يرمون أنفسهم في الماء، مستجيرين من الموت حرقًا بالموت غرقًا، وحين سمعوا صراخًا حادًا يأتي من جوف المياه.

عاد إلى الزقاق، فوجد «عبد العظيم» يمط بوزه مشمئزًا ويقول:

- نهبوا بيوت التجار وقصور الأمراء.. حتى جحور الغلابة لم تسلم من أيديهم.

وقالت امرأة الشيخ بحروف متقطعة من شدة اللهاث:

- زوجي قال لي إنهم تعهدوا بالأمان للناس، لكن من تصدى لهم آذوه.

وشرد «حسن» فيما سمعه، وقال لنفسه: «ربما دخلوا بيت السناري، هذه فرصتي لأرى محبوبتي القريبة البعيدة، ويمكن أن تكون بحاجة لي لحمايتها».

صعد سريعًا، وارتدى ملابسه على عجل، ودس تحتها الخنجر المسموم الذي جهزه خصيصًا لقتل «السناري»، ونزل إلى الزقاق، فلما عاد إلى ساحة المسجد، رأى سرية من الفرنسيس، بأزيائهم التي يتجاور فيها الأبيض والأحمر والأزرق، يتقدمون إلى جانب الجدران في حذر، مشرعين بنادقهم في وجه الهواء. عاد وصعد سطح بيته، وقفز إلى سطح بيت الجيران، ومنه هبط في الحارة الخلفية، التي سلمته لطريق منحدر أكثر أمانًا، فسار حذرًا، حتى رأى «بركة الفيل»، ويقف عندها جمع من جند الفرنسيس، فانعطف يمينًا في الأزقة، حتى دخل «حي الناصرية».

كان المقهى نصف مفتوح، فبابه ذو الدرفات الأربع كان مواربًا على قلة من الزبائن، منزوين في الركن، يحتسون القهوة في صمت. كانت وجوههم صفراء، وعيونهم زائغة، وعليها آثار سهد ورعب.

عرف «حسن» منهم أنهم باتوا ليلتهم في المقهى، أغلقوا بابه وناموا مع صاحبه ونادله والجمرات التي ظلت تخبو إلى أن مات أغلبها عند الضحى. هذا ما كانوا يفعلونه أحيانًا حين يأخذهم السهر حتى

ضفاف الصبح. وحين استيقظوا وجدوا الفرنسيس في الشوارع فانكمشوا في أماكنهم، إلى أن انصرفوا نحو «بركة الفيل»، لكن زبائن المقهى آثروا أن يبقوا حتى يأتيهم الفرج.

كان المقعد الذي اعتاد «حسن» الجلوس عليه ليس في مكانه، زحزحوه إلى الداخل، وحل محله الباب الخشبي السميك العريض.

اختلس نظرة إلى «بيت السناري» فوجد أمامه فراغًا وصمتًا مريبًا. وسأل نفسه بصوت مرتفع دون أن يدري وهو يشير نحوه:

ـ هل نال الفرنسيس من هذا البيت؟

فأجابه أحد الجالسين بلسان أثقله الأفيون:

ـ لا أدري، لكن لم نسمع دبيب جند هنا، سوى للحظات، ثم اختفى.

قرر أن يذهب هو ليطمئن بنفسه، فلما وصل عاجله الحارس:

ـ ألم يصلك خبر ما جرى؟

ـ بلى، سمعت عنه كسائر الناس في المحروسة، لكن جئت لأطمئن عليك.

تلمظ وهو ينظر إليه مرتابًا ثم قال:

ـ فيك الخير.

وساد بينهما صمت قطعه «حسن» قائلًا:

ـ صاحب البيت له أفضال على أمثالي من الغلابة، ولو شئت سأبقي معك لنحرسه سويًّا، اطلب ولن أتردد.

ضحك الحارس وقال:

ـ وهل ستساعدني بيدين فارغتين؟

ـ لا.. لا، معي سلاحي.

راح الرجل يقلب عينيه في جسد «حسن» من أخمص قدميه حتى ناصيته، متشككًا فيما سمع، فاندفع «حسن» ورفع جلبابه فبان خنجر مربوط إلى خصره، لم يلبث أن استله ورفعه في وجه الحارس وقال:

ـ هذا كفيل بقتل أي نصراني يقترب منا.

ضحك الحارس وردَّ عليه في ضجر:

ـ بما ينفع خنجرك أمام بنادقهم ومدافعهم وقنابرهم التي كسرت جيش المماليك الجرار، وأفزعت عوام الناس، وهدمت خيامهم.

ردَّ على الفور:

ـ نقعته في السم حتى ارتوى، ومن ينجرح به سيموت حتمًا.

صمت الحارس دون أن يفارقه الضجر، وزاد في عينيه الارتياب، وتطلع إلى داخل البيت حيث كان الخدم ينجزون أعمالهم المعتادة من كنس الفناء ورشه بالماء النظيف والروائح الطيبة، ثم إطلاق البخور في جنباته. وعاد إليه:

ـ وجودك هنا قد يلفت انتباه أي عابر من الفرنسيس، فنحن نتوقع رجوعهم بين حين وآخر، وأخشى أن تتهور فليحق بنا أذى من ورائك.. أنا سأغلق الباب على الحريم والخدم، ولا يمكن لغريب أن يكون بالداخل، خاصة إن كان بحوزته خنجر مسموم.. عموما إن احتجت إلى مساعدتك لن أتأخر في اللجوء إليك.

أومأ «حسن» موافقًا على مضض، وسأله، وهو يعود خطوة إلى الوراء:

ـ هل البك في الداخل؟

ـ لا، هو مع «مراد بك».. جاءنا خبر توجههما على رأس ما تبقى من الجيش إلى «الفيوم»، سيتجمعون هناك، ويضمون إليهما الأعراب والفلاحين، وكل المماليك، وسيعودون لمهاجمة الفرنسيس.

لم يدخل الكلام رأس «حسن»، وهمَّ أن يسأله عن «زينة»:

ـ وهل.. هل.. هي.. هي..

لكنه لم يجرؤ، فابتلع لسانه، ومضى.

17

هدأت الأحوال بعد أيام قليلة، وتزاحمت في الشوارع بائعات الحلوى والفاكهة والخضروات والجبن والكشك والغلال، ومد الفرنسيس أيديهم بالمال ليشتروا بأثمان مجزية ما يريدون، وقال التجار عنهم: «كرماء، يدفعون دومًا أكثر من السعر الذي نحدده»، وردَّد شيوخ على المنابر: «يحبون ديننا، ويكرمون علماءه، وكبيرهم دخل الإسلام، ويسعى لنصرته».

ودار كلام التجار والبياع والمشايخ في البيوت فاطمأن الناس وخرجوا إلى الأزقة والعطوف والشوارع والساحات، ولم يجد «حسن» مشقة في الذهاب إلى المدبغ، وأغراه هروب «إبراهيم السناري» بأن يذهب يوميًا بعد الشغل إلى المقهى، ويجلس في كرسيه الذي اعتاده، ويولي وجهه شطر البيت الذي تسكنه المحبوبة.

لكن الهدوء لم يبق على حاله طويلًا، إذ سرعان ما قامت الدنيا، حين شرع الفرنسيس في فرض ضرائب على أملاك الناس، فحصروا البيوت والخانات والحمامات والسيارج والمعاصر والمدابغ والحوانيت، وكتبوا مناشير ألصقوها بمفارق الطرق وعلى بعض الأبواب، وأرسلوها إلى الأعيان، ثم راحوا يضبطون كل من اعترض، فهاج بعض العوام، ووافقهم بعض أصحاب العمائم، وانتشر خبر التمرد في «الغورية» و«الصنادقية» و«بين القصرين» و«باب الزهومة» و«باب الفتوح» و«باب النصر» و«باب الشعرية» و«باب زويلة» و«البندقانيين» ومنها إلى بقية أخطاط القاهرة، ما عدا «بولاق» و«مصر عتيقة» اللتين خافا أهلهما من الخروج لقرب معسكرات المحتلين منهما.

خرج الناس لملاقاة الفرنسيس، وهدموا المصاطب وصنعوا المتاريس، ووقفوا خلفها محتشدين ومتحفزين، وكان من بينهم «حسن جعيدي» وصاحبه، اللذان نزلا مع الشبان إلى الشوارع والأزقة، ومعهم خلعوا أحجارًا من حافة جبل المقطم، وصنعوا متراسًا عاليًا عند مداخل حاراتهم التي تنبت من ساحة مسجد «السلطان حسن»، وأمسكوا في أيديهم قطعًا صغيرة من الحجر، وعصيًا طويلة وبُلطًا، ومن وجد في بيته بندقية متهالكة أحضرها.

ومكثوا ساعات دون أن يروا أحدًا من الفرنسيس، بينما جاءتهم الأخبار أنهم هجموا على «المناخلية» وكسروا المتترسين من مغاربة الفحامين، وأن الزُعر والنَوَر والجعيدية، هاجموا بيوت وحوانيت النصارى الشوام والأروام وجيرانهم من المسلمين، فنهبوها، وسبوا النساء والبنات.

كان «حسن» يتابع مع المتابعين هذه الأخبار في أسى، لكنه لم يكن يملك سوى المكوث مكانه إلى أن قامت القيامة، ففجأة سمع دويًا مرعبًا، ورأى قطعًا ضخمة من جهنم تتطاير من فوق أول المقطم عند القلعة، وتضرب البيوت بلا تمييز.

وصرخ رجل في منتصف المتراس:

ـ لا طاقة لنا بالمدافع والقنابر والبنبات.

وردَّ عليه آخر في الطرف:

ـ يا سلام من هذه الآلام.

وقال ثالث بصوت مخنوق:

ـ يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف.

وسقطت قذيفة بالقرب منهم، فدكت أحد البيوت الواطئة المنحنية، فصار أثرًا بعد عين، وملأ التراب

والدخان العيون والأنوف، فتركوا المتراس وهرعوا نحو الأزقة، وكل منهم يخشى أن ينهدم بيته فوق رأسه.

جرى «حسن» ودخل بيته، فوجد أمه منكمشة إلى جانب جدار، وقد وضعت أصابعها في أذنيها، ودموعها تبلل خديها وصدرها. أخذها بين ذراعيه، وقبّل رأسها، وقال لها:

ـ هوني عليك، لا تخافي شيئًا، مدافع الفرنسيس ستتوقف.. سمعت أن المشايخ توسطوا لدى «بونابرته»، وسيعود الهدوء إلى حاله.

وعاد الهدوء فعلًا.

وفي اليوم التالي مر «حسن» في الشوارع فوجد بقايا المتاريس على حالها، وقد رفع الناس طرفًا منها ليعبروا، حتى وصل إلى «الناصرية» فوجد المقهى على حاله، يغص بالزبائن، والراوي يجلس في المنتصف يقص على أسماع الجالسين قصة «الظاهر بيبرس».

طيلة أيام الهرج والمرج التزمت «زينة» الحرملك، لم تغادره، فلمّا عاد الهدوء عادت تصعد إلى سطح البيت، فترى الشوارع المحيطة به، شرقًا حتى «قلعة الجبل»، وشمالًا نحو «بركة الفيل» و«الأزهر»، وجنوبًا إلى «الجيزة»، وغربًا إلى «رملة بولاق» و«إمبابة». ومنذ أن علمت أن «السناري» هرب إلى «الفيوم» مع فلول المماليك، وهي تجلس وجهها إلى الجنوب الغربي، وظهرها إلى المقهى. وفي كل مرة كانت تتمنى أن تكون «زرقاء اليمامة».

حين كانت تستدير من وراء حجابها ترى «حسن» جالسًا على كرسيه، وتعجبت من وجوده دومًا في هذا المكان. واشتعلت في رأسها الأسئلة: هل يكون قد ترك بيته القديم وسكن «الناصرية»؟ أم يكون قد وجد شغلًا بها؟ ويرد على ذهنها أحيانًا أن يكون الشوق هو الذي رماه إلى هنا، لاسيما أنها كلما كانت تلتفت إلى المقهى تجد عينيه مغروستين في البيت.

وبرقت في رأسها فكرة، ونادت أحد الخدم، فصعد إليها، فأشارت إلى المقهى، وقالت له:

ـ هل ترى الشاب الذي يجلس على المقهى ويرتدي ثوبًا أزرق؟

أرسل عينيه إلى المقهى، وصمت برهة وقال:

ـ النظر لم يعد على حاله، والمقهى ليس قريبًا.

ضحكت وقالت له:

ـ هل تعتقد أن ثلاثين قصبة مسافة بعيدة؟

فكر قليلًا وقال:

ـ كل حسب نظره.

لوت شفتيها ممتعضة، ثم قالت بنبرة آمرة:

ـ اذهب إلى المقهى واسأل عن «حسن جعيدي»، وقل له إنني أريده.

بدت عليه دهشة وحيرة، وفهمت هي ما يدور برأسه فقالت له:

ـ هو من أقربائي، وأريد منه أن يساعدني في إيصال رسالة إلى البك.

هز رأسه موافقًا وانصرف، وقبل أن يهبط السلالم الحجرية قالت له:

ـ أبلغ حارس البوابة ليسمح له بالدخول إلى الإسطبل، سأقابله هناك، واجعل ما قلته لك سرًّا بيننا،

وإياك أن يصل إلى أحد من الحريم.

أدار رأسه وهبط السلالم، دون أن تفارقه الحيرة، التي لم تلبث أن صارت خوفًا، فهذه هي المرة الأولى التي تطلب واحدة من الحريم رجلًا غريبًا عن البيت، حتى لو كان قريبها.

ودارت في رأسه أسئلة وأجوبة: «ماذا لو علمت واحدة من الحريم بالأمر وأبلغت البك؟ أليس من الممكن أن يفعلها الحارس الذي تخربت علاقتي به في السنة الأخيرة؟ لكن ما بوسعي أن أفعل، فقد تكون الحرمة المفضلة لسيدي قد اتفقت معه على هذا، وإن عصيت ستطردني، أو تنتظر مجيئه لتطلب منه هذا. وحتى لو لم تكن متفقة معه، فلها سحر في إقناعه، يلين في يدها وتفعل به ما تريد. كلنا في البيت نعلم، وكلنا
لا يفارقنا العجب».

وازدادت خطواته في الأرض ثباتًا حتى وصل إلى «حسن»، الذي كان شاردًا في اتجاه البيت. غمزه في كتفه:

- أنت «جعيدي»؟

تنبه والتفت إليه، واستغرب هيئته، وأجابه وهو جالس:

- نعم.

- عاوزينك.

- من؟

- في بيت البك.

- أي بك؟

- «إبراهيم كتخدا السناري».

ظن أن الحارس قد أرسل إليه، وأن هناك خطرًا يتهدد من في البيت، ويجب أن يهب للدفاع عن محبوبته. هي من يهمه هناك، ويشعر، رغم كل شيء، أن حمايته لها واجب مفروغ منه.

رفع وجهه إلى الخادم وسأله:

- هل بلغكم أن الفرنسيس سيهاجمون البيت؟

- لا.

- ما الأمر إذن؟

- ستبلغك «زينة» هانم بكل شيء.

انتفض واقفًا من فرط الدهشة والفرحة، واتسعت حدقتا عينيه حتى ابتلعتا البيت كله. وكان في جلسته قد خلع مركوبه، وتزحزح بعيدًا عنه، فقرفص حتى أمسك به، وأدخل فيه قدميه، ومضى لا تحمله ساقاه، بلسان انعقد حتى أنه لم يسأل الخادم عن الأمر الذي تريده فيه «زينة».

«يااااااااااااه أخيرًا ستتوضأ عينيَّ من نورك»، قال لنفسه، ولولا أن يستخيبه الخادم والعابرون لقطع المسافة من المقهى إلى البيت رقصًا، وكيف لا يرقص والأماني التي طارت بعيدًا، حتى ظن أنها لن تعود أبدًا، حطت على رأسه فجأة، وبعد دقائق معدودات ستكون ماثلة أمامه، يراها ويكلمها، وقد تلمس أصابعه أصابعها.

دخل حارة «موسى جاويش» التي يقع فيها البيت وكأن قدميه تطأها للمرة الأولى، وعند الباب شاكس الحارس:

ـ ألم أقل لك إنكم ستحتاجون لمساعدتي؟

تنهد في غيظ وردَّ عليه:

ـ أنا شخصيّا لم أرسل في طلبك.

ابتسم وقال له بصوت لم يسمعه غيره:

ـ أنت شخصيّا لا تهمني في شيء.

وأخذه الخادم إلى الإسطبل، فوقف أمام الحصان الأبلق، وراق له منظره، دون أن يعرف لهذا سببًا، ووجده يحدب على مهرة إلى جانبه ويدللها، يمسح عنقها بلسانه، ثم يدليه على خطمها، وهي ساكنة مغمضة العينين.

دخلت «زينة» بينما هو شارد في فعل الحصان والمهرة، وظهره إلى الباب. اقتربت منه ونقرت كتفه بأطراف أصابعها فارتعش، واستدار فوجدها أمامه. هي.. هي، لم يغير الزمن فيها شيء، ووجد قلبه يدق بعنف، ويديه ترتعشان، ويقاوم رغبة عارمة في أن يطوقها بذراعيه ويحتضنها.

و«زينة» قرأت كل شيء في عينيه، فاطمأنت إلى أنه سيكون وفيّا لها وسيحرص كل الحرص على أن يفعل دومًا ما يرضيها، مهما كلفه هذا من عناء.

وأرادت أن تقربه أكثر، فقطعت خطوات واسعة نحوه، ومدت يدها وصافحته، وقاست حرارة قلبه الذي كانت نبضاته تنهمر كسيل عرم، وود هو لو لم يترك يمينها أبدًا، فأخذه بين أصابعه القوية، وداس عليه قليلًا، وقال لها:

ـ افتقدناك كثيرًا.. كل أهل الحي افتقدوك.

سحبت يدها في هدوء وسألته:

ـ أليس لديك أي خبر عن والدتي التي ضاعت؟

هز رأسه في أسى وأجاب:

ـ لم تعد منذ أن اختفت معك من الزقاق، وبيتكم تهدم وصار خرابة يلقي الناس فيها زبالتهم، وتسكنها القطط والفئران والكلاب.

تنهدت بحرقة وقالت:

ـ لا أعرف عنها شيئًا، منذ أن غافلت الجميع في قصر «مصطفى بك» وهربت.

حرك شاربه ممتعضًا وقال:

ـ لم ترض أن تعيش جارية وهي امرأة حرة.

أغضبها قوله، فاحتدت عليه:

ـ لا تقل بما لا تعلم، لا هي ولا أنا عشنا جاريتين أبدًا.

وتلفتت حولها وواصلت:

ـ أنا سيدة هذا الدار، وكانت لي مكانتي في قصر «مصطفى بك»، كبيرهم يصغر بين يدي، ولو

أردت ترك كل هذا الآن، لفعلت، لكنني
لا أريد، أنا الذي لا أريد، أفهمت.

سكت ولم يرد عليها. التقطت أنفاسها وأعادت الهدوء إلى صوتها، وأخذت الحديث في اتجاه آخر، فسألته:

ـ كيف حال الست والدتك؟

هز رأسه بامتنان وأجاب:

ـ لم تعد قادرة على تحريك ساقيها، لكن لسانها يتحرك جيدًا،
ولا يتوقف عن الدعاء على الفرنسيس.

جعلها كلامه تجفل قليلًا، لكنها تجاوزته:

ـ يبدو أنهم جاءوا ليبقوا، كغيرهم، ولذا فلا مفر من التعامل معهم.

وشعرت بنفوره من قولها، فاستدركت:

ـ نتحايل مؤقتًا، ثم ننقض عليهم، ومن يعاملهم لا يفعل هذا لصالحه إنما لصالح عموم الناس.

زال عنه النفور قليلًا، وقال:

ـ أعتقد أنهم لن يعمروا هنا طويلًا.

ـ أهذا تقديرك؟

ـ بل إحساسي.

ووجدها فرصة ليهرب من موضوع الفرنسيس:

ـ إحساسي لا يخيب أبدًا.

لكنها أعادته إلى المجرى الذي أرادته أن يسلكه، وقالت له:

ـ طلبتك لمهمة لن ينهض بها غيرك.

ـ خير.

ـ خير للبلد، التي لا ينتهي حبها من قلب أبنائها الشجعان مثلك، وخير لي ولك.

ردَّ بصوت ناعم ناظرًا إليها بامتنان:

ـ لا يأتي منك سوى الخير.

كان بيدها صندوق خشبي صغير، فتحته وأخرجت منه رسالة مطوية، وقالت له:

ـ أعرف أنك كنت تذهب وأنت صغير إلى الكُتَّاب.

ـ وأحفظ سورًا من القرآن.

ـ إذن بإمكانك أن تقرأ ما في الرسالة.

وفردتها أمامه، وقالت:

ـ أرسلها «بونابرته» للبك قبل أن يدخل المحروسة، وحاولت إيصالها له قبل حرب إمبابة، ولم

أتمكن.

قرأها بإمعان، ثم قال:

ـ أعتقد أن ما فيها قد تجاوزه ما جرى.

ـ لا يزال بوسعنا إعادة البك إلى بيته، وإن عاد سيستعيد ما له من نفوذ، فالفرنسيس لن يستغنوا عنه.. الرسالة ستنقذه من غفلة الوفاء للغادر «مراد بك» الذي ترك حرمه «نفيسة البيضا» يساومها رجال بونابرته على مالها مقابل أن تنقذ نفسها من الحبس.

ـ سمعت أن «السناري» الآن في «الفيوم»، تركه هناك «مراد بك» مع بعض رجاله، وتقهقر إلى الصعيد ليجمع أهلها معه لقتال الفرنسيس.

ـ وستذهب إلى هناك، وتحاول أن تقابله سرًّا، وتعطيه الرسالة، وستكون معك إشارة تجعله يثق فيك.

ـ أي أمانة؟

نظرت إلى الحصان الأبلق، ووضعت يدها على رقبته، وقالت:

ـ هذا هو الإشارة.. البك تركه لي هدية، فإن رآك تركبه، سيعرف أنني من أرسلتك، إنه حصان مبروك، سيصل بك إليه وإن طال السفر.

ورأت طرف الخنجر يطل من جيبه، فقالت له:

ـ يكفيك هذا، لو حملت بندقية ستلفت الانتباه إليك، وقد تقود إلى الهلاك.

وشعرت بحركة خارج الإسطبل، فاستدارت فوجدت الطباخ يمر حاملًا خوانًا فارغًا. صمتت حتى مر بعيدًا، وعاد لتقول:

ـ هذا سر بيننا، ولا تعط الرسالة لأي أحد إلا البك، وحاذر من المماليك والعربان.

سكت محتارًا وأدركت هي حيرته، فقالت له:

ـ لا تجعل الهموم تركبك من الآن، سأخبرك بطريقة الوصول إلى البك دون أن يعرف أحد مهتمك.

وكانت آخر وصية أخبرته به:

ـ أبلغ البك أن الفرنسيس قتلوا جنديّا يدعى «مصطفى كاشف» من جماعة «حسن بك»، كان قد فر مع الفارين حين دخل الفرنسيس المحروسة، ثم رجع من غير استئذان، واختبأ أياما في بيت الشيخ «سليمان الفيومي»، فسلمه لمصطفى أغا مستحفظان ليأخذ له أمانًا،فأخبر الفرنسيس بمكان اختبائه، فأمروه بأن يقبض عليه ويقتله فجز رأسه، وطافوا به في الشوارع يهتفون: «هذا جزاء من يدخل إلى مصر بغير إذن الفرنسيس».

وعرف ما تقصد، فقال لها:

ـ سأحكي للبك حتى يستأذن قبل العودة، إن أثنته الرسالة عن المضي مع «مراد بك» إلى النهاية.

نفخت وبصقت وقالت:

ـ إنه زمن العجائب.. خطفوا البلد، ويطلبون من أهلها استئذانهم قبل دخولها.

ضحك داخله وقال لنفسه: «السناري ليس من أهلها، وإن كان أقرب إلينا من المماليك والفرنسيس».

كل ما كان يسيطر عليه وقتها أن يرضيها، وإن ضيق على غيرته الخناق حتى أتعبته. لكن طرأت

على رأسه فكرة جهنمية: ماذا يسمي الذي يقرب محظية يعشقها من سيدها الذي يطأها؟». كان هذا يغيظه، وهو ينصت إليها، بينما يتابع ملاطفة الجواد الأبلق للمهرة الحمراء، وقرأت هي، كامرأة ذكية ذات خبرة بالرجال، ما يدور في رأسه، فقالت له:

ـ البك رجل كبير، ويكفي أنه قد أمَّن لي ما يكفيني طيلة حياتي.

رفع وجهه وفي عينيه استفهام، فأجابته، وهي تمس طريق الطمع في نفسه، كما تعرف هي:

ـ ما يكفيني ويكفيك.

أطربته العبارة، وتطلع إلى بقعة السماء التي كانت تطل من فتحة تهوية الإسطبل، ثم دلى وجهه، ونظر في عينيها، وسألها:

ـ أتقصدين ما فهمته؟

ابتسمت وردَّت:

ـ ليس غيره.

وسمعت «زينة» دبيبًا خفيفًا خارج الإسطبل، فدست الصندوق في الطوَّالة، تحت التبن والغلة المجروشة، وخرجت فوجدت زوجات «السناري»، وبعض جواريه، واقفات إلى جانب الجدار، وقد وضعن آذانهن عليه، ليسمعن ما دار بينها وبين «حسن». وما إن رأينها حتى صاحت أكبرهن سنًّا:

ـ أتخونين الرجل الذي فضلك علينا جميعًا، وجعل منك سيدة وأنت مجرد جارية حقيرة.

ذبحها الكلام، لكنها كانت قد اعتادت على مثله، وتعلمت كيف تكظم غيظها حيال غيرتهن، وكيف تغيظهن، فرفعت أنفها في شموخ وقالت:

ـ لم أكن جارية ولن أكون، وأنا الوفية فيكن له، فقد غاب ولم تسأل أي واحدة منكن عليه، وتجري حياتكن على حالها وكأنه بينكن، أما أنا فقد بحثت عمن سيذهب إليه ويعود، ليطمئننا عليه.

واستدارت نحو باب الإسطبل، ونادت:

ـ تعال يا «حسن».

خرج مطأطأ الرأس، وعيناه عند قدميه، وفيهما خوف من أن يتطور الأمر إلى ما لا يحمد عقباه. لكن «زينة» بذكائها المعهود، تمكنت من تمرير الموقف بسلاسة حين قدمته إليهن قائلة:

ـ «حسن» جاري القديم، وقريبي من ناحية أمي، وأخي في الرضاعة.

اهتز لوصفها له بالأخ، وابتلع ما سمع، ونظر إلى أعلى، فملأ عيناه الأرابيسك المعشق والثريات والطنافس والبسط المفروشة في التختبوش، والأشجار التي تطل من الحديقة الخلفية. تَلَهَى بما يرى عما يسمع، حين راحت الحريم يتنابذن بالألقاب.

وانتبه على صوت «زينة» تقول له:

ـ اذهب وتعال مع مشرق الشمس لتبدأ مشوارك.

فخرج بقدمين ثقيلتين، لا يريد أن يبرح مكانًا فيه حبيبته، ويخشى ما ينتظره في الغد، الذي سيولد بعد ساعات قليلة.

18

حين صارت الأهرامات في ظهره شعر بالوحشة. انفتحت في وجهه الصحراء المنسابة أمام حوافره الحصانِ الأبلق، وكأنها تغريه بيسر الطريق على وعورته في حد ذاته، ووعورته في قلبه المكلوم، كرجل قَبِل مهمة لم ينتظرها، ووافق على أن يتعامل مع المجهول في سبيل إرضاء من لم يقدر على نسيانها.

كانت الرسالة مطوية تحت السرج، المكان نفسه الذي خبأتها فيه «زينة» من قبل، هي لم تنجح في إيصالها، أما هو فليس أمامه من سبيل سوى النجاح، هكذا قالت له وهي تودعه:

ـ كلي ثقة في أنك لن تكسر خاطري.

وسأل نفسه والقفار يبتلعه:

ـ كيف ستراني «زينة» لو ذهبت رحلتي سدى؟

لكنه نفض عن رأسه أي أسباب للفشل، لاسيما أنها دلته على طريقة تعلمتها من «السناري»:

«في الصحراء، ابحث عن أعرابي ليدلك وحاذر».

وضع يده على جيبه حيث صرر النقود التي أعطتها له، كي يجزل العطاء للدليل، وينفق على رحلته في الذهاب والإياب. رمح ساعة حتى لاحت أمامه كورة نخل، اقترب منها، فوجد قطيعًا صغيرًا من الغنم والماعز يستظل بها، وجواره راعيه وقد ألقى جسده على الرمل، إلى جانب خص من جريد النخل وسعفه.

اقترب منه وألقى السلام فردَّ التحية، وتطلع إليه في صمت، ثم سأله:

ـ من الرجل؟

تذكر ما أوصته به «زينة» وردَّ على الفور:

ـ أمير، يطارده الكفار.

ـ أي كفار؟

ـ الفرنسيس الذين دخلوا المحروسة ودنسوها.

هز الراعي رأسه ونظر في جوف الصحراء وقال:

ـ أتبحث عن عسكر المماليك الذين مروا من هنا.

ـ نعم، لديَّ خبر مهم، أريده أن يصل إليهم قبل غروب الشمس.

التفت الراعي خلفه ونادي:

ـ يا «سالم».. يا «سالم».

خرج رجل ربعة يفرك عينيه ويتثاءب، ويدوس الرمل فيفر من بين أصابعه الخشنة الحافية. تقدم خطوتين ففزع حَمل وجرى نحو أمه التي كانت راقدة تجتر في أمان.مسح «حسن» وجواده في نظرة شاملة، ونظر إلى الراعي وسأله:

ـ من هذا؟

ـ غريب يبحث عن دليل.

ابتسم، وعدل الشال الأبيض فوق رأسه، ومال والتقط مركوبه، وقال:

ـ أنا جاهز.

ثم نظر إلى «حسن» وسأله:

ـ كم ستدفع؟

ردَّ عليه في ثقة:

ـ كل ما تطلبه ستأخذه

صمت برهة وعاد إلى سؤاله:

ـ ماذا تريد بالضبط؟

أجابه، وهو يهم ليقفز فوق فرسه:

ـ معي مكتوب لأحد كبار المماليك، وأريد أن أوصله له سرًّا.

ضحك الراعي وقال:

ـ «سالم أبو جليل» خير من يدخل معسكرات المماليك دون أن يمنعه أحد. كثيرون منهم يعرفونه، فهو عيون التائهين في الصحراء، مماليك وفلاحون وحتى البدو يضطرون إلى سؤاله أحيانًا.

والتفت إلى «حسن» وقال:

ـ أنت محظوظ يا بني.

ورمى «سالم» عينيه نحو كثبان رملي وقال:

ـ ناقتي ترعى وراء هذه التبة.

وسار نحو الناقة، وتبعه «حسن» على فرسه، يجاهدان سويًّا الريح التي هبت فجأة، وأثارت الرمل فدار حوله نفسه دوامات متلاحقة، يزداد اتساعها وسُمكها فوق التبة.

19

في اليوم التالي لرحيل «حسن» استيقظت «زينة» على جلبة تأتي من ناحية «تل العقارب»، صعدت إلى السطح فرأت فواعلية يحملون الأحجار والرخام والتراب والطين وبقايا بيوت الأمراء التي هدمها الفرنسيس فوق عربات صغيرة تجري على عجلات ولها يدان ممدوتان من الخلف، وكان أمامهم بناءون منهكمون في تشييد أبراج وكرنكات، من اكتمل منها سُحبت إليها مدافع وآلات حرب، ورابط فيها جنود مبندقين.

كان عدد الفواعلية والبناءين كبيرًا، فأنهوا مهمتهم مع نهاية النهار، ووقفوا طابورًا أمام ضابط فرنساوي يجلس على كرسي إلى جانب رجل آخر من بني جنسه، يمسك حقيبة بها أموال، ويعطيهم أجورهم.

وتابعتهم «زينة» في عجب، دون أن تدري أن اليوم التالي يحمل لها ما لم تتوقعه.

كانت نائمة حتى الضحى، حين دق الباب عليها بعنف، قامت مفزوعة وجرت حافية وفتحته، فوجدت كبرى زوجات «السناري» تقول لها في رعب:

- الفرنسيس على باب البيت، ولا أدري ماذا يريدون.

وهبطوا جميعًا، زوجات وجواري وخدم وسراري وخشداشية، ووقفوا في الفناء، وعلى وجوههم فزع شديد وحيرة. ولم تمض سوى دقائق حتى جاءهم الحارس وقال:

- يريدون استلام البيت.

صرخت «زينة»:

- استلام! إنه بيت «السناري» بناه من حر ماله، ويعرف كل أهل المحروسة أنه بني على الهيئة التي أرادها، وكان يقف على رأس البناءين والحدادين والنشارين والنجارين والفواعلية حتى اكتمل.

ردَّ الحارس بشفتين مقددتين تبرزان من وجه منقبض، يكسوه الأسى:

- قلت لهم كل هذا وأكثر، لكنهم عازمون على أخذ البيت.

بصقت كبرى الزوجات، وقالت:

- هذه سرقة، جاءوا من آخر الدنيا ليسلبونا.

وصرخت الزوجة الثانية وهي ترنو بعينها نحو جند الفرنسيس:

- يا أولاد الكلب، هذه آخرتها، تشردون أولاد الأمراء وكبار البلد.

وسألت «زينة» الحارس:

- هل أبلغوك أن البك قد باع البيت لهم؟

- لا، لم يبعه، أبلغوني أنه بيته، وهم يعرفون، لكنهم يريدونه.

ثم طأطأ رأسه، وغلب دموعه وقال:

- معهم ترجمان مغربي، وأفهمني أنهم سينقلونكم إلى بيت آخر في أي أخطاط تختارونه.

زامت الزوجة الثالثة:

ـ وإذا رفضنا أن نخرج، ما هم فاعلون؟

قال الحارس:

ـ أخبروني أن كبيرهم أصدر طومارًا بهذا [(9)] ، ولا رجعة في كلامه، مهما كان الثمن.

فقالت «زينة»:

ـ سنريهم حجة البيت لعلهم يراجعون أنفسهم.

وتقدمت إلى الباب، والغضب قد زاد وجهها احمرارًا وعيناها اتساعًا، فوجدت أمامها عددًا من الجنود على رأسهم ضابط طويل القامة، يتدلى شعره الأصفر من تحت الكاب الذي يلويه على رأسه قليلًا، وتملأ عيناه الزرقاوين وجه من يحدثه.

قبل أن تنطق حرفًا واحدًا وجدته يقف أمامها مذهولًا، وقد زالت عنه عنجهيته، وتقدم إليها مادّا يدًا ترتعش، فتعجبت لأمره، وخبأت يمينها في جلبابها، وصرخت فيه:

ـ أليست للبيوت حرمة عندكم؟

هز رأسه وفرش في وجهه ابتسامة عذبة وأجاب، وهو ينظر إلى المترجم المغربي:

ـ بلى، ولكن هذه أوامر، وليس أمامي سوى تنفيذها.

ـ أوامر بالسرقة، هذا والله شيء غريب.

سحب الابتسامة من وجهه وقال لها:

ـ هذا البيت بني من قوت أهل البلد، وصاحبه كغيره من الكبار اغتنوا وأفقروا أصحاب المال الأصليين، ونحن سنسترد البيت ليخدم الناس.

تعجبت من كلامه وسألته:

ـ هل سيأتي كل أهل المحروسة ليسكنوا «بيت السناري»؟

عادت إليه الابتسامة وأجابها:

ـ ليس على هذا النحو، بل سنخصصه، والبيوت التي تجاوره لعلمائنا وفنانينا، وسنضع فيه مخترعاتهم ورسومهم وكتب في العلوم والفنون، سيتاح للناس قراءتها.. نحن جئنا لنبني حضارة ونحقق مبادئ ثورتنا العظيمة.

ـ وهل حضارتكم تلك لا تقوم إلا على تشريد كل هذا الجمع الذي يعيش بالبيت؟

لم يجبها على سؤالها، إنما لان بين يديها، وقال لها:

ـ بالنسبة لك أنت، فاستمرار وجودك بالبيت يسعدني.

رفعت عينيها ووضعتها في عينيه، وتذكرت ما أفاض به لها «السناري» ذات ليلة، حين أخذ نفسًا طويلًا من نارجيلته، وقال: «ستضيعين مني وأسترك» فامتلأت عيناها بالخوف وسألته: «كيف أضيع؟» فأجاب في ثقة: «يأخذك مني الطويل صاحب العينين الزرقاوين، وتتمنعين عليه ويريد أن يجبرك على ما لا تطيقينه، لكنه لا ينال منك شيئًا، وتعودين أنت لي، بالشوق نفسه، لا ينقص مثقال ذرة، لكن بمرارة ووجع لا يفارقك، وكل هذا إلى حين قريب».

تراجعت خطوتين، ونظراته الملتهبة تغرقها في خجل ووجل، لكنه تبعها، وسألها:

ـ هل أبوك أو أمك أو أحد من أجدادك فرنساوي؟

صرخت فيه:

ـ أنا مصرية أبًا عن جد.

مصمص شفتيه وأخذ شهيقًا عميقًا وقال:

ـ يا لها من مصادفة عجيبة، أنت تشبهينها تمامًا، هي أنت، وأنت هي، إنه شيء عجيب.

ـ من تلك التي تشبهني؟

ـ من ذهبت عني رغم أنفي.. «إيلين»، التي ماتت أمام سجن «الباستيل»، كانت مع من هاجموا السجن، لكنها سقطت على الأرض في لحظة المواجهة فداستها الأقدام الغاضبة دون أن تدري، حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

وأسند رأسه إلى جدار غرفة حارس البيت، وترقرقت في عيونه دموع ساخنة، فزاد ارتباك «زينة» لكنها أرادت أن تستغل لحظة الضعف تلك على أفضل ما يكون. نظرت إلى الخلف حيث الحريم واقفات يتابعن من بعيد ما يجري بينها وبين الضابط، وكلهن أمل في أن تقنعه بأن يترك لهن البيت، أو على الأقل يمهلهن حتى يجمعن أغراضهن ويرحلن بسلام. كن متعجبات مما يجري للضابط الفرنسي الذي سقط غروره في عينيه الدامعتين. وهمست الزوجة الوسطى للأخريات:

ـ يبدو أن «السناري» قد علمها شيئًا من السحر، فصنعت طلسمًا للرجل وصارت تحركه كيفما شاءت.

ردَّت الزوجة الكبرى:

ـ هو فعلًا سحر، لكن ليس من ذلك الذي يتقنه «السناري» إنما سحر جمال «زينة» الذي سحرت به الساحر، وجعلته يهجرنا، وها هي تخطف عين الفرنسيس بعد المماليك.

وتدخلت الزوجة الصغرى:

ـ هرب رجلنا في الصحراء، وترك عشيقته تتلاعب بغيره، كما تلاعبت به.

لم تسمع «زينة» ما تقلن، لكنها حين اقتربت منهن قرأت في عيونهن قبل أن تنطق ألسنتهن بشيء جديد، رضاء عن ملاينتها للضابط، فعادت إليه، وأشارت له لينزع رأسه المسند إلى الجدار، وقالت له:

ـ نتعشم في أن تساعدنا على البقاء هنا.

نفخ في ألم وقال:

ـ أنا رجل عسكري، وتلقيت أمرًا لا أستطيع مخالفته، هذا البيت خُصص للرسامين «ريجو« و«بونيه» و«مونج دبرتوليه» ولعالمي الطبيعية «سافيجني» و«ردوتيه»، وللمهندسين «إدوارد دي فيير تيراج» و«بروسبير جولواز» و«فيفر».. الأسماء مكتوبة في هذه الورقة، أنتم ستذهبون اليوم، وهم سيحلون محلكم.

تذكرت أيضًا ما قاله لها «السناري» ذات ليلة قبل سنين حين كانت تأخذه في حضنها ودفعت أصابعها بين تلافيف شعره المجعد. لحظتها غامت عيناه، وثقل لسانه بخمر لم يشربها وقتها، وأدار بصره في أرجاء البيت وهو جالس في «التختبوش» وقد أسند ظهره إلى أريكة وتحته حاشية من

ريش النعام، وقال: «أرى على هذه الحوائط وفي ذلك الفناء صورًا لبحار شواطئها لا تبدو لها نهاية، وأهرامات عالية تلامس السماء، وصورًا لطيور وحشرات وأسماك ونبات وحيوانات بعضها لم أره من قبل، وصور آدميين تكاد تنطق، وقد يظن من يراها أن بها روحًا. وأرى قوارير من زجاج بها سوائل حمراء وصفراء وخضراء وزرقاء وأخرى بها دقيق ملون، وعجين وتراكيب عجيبة، وأرى كوانين وتنانير. وأرى كتبًا مختلفة الأحجام مرصوصة على أرفف مقامة على الجدران. وأرى غرباء يدورون في البيت، أحدهم يضع في فمه غليونًا ويسحب منه ويخرج من أنفه دخانًا كثيفًا. أسمع كلامهم، إنه بلغة لا أفهمها، يحركون أيديهم بقوة، ويهزون رؤوسهم وهم يتكلمون. أرى أناسًا من عموم الناس يدخلون للفرجة، ثم ينسحبون وفي عيونهم دهشة».

حل هذا برأسها، فتملكها شعور جارف بأن خروجها من هنا بات أمرًا واقعًا، وأن محاولة استعطاف الضابط الفرنسي لا طائل منها. ولهذا غيرت لهجتها معه:

- سنترك لكم البيت تسرقونه، لكن هل من قرر طردناحدد لنا بيتا نسكنه، أم سيتركنا في الشارع؟

أجابها على الفور:

- هناك بيت بالفعل ستذهبون إليه جميعًا.

- أين؟

- في «بولاق»، قريب من معسكراتنا هناك.

نظرت إلى الخلف فوجدت الزوجة الكبرى لـ «السناري» تتقدم نحوهما وتسأل:

- هل تقصد بيتنا القديم؟

- هو فعلًا، معلوماتنا أن البك له بيت قديم هناك، ستنتقلون إليه، ومعكم كل ما لكم هنا، لن ينقص منها شيئًا.

امتلأ وجهها بالأسى، وتمتمت في اشمئزاز: «من فات قديمه تاه»، وسحبت ولدها خلفها، وراحت تصعد سلالم البيت بخطوات وئيدة، وتدوس في تقدمها آمالها وذكرياتها في هذا البيت الفسيح، وتجتاحها ظنون في أنها سترى هذه الجدران الحجرية القوية مرة أخرى.

وراحت الحريم والخدم ينسلون وراءها، واحدة تلو الأخرى، حتى فرغ الفناء منهن جميعًا، ولم تبق سوى «زينة» مهمومة بما تعرفه هي، ولا تدري أي من الحريم عنه شيئًا. وسألت نفسها دون أن يسمعها أحد: كيف سأصل الآن إلى الخبيئة وكل هذه العيون تراني؟»، ولم يكن يواسيها في هذه اللحظة سوى قول صاحب البيت: «ليس بوسع أحد أن يكشفها سوى من يعرف خبرها، أو حين يهدم هذا البيت حجرًا حجرًا». والتفت ونظرت نحو الدهليز الذي يستقر كنز «السناري» في منتصفه، وسألت الضابط الذي كان لا يزال ناظرًا إليها في دهشة:

- هل بوسعنا أن نبيت هنا الليلة، ونرحل صباح الغد؟

هز رأسه بالنفي:

- الأوامر التي تلقيتها تقضي برحيلكم الآن، وغدًا سيحضر ساكنوه الجدد.

وقبل أن تنطق بكلمة جديدة عاجلها بأمر آخر:

- سنتخير بعض خدمكم ليبقوا هنا خدمًا للسكان الجدد.

(9) الطومار هو المرسوم.

20

بعد ثلاث ساعات كان كل شيء جاهزًا للرحيل. ذهب الخدم إلى العربخانة وعادوا ومعهم ثلاثون عربة كارو، وقفت في مدخل حارة «موسى جاويش» وقام الفواعلية والخدم بنقل أغراض أسرة «السناري»، ولم يبق لهم في المكان سوى الخبيئة والخيل. الأولى لا يعلم عنها من المتواجدين شيئًا سوى «زينة»، أما الخيل فكانت غارقة في صهيل موجع حزنًا على فراق أصحابها.

فالضابط دخل الإسطبل وأبلغ آل «السناري»:

ـ هناك أوامر بتحويل ملكية هذه الخيول إلى الجيش الفرنسي.

لم يفلت سوى الأبلق الذي ركبه «حسن جعيدي» ومضى إلى «الفيوم».

وتكلمت زوجة «السناري» الكبرى مع الضابط ليترك لهم حصانين يجران «الدوكار» الذي سيستقلانه إلى «بولاق»، لكنه أبى، واستعصم بالأوامر التي لديه، فلمَّا تدخلت «زينة» لان قليلًا، وقال لها:

ـ يمكن أخذ حصانين إلى هناك، لكنك ستوقعين أمامي على تعهد بإعادتهما مع أي من خدمكم.

وقبل غروب الشمس، كان فواعلية قد قبضوا أجورهم مقدمًا ليغسلوا بيت «السناري»ويبخروه كي يكون على أهبة الاستعداد لاستقبال السكان الجدد.

وبعد الغروب بقليل كان الضابط الفرنسي هناك في «بولاق» يقف أمام البيت القديم للسناري، وينادي بأعلى صوته: «إيلين.. إيلين»، وخرج له الحارس الذي صار بوابًا، بعد أن أزاح المزلاج الكبير، وتطلع إليه في اشمئزاز وقال:

ـ تركنا لك «الناصرية» بما فيها ومن فيها، فما الذي جاء بك خلفنا إلى «بولاق»؟

ابتسم وردَّ عليه بصوت فيه كثير من الجفاف والاستعلاء:

ـ اذهب، وقل لـ «إيلين» إنني أريدها.

ـ «إيلين».. ليس لدينا أحد بهذا الاسم.

ـ أنت تعرف ما أقصده، فقد كنت واقفًا وهي تحدثني عند الضحى.

نفخ الحارس، وردَّ بصوت أكثر جفافًا:

ـ هل قال لك أحد في المحروسة إنني قرني يا ابن النصرانية؟

قهقه الضابط بصوت كالرعد، ثم أمسك بكتف الحارس، وصرخ فيه:

ـ ستفعل ما تؤمر به، ولن تتوان، إن لم يكن بإرادتك فرغم أنفك.

نظر الحارس في عمق الحارة فوجد الناس يتجمعون ويرقبون ما يجري، وعلى وجوههم حيرة، وفي عيون بعضهم تحفز حيال الضابط الفاجر، الذي جاء إلى هذا البيت، الذي ظل مهجورًا لسنوات وحتى قبل ساعات قلائل، ويقف أمامه بكل هذه البجاحة ويطلب إحدى النساء، لتهبط إليه وتكلمه.

وداخل خوف نفس الضابط الفرنسي، فأشهر سلاحه ووجهه نحو الذين يتجمعون على مقربة منه، وصرخ فيهم:

- جئت في مهمة محددة، ومن يمنعني عن أدائها، سيتعرض لعقاب وخيم.

وتقدم الحارس من الناس خطوتين، وقال لهم في هدوء:

- أرجو أن تتصرفوا إلى بيوتكم، المسألة بسيطة، وسنسويها الآن.

وعاد إلى الضابط وقال له مرة أخرى:

- أنا لم أكذب عليك، لا توجد هنا امرأة اسمها «إيلين».

أعاد البندقية إلى كتفه، وقال:

- نعم، هذا ليس اسمها، لكنك تعرف تلك التي تحدثت معها عند «بيت السناري» وقت الضحى، فأرجو أن تستدعيها، أريد أن أخبرها بشيء ضروري يخصها.

ابتسم الحارس في فتور وردَّ عليه:

- تفضل اجلس في مدخل البيت، حتى لا تثير غضب الناس، وسآتي إليك بمن طلبت، وسنعرف ماذا تريد منها.

كانت «زينة» تقف إلى جانب الجدار، تسمع ما يدور منذ البداية، ولا يراها أحد، فخرجت وفي يدها قنديل، وفي عينيها غضب، ووقفت أمام الضابط دون أن يشعر بها، فلما رفع رأسه رآها، فوقف منتفضًا تغلبه الابتسامة والدهشة والحيرة، ومد إليها يده، لكنها للمرة الثانية لم تصافحه، وسألته في حدة:

- هل لديك أمر بسرقة هذا البيت أيضًا؟

هز رأسه نافيًا، وتهدج صوته وهو يقول لها:

- أشعر أن الله قد ساقني إلى هذا البلد ليعوضني عما ضاع مني في بلدي.

- أضاع منك بيت هناك فجئت لتأخذه هنا؟

- بل ضاعت مني «إيلين» وأنت هي، وهي أنت.

- عدت مرة أخرى إلى هذا الخبل.

لم يتوان في أن عرض عليها:

- يمكنني أن أحقق لك ما تريدين، إن قبلت أن نكون معًا.

كاد لسانها ينعقد من الدهشة والغضب، لكنها ملكت زمام نفسها، وردَّت عليه في برود:

- معًا؟ أين؟

- في أي مكان تريدينه.. معي مال ويمكنني أن أشترى بيتًا واسعًا، أو أطلب من قادتي أي بيت من تلك التي أخذناها من المماليك، وسيكون بيتك، وأنا لك.

تعجبت من جرأته، ومدت طرف طرحتها فأخفت وجهها عنه، وداست بأسنانها على الحروف الخارجة من فمها ببطء شديد:

- ألم يخبرك من جمعوا لك الأخبار عن «بيت السناري» من أكون أنا؟!

- لم أتوقع وجودك حتى أسأل عنك، وجئت لأسألك أنت، وأعرف منك عنك فوق ما عرفت.

نفخت في غيظ، وقالت:

ـ أنا زوجة «السناري».

ـ ما عرفته أنك جارية.

صرخت فيه:

ـ لست جارية، ما بيني وبينه لا يجعله عليّ سيدًا، ولا يجعلني له جارية.

صمت برهة وقال في برود:

ـ لست مشغولًا بما بينك وبينه، فهذا من الماضي. «السناري» هرب ولن يعود، سنتعقبه كغيره من الأمراء ونسقي الأرض دماءهم. ما يشغلني هو ما سيأتي، وقلبي يحدثني أن بيني وبينك شيء، حياة لا بد أن نعيشها سويًّا.

نظرت خلفها فوجدت إحدى زوجات «السناري» ومعها خادمة تقفان في الردهة المطلة على الفناء الضيق للبيت، فعادت بوجه أكثر تجهمًا إلى الضابط، وقالت له:

ـ ما تريده مستحيل، ولو بقيت هنا لحظة واحدة بعد الآن، سأخرج إلى الحارة وأصرخ وأستنجد بالناس، وسيأتون ويُقطِّعونك.

ابتسم في برود:

ـ الناس في هذا الحي عقلاء، أنسيت أنهم لم يشاركوا في فعل الغوغاء، والتزموا بيوتهم.. معسكراتنا قريبة من هنا، ولن يجرؤ أي كلب منهم على التعرض لضابط فرنسي.

نفخت في وجهه من جديد:

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ نكون معًا.

داست بقواطعها على شفتيها من الغيظ، وقالت له:

ـ أنسيت أنك نصراني وأنا مسلمة.

قهقه، وضرب الجدار بيده:

ـ وما دخل الدين بالحب؟!، وإذا كان هذا هو ما يحول بيني وبينك، يمكن الآن، إن أردت أن أصير أنا «دوبريه» اسمي «محمد» أو «علي» أو أي اسم آخر لمسلم.

ـ الحب؟!

ـ ضيعت «إيلين»، ولن أضيعك.

ـ أنا لست هي.

ـ تشبهينها تمامًا.. أنت هي.

ـ أنا «زينة» والحب في قلبي لرجل واحد، أنت تقول إنكم ستقتلونه، وأنا أجزم لك بأنه سيعود، وأنت ومن معك ستذهبون عنا بلا رجعة.

عاد إلى الضحك وقال لها وهو يغمز بعينه:

ـ دعك منه، ولا تغرنك أماني في عودته، هذا لن يحدث، وإن جاء سأقتله بنفسي، وحتى لو خرجنا من بلدكم، وهذا مستحيل لأننا جئنا لنبقى، سآخذك معي، ستركبين السفينة الهائلة، وتعيشين معي في «باريس».

وتنهد ساندًا ظهره إلى الحائط، ثم اتسعت عيناه اللتين غرقتا في زرقة غامقة مع حلول الليل وشح ضوء القنديل، وقال بصوت خفيض، كأنه يناجي نفسه:

ـ كنت فرحًا بالمجيء مع ساري عسكر إلى الشرق، دون أن أعرف سبب فرحي رغم أنني قادم إلى حرب تلو حرب، لكن حين رأيتك عرفت سبب هذا الفرح الذي كان يغمرني، ويزيد كلما أمخرت السفينة مقتربة من شواطئ «الإسكندرية».

كان يتهدج بنبرات غارقة في تبتل غريب، وعيناه ذاهبتان إلى بعيد راح منه، وتأتيان به وتطلقانه في وجه «زينة» التي بدت تأخذ ما يقوله على محمل مختلف، فلم تعد تستهين به، ولا تنظر إليه باعتباره غريبًا راغبًا في أن يقضي شهوة، مثل زميله الذي أماته فرجه، حين هم بالاعتداء على واحدة من بنات البلد فطعنه شاب طعنة نجلاء في قلبه، ثم لاذ بالفرار.

قالت لنفسها: «هذا عاشق مكسور، ويستحق العطف»، وسألتها: «هل يمكن أن يساعدني تعلقه هذا في الحفاظ على خبيئة بيت السناري».

لهذا عادت إليه بوجه أقل حدة وقالت له:

ـ اذهب الآن، فقد سببت لي حرجًا شديدًا، أنا أعذرك، وأفهم ما أنت فيه، لكن ليس بوسعي أن أقدم لك سوى المواساة.

ورضي هو بتعاطفها إلى حين، فعدل القبعة فوق رأسه، وأشار إلى المترجم المغربي الذي نقل عنه وإليه كل ما قيل بدقة، وغاصا في ظلام الحارة.

21

عرف الشيخ «زيدان الخضيري» أن ساري عسكر قد أمر بإخلاء «بيت السناري» من أهله، فخطف نعليه، وارتدى جبته وعمامته، وذهب إلى هناك. صلى الظهر في مسجد «السيدة زينب»، ثم مشى على مهل حتى وصل إلى حارة «موسى جاويش».

وجد خمس عربات كارو واقفة في مدخل الحارة وعليها فواعليه يرفعون صناديق مغلقة بحذر شديد، ويضعونها على أكتاف زملائهم، فيمشون بها على مهل حتى يدخلون البيت.

الذي جاء له بنبأ طرد آل السناري من بيتهم كان قد أبلغه بأنه قد خُصص لعلماء وفنانين فرنساوية، كما جرى مع بيوت كثيرة، تجاوره أو تبتعد عنه.

كان الشيخ يعلم أنه لا مرد لأمر كبير الفرنسيس، وأن تشفع كبار مشايخ الأزهر لن ينفع في هذا الموقف. تدخلوا كثيرًا للإفراج عن نساء ورجال قبض عليهم الجند واحتجزوهم أيامًا، وفرضوا عليهم أموالًا باهظة لقاء تسريحهم. لكن بيوت أمراء المماليك لا تعني غير أصحابها، ولذا لم يضع «الخضيري» وقته في البحث عن شفاعة من أجل «السناري» وبيته، بل كان يخشى أن يحسب عليه عند الفرنسيس ومن باتوا معهم من الأزهريين، وهو الرجل الهارب مع «مراد بك» العدو الأول لـ«بونابرته».

«هذه مسألة محسومة، ولا داعي لنبشها».. هكذا ظل «الخضيري» يحدث نفسه طوال الطريق، لكن غير المحسوم بالنسبة له كانت الخبيئة التي أمَّنَه «السناري» عليها، لكن ما عساه أن يفعل، وقد قضي الأمر بما فوق طاقته؟

اقترب من الفواعلية وسألهم:

ـ هل قبضتم أجوركم؟

أزاح أحدهم الصندوق عن كتفه قليلًا، وأجابه:

ـ أزيد مما طلبنا، وقبل أن نعرق.

لوى بوزه امتعاضًا، وقال:

ـ لكنكم تساعدون الغريب على أخذ ما ليس له.

ضحك رجل آخر، وطوح يده في الهواء غير مبال بما راح وما سيأتي، وقال:

ـ غريب راح، وغريب جاء، وما نأخذه من هذا أو من ذاك فائدة.

كانوا يضعون الصناديق بجوار الجدار الذي يلي الإسطبل. رصوها حتى وصلت إلى مطلع السلم الحجري، بينما كان غيرهم يطلون أسفل جدران الدور الأرضي كله باللون البني الغامق، وآخرون يدعكون منايم المشربية بسائل يجعلها تلمع في وجه الشمس، التي كانت قد استقرت في منتصف الفناء، وأسخنت الرؤوس.

رأى جندي فرنسي ممن كلفوا بحراسة «البيت» الشيخ «الخضيري» يتحدث إلى الفواعلية فهرع إليه، مستفهمًا عن سر وجوده هنا، فلم يجد ما يقوله غير أنه كان عائدًا من الصلاة فرأى العربات والرجال والصناديق، وجاء ليعرف ما يجري.

قال له الجندي:

- ستكون هنا هيئة للعلم والفن، ومكتبة، سيفتحها العلماء أمام أي مصري يريد أن يطلع على ما فيها.

أبهجه ما سمع، وأدرك أنها ستكون فرصة سانحة له كي يدخل البيت، الذي بات محرمًا على أهله، ويمكن أن يمر من الدهليز، ويقف فوق الخبيئة التي أراه إياها «السناري» ذات يوم، وقال له:

- ثقتي فيك بلا حدود، وأخشى إن أفشيت سرها لأحد من زوجاتي أو أولادي أن يصل خبرها إلى «مراد بك» فيطلبها بدعوى تجهيز الجيش، كما يفعل عادة مع بعض الأمراء، لاسيما في أوقات الأزمات المالية الطاحنة.

يومها سقطت دموع «السناري» فوق خبيئته، وخالطت المال والجواهر، وقال للشيخ «الخضيري»:

- إن دارت عليّ الدوائر، سأحمل هذا الصندوق، وآخذ أولادي وأرحل.

- ترحل إلى أين؟

سأله الشيخ متعجبًا، ومد طرف جبته ليمسح دموعه، وزاد عجبه حين أجابه «السناري»:

- سأعود إلى «سنار».

- بعد كل هذا العمر؟

- لا يسع الإنسان في النهاية بحق سوى بقعة التراب التي دبت عليها رجلاه وهو صغير.

كان «الخضيري» مهتمًا بمعرفة أشياء عن سحر الأرقام والتنجيم وفك أعمال السحر بقراءة القرآن والأدعية، ومن هذا الباب تعرف على «السناري»، الذي كان قد بلغ في هذا المجال مكانة لا يطاوله إليها أحد في أهل مصر أجمعين.

وقال «السناري» للشيخ:

- بعض العلم الذي منحني الله إياه أخبرني بأنك من يمكن
الوثوق به.

ضحك الشيخ وردَّ:

- ثقتك في محلها يا بك.

وأخبره بأن الوحيدة التي تعرف أمر الخبيئة هي «زينة»، وأمام تعجب الشيخ قال:

- لم أستطع إخفاء شيء عنها.. أنا ضعيف أمامها، هي فقط من تأسرني، لا المال ولا السلطة، كل هذا فرحت به ثم راحت فرحتي تزول تدريجيًا بمرور الأيام، حتى تساوى عندي وجودهما وعدمه. أما «زينة» فمع تقدم العمر تزداد فرحتي بها.. أنا أكبر وأشيخ وهي تصغر، وتمنحني من شبابها قوة وأملًا وفرحًا.

تذكر الشيخ كل هذا وهو يرنو إلى باب الدهليز الذي كان يبين من جانبه قليلًا، وتمنى لو لبس طاقية الإخفاء، ودخل حتى وصل إلى الخبيئة، واطمأن إلى وجودها، واستطاع أن يحمل الصندوق الذي تستقر فيه على كتفه، ويمضي إلى الحارة، لا يشعر به ولا يراه أحد.

لكن هيهات أن يُمكَّن من هذا، وكل ما تمناه في هذه اللحظة ألا يعثر أي من الفواعلية والخدم أو حتى السكان الجدد للبيت على ما يقوده إلى تلك الخبيئة أبدًا.

كل ما بوسعه الآن أن يأتي ولو مرة واحدة في الأسبوع، بدعوى الاطِّلاع على ما لدى علماء

الفرنسيس من كتب أتوا بها معهم من وراء البحار، ثم يتسلل ويمضي إلى الدهليز، ويقف على الحجر الذي تستقر تحته الخبيئة، أو يتمهل عنده، وعليه أن يعرف بقدميه ما إذا كان الأمر على حاله من عدمه.

وكان يعرف أن للسناري بيتين آخرين، أحدهما في «الغورية»، وهو أول بيت سكن فيه بعد أن جاء من الصعيد، لكنه ضيق وقديم، وتهدم جانب كبير منه حين ضرب الفرنسيس «القاهرة» بالمدافع من فوق القلعة، والآخر في «بولاق» وتوقع أن تكون الأسرة قد ذهبت إليه.

أدار وجهه نحو «الناصرية» وقطع الطريق إلى «الأزبكية» ومنه إلى «بولاق». كانت نسائم صيف رخية قد هبت، وسحب زحفت على الشمس وحجبت وهجها قليلًا، فطاب له المشي بخطوات وئيدة، وكأنه يتبختر. حتى أنه أشار بالرفض لمكاري دعاه إلى أن يركب الحمار إلى حيث يريد.

حين دخل الحارة وطرق الباب، تناهى إلى سمعه صراخ وسباب، ولم يسمع دبيب أقدام يزيح صاحبها المزلاج الضخم ويدخله، فأعاد الطرق بقوة وانتظر، فجاء الحارس الذي صار بوابًا، وفتح فرجة ضيقة ومد منها عينيه فلما رأى الشيخ، وكان يعرفه، جذب الباب، فانكشفت له امرأتان تتشاجران وسط خدم يقفون عاجزين عن التخليص بينهما.

هرع نحوهما بينما يقتحم أذنيه قول البواب:

- منذ أن أتينا إلى هنا ولا تمضي ساعة بلا شجار، ضاق البيت فضاقت الأخلاق.

التفت إليه الشيخ على عجل فكاد يسقط في حجر ملقى في طريقه، لكن البواب لحقه، وجريا سويًّا، حتى وقفا بين المتشاجرتين، وإحداهن كانت «زينة» والأخرى كانت الزوجة الكبرى لـ «السناري» التي ما إن رأت «الخضيري» حتى صرخت:

- الحقني يا مولانا، شرف زوجي تدنسه هذه الخائنة.

اندهش الرجل لقولها، وحاول أو يهدئ من روعها حتى يفهم ما تقول:

- استهدي بالله، وأفهميني، واعلمي أنني حريص على شرف البك مثلك وأكثر.

رفعت الزوجة يديها إلى السماء، وقالت: «يا رب إن كنت أكذب خذني»، ثم توجهت إلى الشيخ: «هذه الفاجرة تعرف ضابطًا من الفرنسيس، وجاء الوقح خلفها إلى هنا، ووقف على الباب نصف ساعة يحدثها، وأهل الحي رآوه، ولولا الفضائح لجمعت الحريم والأولاد وجرسناها».

اندهش الشيخ لما سمعه، والتفت إلى «زينة» ليستوضح الأمر، فوجدها تبكي بحرقة، وقبل أن يسألها، انصرفت، لتصعد إلى غرفتها، لكنها قبل أن تضع قدميها على أول درجة في السلم المتآكل، أدارت كتفيها وقالت للشيخ:

- كلامها على الظاهر، أما ما خفي فالله أعلم به.

صاح بأعلى صوته:

- بددي الظنون ولا تهربي.

ردَّت قبل أن تصعد من جديد:

- سأفهمك كل شيء يا مولانا، لكن ليس الآن.

22

حَرَن الفرس الأبلق عند «بحر يوسف»، رفع خطمه وشمخ بأنفه في وجه الريح، ونكص على عقبيه، وأراد العودة إلى الوراء.

كان «حسن جعيدي» قد وصل إلى «الفيوم» فوجد حطام معركة حامية بين الفرنسيس و«مراد بك» ومعه مماليكه وبعض القرويين الذين تمكن رجاله من إقناعهم بالانضمام إليه.

قال له رجل على باب أول شارع صادفه:

ـ انهزم البك، وفرَّ بمَن تبقَّى معه من رجاله إلى «بني سويف».

اكتسى وجهه بحزنٍ، حين عرف أن مهمته تزداد صعوبة، لكنه تمسك بخيط أمل، وسأل:

ـ سمعت أن «إبراهيم كتخدا السناري» باقٍ هنا، ومعه سرايا من المماليك.

هزَّ الرجل رأسه وقال:

ـ صحيح، هو بقي مدة بعد رحيل «مراد بك» ثم لحق به.

نظر إلى الأرض الخلاء، وقال:

ـ سأرمح خلفه.

نظر إليه الرجل وقال:

ـ يمكنك أن ترمح كيفما شئت، لكن أعتقد أنك لن تلحق به إلا وهو في الصعيد الجواني، والطريق غير آمن لرجل وحيد.

وكان عليه أن يسعى خلف بقايا الجيش المهزوم، مهما كلفه هذا من عناء، ليُسلِّم الرسالة إلى صاحبها، لكن الفرس عانده، فتذكر لحظتها ما قالته له «زينة»:

ـ هذا حصان قُرئ عليه.

ولم يفهم ما قالته واستغربه، ورأت حيرته في عينيه، فقالت له:

ـ البك سحر الفرس، فإن انطلق بك فاعرف أن طريقك مفتوح إلى ما تريد، وإن جفل فاحذر أن تمضي.

نظر إليها متشككًا، وقال:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يركبه وهو ذاهب إلى الحرب؟

أعجبها ذكاؤه، فابتسمت له بامتنانٍ، وقالت:

ـ ركب حصانًا أقوى، وأصغر سنًّا، ومسحورًا أيضًا، وأهداني هذا.

نظر «حسن» إلى عمق الرمال الممتدة، وعادت عيناه فملأتهما الحفر التي صنعتها حوافر الحصان، وشعر بأن السبل قد انقطعت به، فالدليل تركه على أبواب «الفيوم»، وعاد من حيث أتى، واعتمد على فلاحين يرفعون أيديهم في الهواء، ويطعنونه بسباباتهم ويقولون له:

ـ هذا هو الطريق إلى «بني سويف».

لكن الحصان تمرد عليه، وأدار وجهه نحو الشمال الشرقي، وعاد خطوات في الاتجاه الذي يريده. ربطه بإحكام شديد إلى فرع شجرة كافور تتوسط نخيلات تظلل بقعة خضراء وسط الرمل، وجلس يستظل، وينتظر أن يأتي إليه أحد، ليشير عليه، أو يؤجِّر له دليلًا، أو يخبره بالدرب الذي سلكه فلول المماليك.

كان غاية في التعب، والنسيم عليلًا، فضرب رأسه وأخذه إلى نوم عميق، وارتفع شخيره يلوث السكون العميم. وجاءت الأحلام متقطعة، حكايات لا تكتمل، وصورًا تتوالى بلا توقف. لكن في كل الحكايات والصور كان يشرق وجه «زينة».

رآها تمد يدها إليه، وفي إصبعها خاتم الزمرد الذي أهداه البك لها، فمد يده، وقبل أن تلمس أطرافه أطرافها اختفت، وتركت أصابعه معلقة في الفراغ، فراحت تتمدد وتطول بحثًا عنها بلا جدوى. ابتعدت عنه فلم يعد يرى أظافره، ثم عادت إليه ومعها لجام فرس، ما إن قبض عليه حتى تحلل في يده وصار ذراتٍ كالغبار، لم يلبث أن طار في الهواء، واختفى.

هبَّ مذعورًا، وشخص ببصره نحو الكافورة فوجد اللجام معلقًا يهزه النسيم، بينما كان الحصان غائبًا.

دار حول نفسه، ولم تلمح عيناه الحصان في أي مكان، بينما كانت حوافره قد علَّمت في الرمل، فاقتفى أثرها، ومضى تقتله اللهفة والغضب ويحييه العزم في أن يواصل رحلته مهما كان العناء.

مدَّ يده إلى وسطه فوجد صرر المال التي أعطتها له «زينة» مربوطة على حالها، لم تنقص منها سوى تلك التي أعطاها للدليل، لكن جيبه كان مقطوعًا بسكين حاد، وقلبه خارجًا من مكانه ومتدليًا يهفهف في الهواء الطليق، فأدرك أن الحصان قد سُرق، وأن اللص بحث عن مالٍ فلم يصل إليه، وربما عرف لكنه خشي من استيقاظه، لاسيما أن خنجره القوي كان لا يزال ملفوفًا بحبل متين حول وسطه أيضًا.

مشى ساعات لا يعرف عددها، وقبل أن تغرب الشمس رأى خُصًّا من جريد النخل والليف وفوقه جلود مقددة لماعز ذُبح والتهمت لحومه ورميت عظامه في الرمل. قبل أن يصل إلى بابه خرج له رجل فارع الطول، وله عينان واسعتان تحتلان جزءًا كبيرًا من وجهه، حملق في «حسن» وسأله:

- هل أنت من الفلاحين الفارين من الفرنسيس؟

ردَّ عليه بهز شدقيه، فعاد يسأله:

- هل أنت تائه؟

ابتسم في مرارة وأجابه:

- تائه ومحزون.

تأمله الرجل مليًّا، وقال له:

- ندلك على الطريق وينتهي تيهك، أمَّا حزنك فيفرجه الله عنك.

كان «حسن» لا تكاد تحمله قدماه، فرمى جسده إلى جانب الخص، وطلب جرعة ماء. جاء إليه الرجل بالقلة، فمسح ذرات الرمل الخفيفة المتراكمة على فوهتها، وراح يعب منها سريعًا، ويبلل صدره. فلما ارتوى قال للبدوي العجوز:

- ضاع مني حصاني، وأطلب مساعدتك.

كان الدليل الذي صاحبه إلى الفيوم قد حكى له طيلة الطريق عن قطاع الطرق من بني جلدته،

وأفهمه أن ما يفعلونه بات أمرًا طبيعيًا لديهم،
لا يجدون غضاضة فيه، ولا يشعرون بأي ذنب حياله. ولهذا أدرك أن أحد هؤلاء الذين قصَّ الدليل عليه بعض أفعالهم قد نال منه.

كان قد اطمأنَّ إلى قول «زينة» بأن الحصان مسحور، واعتقد أنه سيكون محصنًا ضد السرقة، لكن وقع المحظور، وزاد حيرته وخوفه.

سخر من نفسه وهو ينظر بعيدًا فلا يرى غير الخواء: «أرسلتك مَن تحب، وهي واثقة فيك، وأغرتك بما تنتظره، وامتلأت أملًا وأنت تقطع أول خطوة على طريقك، لكن ها أنت بلا شيء، لم توصل الرسالة، وضاع منك الحصان، ومَن يعرف فقد يضيع الطريق والعمر أيضًا».

راح يُحدِّث نفسه بكلمات تنفخ الريح في حروفها وتذروها، ويطالع بنصف عين الأعرابي، الذي انهمك في تهشيم الحطب، ووضع قشًا تحته، ثم قدح زلطتين لتشتعل النار، وقال:

ـ نشرب كوبًا من الشاي، ونحن نتحدث عن حصانك الضائع.

برق الأمل في عيني «حسن»، وسأله:

ـ أبوسعك فعلًا مساعدتي؟

ضحك البدوي فبانت أسنانه المثرمة، وأجابه:

ـ سيعود إليك فرسك قبل أن تقوم من هنا.

وقبل أن ينطق «حسن» كلمة واحدة يعبر فيها عن امتنانه للرجل، سمعه يقول:

ــ استرجاع حصانك سيكلفك الكثير.

وضع يده على خصره، وتحسَّس صرر المال، وردَّ في هدوء:

ـ لك ما تريد.

أرسل إليه نظرة فاحصة من عينين ضيقتين تكسوهما رموش طويلة، وتتدلى عليهما حواجب قد اشتعلت شيبًا، وسأله:

ـ أمعك مال؟

دس يده تحت جلبابه، وأمسك خنجره، ونظر في عمق الخص ليرى ما إذا كان أحد نائمًا أو راقدًا، يتنصت ويستعد للانقضاض عليه. وحين تيقن من أن الرجل وحيد، قال له:

ـ معي ما كان سيعينني على رحلتي، لكن ما بيدي حيلة.

وحدَّد له ما يريد، فهزَّ «حسن» رأسه موافقًا، واستأذنه أن يقضي حاجته، حتى غاب خلف تبة، وحلَّ صُرَّة وألقاها في جيبه وعاد. كان البدوي ينتظره جالسًا إلى جانب راكية النار، وهو ينظر إلى البعيد.

مدَّ إليه المال، فأخذه وراح يقذف الصرة قليلًا إلى أعلى ويلقفها، ثم قال له:

ـ انتظرني ساعة حتى أعود إليك بحصانك.

وعاد فعلًا بعد ساعة راكبًا الحصان الأبلق.

23

ظلت «زينة» لشهور تخرج مرة كل أسبوع، وتحوم حول «بيت السناري»، ملفوفة في رداء لا يُظهر منها سوى عينيها. لم تجرؤ في أي مرة أن تدخل، لكنها كانت تطمئن إلى أن البيت على حاله، لم يُهدم منه شيء، فتقول في نفسها: «الخبيئة في مكانها، والأمل لا يزال موجودًا في أن أصل إليها ولو بعد حين».

كانت تمر من أمام المقهى وتتأمل المقعد الذي اعتاد «حسن جعيدي» الجلوس عليه، وتتساءل عن سر غيابه الطويل، ولا تملك إلا أن تردد المثل المعتاد: «الغائب حجته معه». وكان كل ما يجري لجيش «مراد بك» يصلها، وتعرف أين يكون «السناري»،لكن لم يكن بوسعها أن تفعل شيئًا سوى انتظار ما ستسفر عنه مهمة «حسن».

وذات يوم خرجت كعادتها عند الضحى قاصدة بيت «السناري»، وبينما هي تعبر النهر في مركب صغير استأجرته من الشاطئ الغربي، جاءتها فكرة أن تزور الشيخ «الخضيري»، بعد أن قضت ليالي تتقلَّب أرقًا وغضبًا منذ أن سمع قول زوجة «السناري» الكبرى، ومضى وفي نفسه ظنون.

شقَّت طريقها مع خادمة متسكعة تتسلى بالعابرين، ورأت لمَّة من الناس تتحلَّق حول المحتسب، وهو يمر في الشوارع على بغلٍ عفي وينادي: «يا أهل المحروسة الكرام، اللحم الضاني بسبعة أنصاف الرطل وليس بثمانية، ولحم الجاموس بخسمة وليس بستة، ومَن لا يلتزم بهذا من الجزارين سيُعرِّض نفسه للحساب».

وكان يسير خلف المحتسب من بعيد بائع العرقسوس وهو يُنادي بصوت خفيض: «شِفا وخمير»، فاقتربت «زينة» منه ومدَّت إليه ربع ريال فرنسي، ورفعت اليشمك قليلًا لتشرب كوبين كبيرين من نحاس، ومثلهما للخادم، الذي راح يكرع بصوتٍ عالٍ، فيثير ضحك الواقفين.

حين وصلت إلى ساحة «الأزبكية» رأت جنود الفرنسيس يتحركون يمنة ويسرة بلا توقف، وخافت أن يكون الضابط الفرنسي «دوبريه» الذي يعشقها هنا، لكن اليشمك الذي يغطي وجهها جعلها تشعر بالاطمئنان قليلًا.

توقفت من بعيد ترقب الجنود وهم يرفعون بنادقهم في الهواء، وقد أمسكوها من دباشكها، بينما مواسيرها الأمامية مسنودة إلى أكتافهم، ويضربون أقدامهم في الأرض بحزم، وشفاههم مزمومة، وعيونهم مصوبة إلى الأمام.

لم تفهم ما يجري، لكن الشيخ «الخضيري» عاجلها بالقول حين فتحت زوجته لها الباب:

ـ هناك أخبار رائعة.

انبسط وجهها بنور البهجة، وتطلعت إليه لينبئها. رفع القلة وشرب حتى ارتوى، ثم قال لها:

ـ كبير الفرنسيس جهز جيشًا إلى الشام، والأتراك يعدون العدة للزحف إلى مصر، والإنجليز في البحر نالوا من الفرنسيس وهزموهم، و«مراد بك» يحشد أهل الصعيد والعربان، وقد يطبق كل هؤلاء على الفرنسيس من كل جانب، ويطردونهم من البلاد.

وقفت من شدة الفرح، وصرخت:

ـ الفرنسيس سيخرجون من مصر؟

ابتسم وقال لها:

ـ ليس الآن، لكن ما يجري الآن هو بداية النهاية لهم هنا.

جلست وهي تشعر بخيبة أمل، فقد كانت تتمنى أن يكونوا قد حزموا أمتعتهم، ولملموا بقايا أسلحتهم وخرائطهم ورجالهم، وركبوا البحر إلى الغرب، وأخذوا معهم علماءهم وفنانيهم، وتركوا «بيت السناري» على حاله، فتجري نحو «بولاق» وتزف الخبر إلى الجميع هناك، وتعود بهم عربات الكارو إلى البيت الذي لم يعرف أي منهم طعم الراحة منذ أن فارقوه.

وأزال الشيخ «الخضيري» كثيرًا من خيبتها حين قال لها:

ـ لن يمكث الفرنسيس في مصر طويلًا، هم رتبوا بقاءهم على استمالتنا، وأخفقوا في هذا. والإنجليز والترك والمماليك لا يكفون عن مهاجمتهم في البحر وبر الشام والصعيد.. جنودهم يتناقصون، بعضهم يُقتل وآخرون يفتك بهم الطاعون، ولن يكون أمام ساري عسكر في النهاية سوى الفرار بما تبقى من رجال وعتاد.

رفعت كفيها إلى السماء داعية الله: «اللهم خذ الفرنسيس، وأعد إلينا بيتنا»، وراح الشيخ يضحك هو وزوجته التي كانت تعرف كل شيء عن «زينة» من زوجها، إلا سر الخبيئة، فتدخلت في الحديث:

ـ رأيت هذا البيت وهو يُبنى، صدقيني هذه عين وأصابتكم، الناس كانوا يحكون ويتحاكون عنه، ويخوضون في سيرة صاحبه، ويعجبون كيف لمثله أن يبلغ هذا المقام.

تنحنح الشيخ فقامت وهي تقول:

ـ سأعد لكما القهوة.

والتفتت إلى «زينة» وقالت وهي تبتسم:

ـ بعد أن تشربي فنجانك سأقرأه لك.

وما إن غابت في الداخل حتى سألها الشيخ:

ـ ما حكاية الضابط؟ هل لا يزال يضايقك؟

ـ منه لله، أساء إليَّ كثيرًا، ولم أسلم من الظنون حتى لديك يا شيخنا.

هزَّ رأسه بالنفي، وقال لها:

ـ لي في «بولاق» آذان وعيون، وعرفت كل شيء منهم، ولا حاجة لك بأن تبرئي ساحتك أمامي. لا شك لديَّ فيك، فالبك أفهمني ما بينك وبينه، وأنا مطمئن إلى إخلاصك له.

ومد يده إلى صندوق بجانبه عليه نقوش بديعة، وفتح درفته في هدوء، وأخرج منه مفتاحًا، وقال لـ «زينة»:

ـ هذا مفتاح «الخبيئة».

وأعاده إلى مكانه، قبل دخول زوجته، وقال لها بصوت خفيض:

ـ في يوم خروج الفرنسيس، سنذهب سويًّا إلى «بيت السناري» لنخرجها إلى مكانٍ آخر، فمَن يعلم؟ ربما يقع هرج ومرج ويهجم النَّوَر والزُّعر على البيت، ويستولون عليه، ولو مؤقتًا، فالمماليك الذين كانوا يحكمون مطاردون، والأتراك لم تعد لهم سلطة على البلد، ومشايخ الأزهر إن كانت لهم مكانة فليس لديهم خبرة بإدارة شئون العباد، ولن يسمع كلمتهم اللصوص.

ابتسمت في فتور وقالت متسائلة:

- وما يدرينا أن تكون الخبيئة في مكانها؟

طمأنها الشيخ:

- ذهبت كثيرًا إلى البيت بحجة الإطلاع على كتب علماء الفرنسيس.. لا أنكر أن ما بحوزتهم من كتب عنَّا وعنهم جذبتني، وسحرتني الصور التي علقوها على الجدران، لكنني كنت أتعمَّد النزول من الدهليز، وأقف فوق درجة السلم التي ترقد تحتها الخبيئة، وأتحجج بتنظيف حذائي من حصوات علقت به.

رقصت الفرحة داخل «زينة» وقالت له:

- حين يعود «السناري» من غربته، بإذن الله، سأحدثه في أن يكون لك في هذه الخبيئة نصيب.

اكتسى وجهه بغضب، ورفع عمامته، فبان شعره غارقًا في عرق الصيف الساخن، وقال:

- لولا أني أعرفك جيدًا لقاطعتك إلى الأبد.. أنا لم أنشغل بالخبيئة من أجل شيء أنتظره، إنما لما بيني وبين صاحبها من علم وعشرة.

ردَّت منزعجة:

- لم أقصد يا مولانا، لكن تعبك معنا يجب أن يُقدَّر، ولم أُرِد بك سوى كل خير.

ودخلت زوجة الشيخ حاملة صينية من النحاس عليها ثلاثة فنجانين من قهوة يتصاعد بخارها فيزيد الجو حرارة.

وما إن انتهت «زينة» من احتساء قهوتها حتى مدَّت زوجة الشيخ يدها وقلبت الفنجان على فمه، وتركته وقتًا كافيًا لتتداح بقايا القهوة في جنباته ثم عدلته، وحدقت فيه مليًّا، ونظرت إلى وجه «زينة» وقالت:

- لا تقلقي، المسافر سيعود، والعُشُّ الذي هجَّروكم منه، سيضمكم من جديد.

ثم تغضَّن وجهها بدفقة حزن ونظرت إلى وجه «زينة» ولاذت بالصمت، لكنها ألحت عليها أن تنطق بما حجزته، وألا تزوق الكلام. فنظرت المرأة في عيني زوجها، وابتسمت، وقالت:

- أمامك مَن يفهم في الأبراج والفلك، فمَن يدريك لعل لديه أكثر بكثير مما يقوله الفنجان.

لكن الشيخ «الخضيري» طوح يده في الهواء، وقال: «كذب المنجمون ولو صدقوا»، فضحكت زوجته وقالت: «منجم يكذب نفسه»، فتنهد بحرقة وقال لها: «تعلُّقي بالتنجيم ومعرفتي بالسحر ليست إلا من قبيل الفضول، لكنك تعرفين أنني لا أعمل بهما».

وفهمت «زينة» أن زوجة الشيخ تتهرَّب من قول شيء نَكِد، فعادت إلى الإلحاح:

- ماذا قال لك الفنجان وتكتمينه عني؟

لم تجد مهربًا من أن تبوح:

- أرى مسافرًا سيعود ليستعد لسفر طويل ليس منه رجوع، ولا لقاء بعده، وأرى عشًّا متينًا تضربه الريح، ويتساقط قشه على رؤوس العابرين، وأراكِ تهيمين على وجهك وخلفك ثلاثة رجال طامعين.

ضربت «زينة» على صدرها في فزع، فانزاح اليشمك من على وجهها، فرفعته في سرعة، وتطلعت إلى الشيخ، الذي كان قد وضع عينيه في حجره، فحاول أن يهدئ من روعها:

- لا تأخذي ما سمعتيه على محمل الجد، فهذه المرأة طالما قالت كلامًا لا أصل له، ولم يتحقق منه شيء.

وخرجت «زينة» من عند الشيخ «الخضيري» بغير ما دخلت، وتمنت لو وجدت نفسها أمام «السناري» في لمح البصر.

24

حين عاد الحصان الأبلق إلى «حسن جعيدي» وركبه، وجده يجري عائدًا إلى «القاهرة»، شدَّ لجامه كي يعيده إلى الجهة الأخرى نحو الصعيد، لكن الحصان الحرون بدا عازمًا على العودة، فلم يجد أمامه سوى الانصياع له، وهو يقول لنفسه: «ربما السحر جعله يرى
ما لا أرى».

وقاده الحصان إلى خيام الشيخ «مبروك» المنتمي إلىقبيلة «الحوتة» فأقسم على أن يبقى معه ليلة ضيفًا حين عرف أنه يسعى وراء «السناري»، وقال له:

ـ له عليَّ فضل عظيم، فقد فكَّ سحرًا أسود كاد أن يجعل ابني يُجن ويضيع مني إلى الأبد.

عرف من «مبروك» أن «مراد بك» انتقل من الصعيد إلى «البحيرة» عبر الصحراء، وأن ساري عسكر قد أرسل له ليصالحه، وأن الأيام المقبلة ستشهد اختلافًا شديدًا، وأن كثيرًا من المماليك سيعودون إلى المحروسة.

قال له الشيخ مبروك بعد أن قدَّم إليه صحنًا مملوءًا بالتمر وقهوة سوداء كالليل، وجعله يسحب أنفاسًا من الجوزة بعد تمنُّعه:

ـ نحن مَن ننقل رسائل «مراد بك» إلى الإنجليز وأمراء المماليك، يسلمها بدوي إلى آخر عبر الصحراء حتى تصل إلى صاحبها، دون علم أحد، ولهذا فأخباره معنا، وقد سمعت أن «بونابرته» أرسل إليه قنصل النمسا في مصر، واسمه «كارلو روستي» ليفاوضه على أن يتركه الفرنسيس يحكم الأرض من شلال «أسوان» حتى «جرجا»، على أن يكون تابعًا لفرنسا، ويجمع لها الخراج.

وشفط رشفة طويلة من فنجان القهوة، وقال:

ـ نحن هنا طلقاء كالطيور، لا يملك الفرنسيس ولا المماليك أو الأتراك علينا شيئًا، يحتاجوننا ولا نحتاجهم. سمعنا أن الفرنسيس طلبوا من البلاد قمحًا وشعيرًا وفولًا وتبنًا وخيولًا وجمالًا، وأنهم طلبوا من كل إقليم ألف فرس وألف جمل. و«مراد بك» جمع من الصعيد أغنامًا وخيولًا وميرة، (10) والترك عادوا يطلبون من الفرنسيس أن يسمحوا لهم بأن يأخذوا من مصر الجباية التي كانوا يتحصلون عليها. الكل يحلب في الفلاحين والصُنَّاع، لكن ليس لدى العربان سوى الرمل، ونوقنا وغنمنا وخيولنا لا تبقى ليلة في مكان واحد، ولهذا ليس بوسع أحد أن يطلب منَّا أي شيء سوى أن نكون عيونه ورسله مقابل الأمان.

ونظر طويلًا إلى «حسن» الذي كان يُنصت بإمعان، وعيناه ذاهبتان إلى الأفق البعيد، وسأله:

ـ ما شغلتك يا ولدي؟

ـ مدابغي.

ابتسم وقال له:

ـ لديَّ جلد ناقة ذبحناها بالأمس سأهديه لك.. كُسرت ساقها قبل شهرين، حين انحشرت في حفرة بصخرة عالية، وأخرجناها بصعوبة. جبرناها ولم يفلح التجبير، وظلت راقدة في مكانها بلا حراك، فأردنا أن نريحها من عذابها.

أمسك «حسن» الجلد في يده، واستعاد اللحظات التي كان يرش فيها ماء النار علي الجلود لينزع

عنها الشعر، ثم يجهزها بالملح وحبوب القرض، ليأخذها زميله الذي يتولى صبغها، مستخدمًا الرمان وخشب البكم الملون والقرمزية والجاز وسلفات الحديد، ليعطيها اللون الذي يريد، وبعدها تُترك في الشمس لتجف.

قلب الجلديمنة ويسرة، وقال في نفسه: «سأنظفه بنفسي في عناية تامة، وأزركشه بألوان عدة،أو أذهب به إلى أحد المطرزين فيوشيه بالفضة وحجر كريم، وأهديه إلى زينة».

دسَّ الشيخ «مبروك» الجلد في جوال، ووضعه على الفرس، ثم ودع «حسن» بحرارة، وكان آخر ما قاله له:

ـ إذا قابلت «إبراهيم كتخدا السناري» فسلم لي عليه كثير السلام.

وسار «حسن» ممتطيًا الأبلق حتى خرج بعيدًا عن الخيام، ثم ضرب قدميه على بطن الحصان، فراح يسابق الريح.

حين رأى الأهرام الثلاثة عرف أنه قد دخل إلى زمام «المحروسة»، وعندها اندفع داخله أسى شديد، وهو يشعر أنه قد خيَّب ظن «زينة» فيه، في أول مهمة كلفته بها. وفكر لو رمح سريعًا، ليصل إليها قبل أن ترى «السناري»، ويزف لها البشرى، متمنيًا ألا تكون قد عرفت بخبر صلح «مراد بك» مع ساري عسكر الجديد.

وضرب جنبي الحصان بقدميه، وصرخ فيه: «هيا أيها الأبلق»، لكنه لم يسرع الخطى، فعادت إليه الخيبة، ولم تفارقه حتى نزل به إلى المركب عابرًا من «الجيزة» إلى الشاطئ الشرقي حيث تقع «الناصرية» التي يقصدها.

ووصلها قبل غروب الشمس، ودخل حارة «موسى جاويش» وهو يربط على قلبه المرتجف تجشمًا للقاء «زينة» بخيبته. وما إن لمح باب البيت حتى رأى لوحات ملونة مسنودة على الجدران، واقتحمت أنفه روائح غريبة، وتناهى إلى سمعه رطن الفرنسيس.

داخله خوف وجفل الحصان، فترجَّل ومشى بحذر حتى وقف على الباب، فخرج له حراس فرنسيس، وتطلعوا إليه في ارتياب، ولما لمحوا طرف الخنجر بعد أن انزاحت عنه ملابسه قليلًا أثناء نزوله من فوق ظهر الأبلق، وضعوا البنادق في صدره ورأسه، وصرخوا فيه:

ـ مَن أنت؟ وماذا تريد؟

لم يفهم شيئًا مما قالوه، لكن أحد الخدم الذين بقوا معهم، جرى نحوه لينقذه من أيديهم. وقف أمامه وقال:

ـ هذا قريب سكان البيت الأصليين، وكان على سفر.

أبعدوا فوهات البنادق، وقالوا للخادم:

ـ قل له أن يذهب إليهم هناك حيث ذهبوا.

فهمس في أذنه سائلًا:

ـ هل وصلت إلى البك؟

هزَّ رأسه بالنفي دون أن ينطق. وقال له الخادم:

ـ سأخبرك بعنوان آل السناري الجديد، وعليك أن تذهب إليهم لتطمئنهم.

ورمى بصره فوجد رسامًا جالسًا أمام لوحة عريضة يضرب بفرشاته عل صفحتها، ثم يبعد رأسه

قليلًا ليرى ما فعل ويبتسم.

التفت خلفه فرأى «حسن جعيدي»، اتسعت عيناه، وهرول نحو الباب، ووقف أمام «حسن» وراح يتفرَّس في ملامحه، ثم مدَّ يده وقبض على كتفه، وصرخ:

ـ أنت مَن أبحث عنه.

سرت رعدة في أوصال «حسن» مع أنه لم يفهم شيئًا مما سمعه للتو، لكن أصابع الرسام التي قبضت على لحمه، رغم أن رداءه سميك، جعلته يعتقد أن الرجل الذي يصرخ في وجهه يريد به شرًّا.

جرى المترجم إليهما، ووقف بينهما، ومدَّ يمناه ورفع أصابع الرسام، الذي كان لا يزال فاغرًا فاه، من على كتف «حسن»، وقال وهو يبتسم:

ـ الرسام «ريجو« يريد أن يرسم لوحة لك، وسيعلقها في مجلس ساري عسكر «بونابرته».

نظر «حسن» في وجه الرسام مندهشًا، وقال وهو يمد بصره نحو اللوحات المرصوصة على الجدار الحجري المتين:

ـ بدلًا من أن يرسم، فليعطني واحدة من هذه.. تعجبني صورة الفلاح وخلفه بهائمه وغيطه، إنها تسحرني.

ازدادت ابتسامة المترجم اتساعًا، وقال وهو ينظر عميقًا في عيني «حسن»:

ـ يريد أن يرسم صورتك أنت.

قهقه، وضرب جبهته بيده، وسخر في نفسه من «ريجو« والمترجم والفرنسيس جميعًا، لكن سرعان ما برقت في رأسه فكرة، فجعلته يغير رأيه في صمت، ثم يومئ برأسه موافقًا. فما عرضه الرسام أتاح له دخول عمق البيت الذي لم يرَ منه سوى أوله، بيت سكنته مَن يهواها، وعاشت بين جدرانه أربع سنين، وطالما تخيلها في صحوها ومنامها، وهي تسعى في فنائه أو تسكب على رأسها الماء في حمَّاماته، وكان بدنه يقشعر حين يمر طيفها عارية في سرير «السناري» ويمتزج بياضها بسواده.

نظر إلى المترجم وسأله:

ـ أين يرسمني؟

ـ هنا في الفناء.

كان الفناء مملوءًا بصور آدميين، بدوا لـ «حسن» بشرًا من لحم ودم، كادوا ينطقون، ويمدون أياديهم ليصافحوه، وكانت صور مشايخ وأعيان، وأخرى لحيوانات وحشرات، وأسماك وحيتان.

دفع «حسن» قدميه ودخل «بيت السناري». تجاوز العتبة الأولى ومكان الإسطبل الذي دخله لمرة واحدة، وأصبح في منتصف الفناء، والرسام يجري وراءه، ويصيح:

ـ توقف لأرسمك.

توقف واستدار واقترب منه، وقال للمترجم:

ـ لن أجعله يرسمني قبل أن يُلبِّي لي طلبًا.

ـ أتريد ريالات مقابل رسمك؟

ـ لا، بل أريد أن أرى كل بقعة في هذا البيت، الأفنية، والغرف والحمامات، التختبوش والحرملك، والحواصل، ومكان الطبيخ ونوم الخدم، والحديقة الخلفية، فالناس على المقهى يتكلمون عنه كثيرًا،

وينسجون حوله الأساطير، يكاد الراوي أن يحكيها مثل حكايات الأقدمين التي يرويها على أسماع الجالسين.

قهقه «ريجو»:

ـ هذا فقط؟ بسيطة أيها المجنون.

وأخذه من يده، ومعهما المترجم، وراح يشرح له كل شيء في البيت. فلما وصلوا إلى الحرملك، وقال له: «هذا السرير طالما لاعب عليه رجل واحد نساء كثيرات»، انقبض قلب «حسن» وشعر أن ساقيه تخوران تحت ثقل روحه، وقال في نفسه: «إنه الكابوس الذي ظل يطاردني وأنا أجلس على المقهى وأرنو إلى هذا البيت، ولا يتركني حتى حين أترك الناصرية وأعود إلى الزقاق الذي دقَّ على أرضيته قدما المحبوبة».

ورأى «حسن» أرففًا عليها كتب مجلدة، وشاهد ثلاث رجال يجلسون فوق مقاعد، ويضعون الكتب على طاولات أمامهم ويقلبونها. كان من بينهم رجل ناداه الرسام فور أن رآه: «بون سوار مسيو جبرتي»، فابتسم وردَّ عليه في هدوء: «مساء النور والخيرات»، وعاد إلى الصفحات يقلبها في صمت.

نزلوا من الدهليز، ومروا فوق الخبيئة دون أن يعرفوا عنها شيئًا، فلما عادوا إلى الفناء، قال «ريجو» وهو يشير إلى «حسن»:

ـ اجلس على هذا المقعد لأرسمك.

ثم تلفت حوله، وقال:

ـ لا، الكرسي لن يكون مناسبًا، سأجعلك تجلس فوق هذا الحجر العريض، وتضع ذراعيك فوق ركبتيك، وتنظر إلى السماء، وأنت تبتسم. هذه ستكون لوحة رائعة.

صهل الحصان الواقف في الخارج، ولجامه في يد الخادم، فقال «حسن»:

ـ توجد مهمة يجب أن أقوم بها، وبعدها سأكون جاهزًا للرسم أي مدة تريدها.

وخرج ليهمس في أذن الخادم:

ـ هل تذكرني بالمكان الذي انتقلت إليه أسرة «السناري»؟

ووصف له العنوان من جديد، فانشرح صدره إلى لقاء الحبيبة، لكنه انقبض إلى فشله في تحقيق ما أرادته منه.

صافح «ريجو» والمترجم، وألقى نظرة شاملة على البيت، وخرج من حارة «موسى جاويش»، وهو يتنهد بعمق، وعيناه تطفران دمعتين ساخنتين، مسحهما بطرف كُمِّه، ومضى في طريقه.

(10) أموال أميرية تفرض كضرائب أو جباية.

25

دخل «إبراهيم السناري» المحروسة خلسة، وفي رأسه أن يقف على الأحوال، ويلتقي سرًّا ببعض مشايخ الأزهر، وشيوخ الطوائف الحرفية، وكبار التجار، وهم من وصل إليه أنهم يعدون العدة للانتقاض ضد الفرنسيس.

ركب النيل من الصعيد ونزل عند «حلوان» واشترى حمارًا وخُرجين ملأهما بالبصل الأخضر والفجل، وتقدم في الشوارع حتى وصل إلى بيت الشيخ «الخضيري»، طرق الباب، وجاءه صوت زوجة الشيخ سائلًا:

- من بالباب؟

ردَّ عليها بلهجة قروية متقنة:

- غريب يبيع الخضار.

سحبت اليشمك على وجهها، وفتحت وتطلعت إلى هيئته، والحمار الواقف خلفه بحمولته، وأوراق البصل والفجل اليانعة تملأ عيون العابرين، وسألته:

- ألك حاجة؟

- نعم، أريد الشيخ «الخضيري».

سمع الشيخ اسمه، فجاء وماء الوضوء يقطر من لحيته. وقف أمام الرجل الغريب برهة، ثم صاح: «أهلًا وسهلًا، ما كل هذا النور؟»، وأخذه من يده إلى مندرة الضيوف، ثم عاد وربط رسن الحمار في وتد أمام الدار، ودخل وأغلق الباب بإحكام، وطلب من زوجته إعداد فنجانين من القهوة، فذهبت وتركتهما، ليهمس «السناري» في أذن الشيخ:

- هل من جديد؟

انتفض «الخضيري» من مكانه، وأغلق النافذة، وعاد ليجيبه بصوت خفيض:

- الناس ضجت من ظلم الفرنسيس، وقد ينفجرون في وجههم من جديد.

- ولهذا جئت، لأستطلع الأمر، وأعود بأخبار سارة إلى «مراد بك».

طوح «الخضيري» يده في الهواء ضجرًا، وقال وهو ينفخ:

- مشكلة «مراد» وأمثاله أنهم ينتظرون دومًا أن نفعل لهم ما يجب عليهم فعله.. يغضب أهل البلد، ويموتون بمدافع الفرنسيس وقنبرهم، من أجل أن يفتحوا الطريق له، ليأتي إلى المحروسة، ويحكمهم من جديد.

لم يعجب هذا القول «السناري» وردَّ على الشيخ:

- هذا الكلام يقوله غيرك. لا تنسَ أن أمراء المماليك مسلمون مثلك، أما الفرنسيس فنصارى غرباء عنَّا، كما أن نصارى بلدنا لا يحبونهم؛ لأنهم من طائفة غير طائفتهم، ودعك من الخائن «يعقوب».

- كبيرهم يلاين الناس، ويحترم شعائرهم.

- إنه يجارينا حتى يتمكن منا، ثم سيفعل بنا الأفاعيل.

ثم اقترب السناري من أذن «الخضيري» وقال:

ـ هل سمعت أنه سيعود إلى بلاده؟

سرت فرحة في وجه الشيخ، وأجاب:

ـ لا، لم أسمع بهذا.

ـ هو سيعود، وصلتنا أخبار بأنهم أرسلوا له، وسيترك الفرنسيس لحاكم «دمياط»، اسمه «كليبر»، وهو رجل متعجرف، لا يملك دهاء «بونابرته» وحكمته.

وصمت برهة ثم واصل:

ـ «مراد بك» يتوقع أن يغضب الناس لما سيفعله بهم ساري عسكر الجديد، والأتراك سيجهزون جيشًا، وقد أرسلوا جواسيس من «إسلامبول» لتهييج أهل البلد.

وجاءت زوجة الشيخ بالقهوة، ووضعتها أمامها، ثم انسحبت في صمت، فعاد «السناري» يقول:

ـ أخذوا بيتي الذي أنفقت أموالًا طائلة في بنائه، وبقية أموالي مخبأة، ويأكلني القلق من أن تكون قد وقعت في أيديهم.

ضرب الشيخ بأطراف أصابعه على ركبة «السناري»، وقال له:

ـ لا تقلق، الخبيئة في مكانها، لم يصلوا إليها.

ابتهج «السناري» وسأل الشيخ في لهفة:

ـ كيف عرفت؟

ـ أنا أذهب إلى هناك.

ـ ويسمحون لك؟

ـ وضعوا في بيتك مكتبة وأذهب بحجة الإطلاع، وأمر من الدهليز، وأقف على الخبيئة برهة، ثم أمضي.

ـ إياك أن تلفت انتباههم.

ـ لا تخشَ شيئًا، سكان البيت علماء وفنانون، مهتمون بأمور أخرى غير المال.

ـ قد يقع مالي في أيديهم صدفة، وإن كانوا هم غير مهتمين به، فساري عسكر وقادة جيشه ليس لهم انشغال إلا بجمع المال، وإن أفرطوا في الحديث عما يسمونها «الحضارة» التي صدعوا بها رؤوسنا.

سحب «الخضيري» آخر رشفة من فنجانه، بينما راح «السناري» يدخل في الموضوع الذي جاء من أجله:

ـ أريد أن تجمع لي ليلًا مَن سأخبرك بأسمائهم، وليكن الأمر سرًّا بيننا، ولا تخشَ شيئًا، فهؤلاء موثوق بهم، وسيكون لهم شأن كبير بعد خروج الفرنسيس مهزومين.

لاذ «الخضيري» بالصمت، منصتًا إلى وجيب قلبه الذي ارتفع بما لم يعهده من قبل، وحاول أن ينشغل بخيوط القهوة التي ظهرت في الفنجان بلا جدوى، وأراد «السناري» أن يشجعه فقال له:

ـ لن ينسى «مراد بك» لك ما ستفعله، سأخبره بكل شيء، وحين يعود الأمر له سيكافئ كل المخلصين.

تطلع «الخضيري» إلى النافذة حيث اقتحمها صوت امرأة تقول: «الحقوا الحمار يأكل البصل»، لم يهتم أيهما بما سمع، لكن المرأة طرقت الباب، فقاما وأخذ «الخضيري» يد «السناري» إلى غرفة داخلية لا نوافد لها، ثم خرج وأنزل الحمولة من فوق ظهر الحمار، وسحبها إلى داخل البيت، وشكر المرأة، التي عادت تسأله:

ـ لمَن هذا البصل والفجل؟

غاظه سؤالها، لكن كان لا بد له من أن يجاريها:

ـ لبائع أعرفه تركها هنا، وذهب ليشتري حلوى لأولاده وسيعود.

نظرت نحو البصل وسألت الشيخ:

ـ هل يمكنني شراء حزمتين؟

مدَّ يده وسحب ربطة بصل كبيرة، ورفعها إليها، وقال:

ـ هذه هدية مني لك، وسأدفع أنا ثمنها.

ابتسمت في امتنان، وقالت:

ـ طول عمرك كريم يا مولانا.

وأغلق الباب وراءها وعاد، ليجد «السناري» واقفًا في منتصف الغرفة، يعدل طاقية الصوف التي كبسها فوق رأسه، ويقول:

ـ علمت أن أسرتي ذهبت إلى بيتي القديم في «بولاق»، سأنتظر حلول الظلام، وأذهب إلى هناك مع حماري وحمولته، حتى أعبر النيل دون أن يرتاب الفرنسيس في أمري.

وقبيل العشاء تحرك وحماره حتى وصل إلى النهر، وقبل أن ينزل المركب أوقفه جنديان فرنسيان سكيران، وشد أحدهما لحيته، حتى خرج شعر كثيف بين أظافره، ثم غمزه بقسوة في كتفه، وضرب الحمار في بطنه، فانتاب «السناري» خوف شديد، وظن أن أمره قد انكشف، وأن هذين الجنديين يتبعانه للإمساك به، لكن أحدهما صرخ فيه:

ـ لا بد أن تدفع على بصلك وفجلك حتى نسمح لك بعبور النهر.

دسَّ يده في جيبه، وهو يشعر بالارتياح، وأخرج ريالات فرنسية وقدمها إليهما، فخطفاها منه، ومضيا يترنحان، ثم غاصا في الظلام.

عبر ودخل إلى ساحة وسيعة تحيطها بيوت واطئة من ثلاث جهات. لم تكن على حالها الذي تركه عليها قبل سنين، جدران مهدمة، وكيمان من القمامة، وروائح عفنة تغمر كلابًا وقططًا تمرق في العتمة، وهي مستغرقة في نباح ومواء، وتعجب كيف نسيها الفرنسيس فيما يفعلونه من أجل تنظيف الحواري.

تاه منه الشارع الذي سيدخله، ولم يجد أحدًا يسأله، فاعتمد على ما تبقى في ذاكرته، ومشى حتى وصل الحارة، المسربلة بنور شحيح لقنديلين يرتعش ضوؤهما في نسائم هبَّت فجأة.

قابله سقَّاء عائد وعلى كتفيه قرب فارغة وألقى عليه السلام، وظل واقفًا يتابعه في عجب حتى غاب عنه بين الجدران المنحنية، وغطاه جذع شجرة جميز لم يقطعها حين اشترى بيته.

طرق الباب ثلاثًا، وما إن فتح الحارس حتى صرخ: «سيدي إبراهي-...». ولم يكمل الاسم لأن كف «السناري» العريضة انطبعت على فمه فأغلقته تمامًا، وقال له من بين أسنانه: «اكتم يا بجم»، ثم

سحبه خلفه، وأغلق الباب، وأوصاه:

- لا أريد هرجًا ولا مرجًا بين الحريم والأولاد، اذهب لتنادي «زينة»، وقل لها إن ضيفًا غريبًا ينتظرك، وإياك أن تخبر واحدة من زوجاتي بوصولي.

جرى نحو السلم، ونادى الخادمة، وطلب منها أن تبلغ «زينة»، دون أن يسمعها أحد، أن هناك مَن ينتظرها، فذهبت إلى حيث أراد. ولم تمضِ دقائق حتى كانت «زينة» قد ظهرت، بينما كان «السناري» واقفًا في بقعة ظلام، يرى نفسه ولا يراه أحد غير الحارس.

وفجأة خرج لها من الظلام إلى النور، فألجمتها المفاجأة برهة، ثم صاحت: «حبيبي»، فأخذها بين ذراعيه، وضمها إلى صدره بقوة ممزوجة بحنان ولهفة، وهو يتنهد في حرقة، وهي كذلك، حتى سقطت من عينيها دموع ساخنة على كتفه، فخلعها من بين ذراعيه، وقال لها:

- لا يروق لي أن أرى في عينيك كل هذا الحزن ونحن في لقيا بعد فراق طويل.

داست على زنديه اليابسين، وقالت:

- أعطتنا الدنيا ظهرها بعد غيابك، وحاجتي إليك تفوق تحملي.

زفر في ألم، وكفكف دموعها، وحاول أن يخفف من لوعتها:

- كل شيء سيعود كما كان، وعما قريب.

رفعت كفيها إلى السماء:

- سامع وقادر وكريم.

نظر إلى أعلى حيث الردهة المؤدية إلى غرف الحريم، والتي يحجبها عن الفناء جدار سميك، ومشربيات متتابعة، موضوع أمام كل منها قنديل. ثم هبط بناظريه إلى وجه «زينة» وقال لها:

- أبلغيهم أنني سأصعد لأرى الأولاد، لكن لا أريد من أحد فرحًا ولا هرجًا، فهذه المرة أتيت خلسة، وسأمشي خلسة، وفي سرعة، حتى لا يشعر بي أحد.

ضايقها كلامه الأخير، ومضت صامتة وهي تردد في نفسها: «جاء خلسة ليجلس مع أولاده، وسيعود سريعًا»، ثم تحسست صدرها، وهي ترفع قدميها على الدرجات الحجرية الصلدة، وتأوهت في ألم، ولم تجد سلوى غير في ذكرى ملأت رأسها لأيامها الخوالي، حين كانا يذوبان معًا، وينسيان الزمن.

التفت «السناري» إلى الخلف فوجد الحارس منكمشًا إلى جانب الجدار، ورأسه مصلوب نحو قطعة من السماء منقوشة بنجوم زاهية، أشار إليه بطرف إصبعه، فأتى مسرعًا. همس في أذنه: «أدخل الحمار، وأنزل الحمولة ليستريح قليلاً». توجه الحارس إلى الباب على الفور، لكنه ناداه آمرًا من جديد: «افعل هذا بعد أن أصعد إلى حريمي».

ولمح رؤوس الحريم تطل من المشربيات، وشظايا ظلهم تتكسر على الجدار وجزء من الأرضية المفروشة بحجر صوان. واحدة منهن مدت أصابعها من بين فتحات المشربية، وراحت تلوح له في فرح. غمغم، ودفع قدميه إلى السلم، وهو يقول: «ليس لغبائهن حد».

تجمعن حوله، تطالعن اصفرار وجهه أكثر في النور الشاحب، وترمقن شعر لحيته وفوديه الذي اشتعل شيبًا. وجرى أصغر أطفاله، ووضع رأسه على حجره بإيعاز من أمه التي همست في أذنيه: «روح لأبيك»، وراح يدعك أنفه في ملابسه.

كان «السناري» حزينًا، يداري خوفًا عارمًا يهز أعماقه، وكن ملهوفات عليه، لكن خيبة الرجاء مما هو فيه غطت على أي لهفة أو شوق.

«أهذا هو البك الأجَّل، الذي كانت المحروسة كلها تنتظر إشارة منه، ويجري أمام دوكاره وخلفه وعلى جانبيه خدم وحراس، وتهتز لسماع اسمه قلوب وشوارب».

سألت زوجته الكبرى نفسها وهي تغرس عينيها في وجهه الضامر، ثم قالت:

- يبدو أن الكرب هناك كان عظيمًا.

أومأ برأسه مؤَّمِنا على كلامها، وقال:

– الفرنسيس يلاحقوننا في الصعيد من بلد إلى بلد، وحتى حين تركنا الوادي ولذنا بالجبل نحو البحر المالح، صعدوا خلفنا إلى الساحل..
لا أمل لنا إلا في أن يغضب أولاد البلد، ويخرجون من شقوقهم ولا يعودون إلا بعد رحيل الفرنسيس، أو أن يجبرهم الإنجليز على هذا.

وأدركت «زينة» من حديثه أن الرسالة لم تصله، فقالت له أملًا في أن تخفف عنه بعض كربه:

- الفرنسيس أرسلوا لك رسالة مع رجل مغربي، وهم يزحفون نحو المحروسة، طلبوا فيها أن تتعاون معهم، وأن تجعل كلمتك المسموعة في خدمتهم، مقابل أن يحفظوا لك مالك وبيتك وكل نصيبك في الحكم.

نظر إليها باندهاش:

- رسالة! أي رسالة؟!.. أين هي؟!

- ذهبت بنفسي إلى قصر «مراد بك» وحاولت أن أصل إليك قبل خروجك معه إلى معركة «إمبابة» فلما أخفقت، أرسلت خلفك «حسن جعيدي».. هو شاب طيب، وجار قديم، أعتبره أخي.

ونظرت إلى النسوة اللاتي ازدادت عيونهن اتساعًا من الغيظ، وواصلت وهي مضطرة إلى الكذب:

- هو فعلًا أخي في الرضاعة، ووعدني أن يلحق بك في «الفيوم» ويسلم الرسالة لك، لكن لا أدري ما جرى له.

انقلب ما أرادته طمأنينة إلى مزيد من الخوف، وقال لها في فزع:

- أخشى أن تقع هذه الرسالة في يد أحد، ويسلمها إلى «مراد بك» فتكون الطامة الكبرى.

- لو كان الأمر كذلك لكانت الرسالة قد وصلته، وحتى لو جرى هذا، فالأمر الآن في يد الفرنسيس وليس في يده.

هز «السناري» إصبعه رافضًا ما سمعه، وقال لها:

- رسالة الفرنسيس خدعة ومرت بسلام، وأنا لا يمكنني أن أكون لهم مثل «يعقوب» القبطي.. هذا مستحيل، ولا أعتقد أن عاقلًا يربط مصيره بالراحلين.

وقرأ في عيونهن حيرة مما يقوله، فشرح لهم على مهل:

- ساري عسكر الكبير سيرحل بعد ساعات، ومن يخلفه ليس مثله، وعيوننا من البدو حملوا لنا رسالة من الإنجليز الذين يقفون بأساطيلهم في البحر المحيط (11) ، تؤكد أنه ذاهب بلا رجعة، وبعده ستصير أيام الفرنسيس في مصر معدودة.

صرخت الزوجة الصغرى:

- ربنا يسمع منك.

ضايقه صياحها، لكنه تجاهله، وتطلع إلى «زينة» وهي تقول:

- لعنة الله عليهم، يطاردونك في البلاد البعيدة، وأخذوا بيتك الكبير، وخيولك العربية الأصيلة.

نظرت إليها الزوجة الكبرى في غيظ، ووجدت أن الفرصة سنحت أمامها لتدس لها، فسألتها مستنكرة:

- أيخرج هذا الكلام من قلبك يا عشيقة الفرنساوي؟

نزل الكلام كالصاعقة على رأس «السناري»، ورفع عينيه إلى «زينة» التي ألجمتها الإهانة، فانتفضت واقفة على أطراف أصابعها، وصرخت فيها:

- قطع الله لسانك، لا ترميني بالباطل.

ومالت على يد «السناري» وجذبته برفق وهي تقول:

- لديَّ ما أقوله لك، لا يجب أن تسمعه أي منهن.

نظر إلى حريمه اللاتي استغربن صمته وسكونه، وقام معها إلى غرفة جانبية، وهناك قالت له:

- ضابط فرنساوي مجنون، يراني شبيهة محبوبته التي ماتت، ويأتي إلى هنا، لكنه لم يمس طرف ثوبي، وأستعمله في جمع أخبار عنك، وقد أجعله يصطحبني ذات يوم إلى بيتنا الذي أخرجونا منه، لأطمئن على خبيئتك، التي استأمنتني عليها.

نظر في عينيها صامتًا، وهو يقاوم دموعًا تريد أن تجري، فرمت نفسها في حضنه، وقالت وهي تدوس بلطف على ظهره:

- لا تخف عليَّ، لن أكون إلا لك، ولن يستطيع هذا المغرور أن يمس طرف إصبعي.

تنهد فلفحت أنفاسه الحارة عنقها، وأيقظت اشتهاءها له، لكنه كان غائبًا في أوجاعه وعجزه، الذي عبر عنه بصوت مخنوق:

- يضنيني أن تدنس الكلاب شرفي.

طوقت ظهره كاملًا بذراعيها، وقالت:

- شرفك مصان، ورأسك سيظل مرفوعًا.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم ألقى جسمه على أريكة مسنودة إلى الجدار، ورفع رأسه ليرى نجمات زاهيات تتراقص في كوة علوية، وقال:

- الليل رمح، لا بد لي أن أذهب.

شعرب بخيبة أمل، وسألته بصوت متهدج:

- أليس من الممكن أن تبيت معنا الليلة؟

- صعب أن أبيت هنا، وحتى في المحروسة كلها.

- لمَ؟ ألم تأت إلينا متخفيًا؟ سيظل وجودك هنا مستورًا، وليلة واحدة لن تقلب الدنيا.

ـ جئت إلى المحروسة لمهمة لم أنهض بها إلى الآن، ولا بد أن يطلع الفجر ليجدني قد أخذت طريقي إلى الصعيد.

وكما دخل خرج وخلفه حماره، ليعبر النهر في الاتجاه الشرقي، ويصل خفية إلى بيت «الخضيري»، حيث كان ينتظره من طلبهم.

قال لهم في صراحة تامة، بعد أن احتدم النقاش، حول ما يجب أن يفعله المماليك:

ـ القوة في يد ساكني الشقوق، هؤلاء حين يملأون الشوارع لن يستطيع أحد صدهم ولا ردهم. إنهم مارد جبار، طالما كنا نخشاه ونحن في الحكم، دون أن نعلن هذا، وطالما عملنا على أن نشتت هذا الجمع، والآن إن وحدناه سيكون المطرقة الضخمة التي تنزل على رؤوس الفرنسيس فيفقدون صوابهم، ولا يجدون بدّا من الرحيل.

ردَّ شيخ طائفة الحدادين:

ـ هؤلاء خرجوا في هبة جارفة قبل شهور، فما نابهم غير أن لطخت دماؤهم كل الأزقة والحواري والعطوف، وهدمت شقوقهم فوق رؤوسهم، وشردوا، وآلاف منهم أصابتهم عاهات ستلازمهم طيلة حياتهم.

وقال أحد شيوخ الأزهر:

ـ وما يضمن لهؤلاء إن ضحوا ونزلوا غاضبين عن بكرة أبيهم وأطاحوا بالفرنسيس ألا يأتي بكوات المماليك ليستعبدوهم من جديد؟

تنحنح «السناري» وأجاب:

ـ أعتقد أننا تعلمنا الدرس، وأعدكم بأن الآتي سيكون مختلفًا تمامًا عما ذهب.

وسأله أحد الوراقين:

ـ سيخرج العموم من شقوقهم، لكنهم يأملون أن تكون معهم، في وسطهم، إن لم تقودوهم.

هز «السناري» رأسه وابتسم وقال:

ـ ما يخصني أنا، أعدكم أن أكون هنا.

(11) كان هذا هو الاسم الذي يطلقه المصريون على «البحر المتوسط» في تلك الآونة.

26

خرج «حسن جعيدي» من بيت السناري ورأسه مشغول بما ستقوله له «زينة» حين يعود إليها خالي الوفاض، حتى أنه نسي أن يقفز فوق الحصان، ومشى يجره، ويجر قدميه معه حتى وصل إلى المقهى.

كان المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه خاليًا، فجرفه حنين إلى الأيام التي جلس فيها ساعات يطالع «بيت السناري» مجذوبًا بكل كيانه إلى «زينة» وهي لا تدري. ورآه النادل، فهرع إليه، وعانقه، وقال:

ـ غبت عنا طويلًا، أكنت على سفر؟

هز رأسه إلى أسفل، وربط الحصان إلى شجرة أمام المقهى، وجلس على مقعده، وذهب النادل ليعد له القهوة، وحين عاد بها فوجئ بـ «حسن» يطلب نارجيلة، فقال له وهو يضحك: «يبدو أنها كانت رحلة مزاج».

تمتم بما لم يسمعه أحد: «جوزة الشيخ مبروك علَّمت في رأسي، وما جرى قد جرى»، وراح يسحب أنفاسًا سوداء، وينفخها في اتجاه «بيت السناري» شاردًا في وجعه الذي كان ويكون، وأخذ شروده منه وقتًا لم يحسبه، ووقتًا آخر أنصت فيه لصوت الراوي وهو يحكي عما جرى لـ «قنصوة الغوري» حين خذله أمراء المماليك بعساكرهم، فخرج معه الحرافيش والذعر في جيش غريب لملاقاة الغزاة الترك.

وبعد أن انتهى من التدخين والسماع، ركب حصانه ومضى إلى «بولاق»، تتابع عيناه وقع نقر حصانه في وجوه الرجال الجالسين على المصاطب وأمام البيوت والواقفين على نواصي الشوارع وفوهات الحارات.

وحين أنزله المركب على الشط الغربي، لمح قرويًا وجهه ذائب في الليل، يمسك لجام حمار سمين، فوق ظهره خرجين مملوئين بالبصل والفجل، ورائحتهما الخفيفة تختلطان وتهجمان على أنوف النازلين والطالعين.

وجفل الحصان الأبلق ومشى نحو هذا القروي الغريب، الذي مد كفيه أمام وجه الحصان، وتمتم بكلمات، فابتعد عنه، لكن الرجل لم يرفع عينيه من على الأبلق، وبدا ما يفعله أمام «حسن» شيئًا عجيبًا.

وكاد «السناري» أن يسأل «حسن» عما إذا كان هو الذي أرسلته «زينة» في إثره، لكنه خاف افتضاح أمره، وعسكر فرنسيس يقفون، وعيونهم مفتوحة، يتابعون الذاهب والآيب في دأب، ويسجلون كل شيء في دفتر،ورجال من الأرمن يمسكون لهم قناديل حتى يروا ما يخطونه.

كان القروي متعجلًا، وحين سحب الحمار لينزله المركب، كاد يسقط منه في الماء، فهرع الناس إليه، وأسندوه في جسارة حتى استقر به المقام على متن المركب، الذي لم يلبث أن غاب في عمق الظلام.

مضى «حسن» مشغولًابما جرى لهذا القروي، بائع البصل والفجل، دون أن يعرف لذلك سببًا، لكنه عرف كل شيء حين أخبرته «زينة» بأنه كان «السناري»، بعد أن دقت على صدرها بعنف حين قال لها الحارس: «جعيدي رجع وينتظرك».

وخرجت إليه في غير لهفة، وجلست أمامه تتفرس في ملامحه التي ضمرت، ووعثاء السفر الذي

يحط على وجهه وما يرتديه، ثم لمحت الحصان الأبلق فجرت إليه، وأخذت خطمه بين ذراعيها، ثم راحت تمسد شعر رقبته، وتنظر في عينيه وإلى كفليه وساقيه، وقعدت على ركبتيها وتأكدت من أن حدواته الأربع في مكانها.

وكان «حسن» يتابع ما تفعله في غيظ وغيرة، وهو يقول لنفسه: «لم يعد الآن لديَّ وهم في أن لي في قلبها منزلة، تضاهي نصف ما لهذا الحصان».

وتنبهت هي إلى وقوفه منكسرًا، وكانت لا تزال ترى أن مهمته لم تكتمل، فعادت إليه ووقفت أمامه وبادرته:

ـ لن أنسى لك ما فعلته من أجلي.

نظر في عينيها اللتين كانتا تلمعان في الضوء الشحيح، وكتم كلامًا كثيرًا أراد قوله، واكتفى من على طرف لسانه:

ـ من أجلك يرخص الغالي يا «زينة».

اقتربت منه، وضربت يده بأطراف أصابع يدها اليمنى، وقالت:

ـ تعبك على رأسي يا جاري العزيز.

ابتسم وقال:

ـ فأل حسن، من يدري لعلي أشتري ولو غرفة فوق سطح بيت بجواركم هنا في «بولاق».

صمتت برهة، وردَّت عليه:

ـ أقصد الجيرة القديمة.

استعاد ما قالته له قبل أن ينطلق في رحلته التي انتهت إلى لا شيء، وقال:

ـ سأفعل ما تريدين، على أن يبقى وعدك قائمًا.

فهمت إلامَ يرمي، ولم يكن أمامها خيار سوى مجاراته. ووجدت أنه قد فتح الباب أمامها من جديد، فقالت:

ـ أحتاجك في مهمة أخرى.

نظر إلى الحصان الأبلق الذي كان واقفًا يهش بعوضًا عن أذنيه تزاحم عند القنديل، وقال:

ـ الرسالة لا تزال معي هنا تحت السرج، وبوسعي أن أمضي مرة أخرى خلف «السناري»، ومن يدري لعلي هذه المرة ألحق به قبل أن يركب إلى الصعيد.

ـ ليس هذه، فقد أخبرته بأمر الرسالة، وقدَّر أنها خدعة.

ـ عمومًا، أنا جاهز لأي مهمة.. حتى لو طلبت لبن العصفور سأتيك به.

ـ بل هي أقل من هذا بكثير.. أريدك أن تخلصني من شخص يضايقني، ويفرض نفسه عليَّ، وقد فعلت كل ما في وسعي من أجل تجنبه بلا جدوى.

شمخ بأنفه في الهواء وقال لها، وهو يعدل الشال على رأسه:

ـ من هذا ابن الهرمة، الذي يجرؤ على مضايقتك.

سكت برهة، ونظرت في عينيه مليًّا، ثم أطلقت دلالًا في صوتها على قدر ما وسعها، فاكتسب رخامة طاغية، وقالت:

ـ ضابط فرنساوي.

أسقط في يده، وسمع وجيب قلبه، وذاب حماسه، لكن لم يستطع أن يبدو أمامها ضعيفًا أو غير قادر على الدفاع عنها.تحسس الخنجر الذي كان قد دفنه تحت ملابسه، حتى لا يثير ريبة أحد من الفرنسيس وهو يعبر النيل آتيًا إلى هنا، وقال لها:

ـ سآتي لك برأسه.

ضربت على صدرها، وصرخت فيه:

ـ لا أقصد هذا، إياك أن تقتله.

ـ كيف سأخلصلك منه بغير قتله؟

ـ سأكتب رسائل إلى مشايخ الأزهر ممن عينهم «بونابرته» في ديوانه، وعليك أن توصلها إليهم دون أن يدري بها أحد.

تنفس الصعداء، وغمره ارتياح، وزال عنه خوفه، وقال لها:

ـ هذه بسيطة.

رفعت سبابتها وهزتها في وجهه:

ـ ليست بسيطة، أريد ألا يعرف الضابط من كشف فعلته، لا أنا، ولا أنت، وإلا قد ينتقم منا، أو على الأقل يرفع عنا حمايته، ويتركنا نهبًا لجند الفرنسيس.

ـ ما الذي يضمن ألا يحكي المشايخ كل شيء؟

ـ هذه مهمتك.

ـ هي المرة الأولى التي أشعر بأنني لا أفهمك.

ـ فعلًا، لأننا نريد أن ننجح بلا دفع أي ثمن.

وصمتت برهة وسألته:

ـ ألك علاقة بالشيخ «جابر العيوطي»؟

ضحك وسألها على سؤالها:

ـ هل تتذكرين مثل هذا الرجل؟

مصمصت شفتيها وأجابته:

ـ لا يمكن أن أنسى من أخذني إلى الطريق التي أعيشها.. لا تزال ملامحه محفورة في رأسي، لكن على هيئته التي كان عليها.

أخبرها أن الرجل قد تقدمت به السن، فصار صوته خفيضًا، وحركته بطيئة، ولا يغادر منزله إلا قليلًا. حتى الصلاة لم يعد يؤديها في المسجد، والناس لم تأت على ذكره مثلما كان يجري من قبل.

ابتسمت وحررت الأساور التي تملأ ساعدها، بعد أن مسك بعضها ببعض، وضايقها، ثم قالت:

ـ أنت طيب، أنا أتابعه، وأعرف أنه حين يغادر منزله فإن يتنقل بين شيوخ الأزهر وقادة الفرنسيس، وينقل إليهم كل شاردة وواردة تلتقطها أذناه، أو تقع عليها عيناه.

بدا «حسن» متحيرًا، وهو يُنقِّل ذهنه بين ما يعرفه عن «العيوطي» وما يسمعه من «زينة» وأدركت هي ما هو فيه من حيرة، فقالت له:

ـ لا تشغل بالك، أنا أعرف مفتاحه.

ضحك وقال:

ـ وأنا أعرفه أيضًا.. إنه المال.

ـ رجل يبيع نفسه من أجل صرة ريالات.

ـ وهذه الصرة سأعطيها لك، وتعده إن نفذ ما نريد بصرتين أخريين مني ستصلانه حتى داره، واشترط عليه ألا يعلم الضابط «دوبريه» أنني وراء هذا، لأنه لو علم سيجبر على الابتعاد عني، لكنه قد يرسل إلينا
من يؤذينا.

كانت تخشى إن يذهب «دوبريه» معها إلى حد لا تطيقه، خاصة بعد أن لمَّح لها بأن بوسعه أن ينال منها ما يريد رغم أنفها، لكنه يراهن على رضاها في النهاية، لأنه أروع، كما قال لها.

وقبل أن ينطلق «حسن»، بعد أن أخذ منها صرة الريالات الفرنساوية، قالت له وهي تنظر بعطف شديد نحو الحصان المجهد:

ـ أدخل الحصان إلى الفناء، حتى يستريح.

خرج من «بولاق» من دون الأبلق، لكن كان في يده حبلان ممدودان إلى «زينة»، حبل يقف في منتصفه الضابط الفرنسي «دوبريه»، والآخر يطوق «بيت السناري»، وما إن وضع قدميه على عتبة الدار ليفارقها حتى تذكر ما جرى له، فعاد خطوتين إلى الوراء وقال:

ـ دخلت إلى قلب «بيت السناري»، ووصلت حتى الحرملك.

اتسعت عيناها اندهاشًا، وجرت نحوه، وجذبته من طرف كمه، فعاد معها إلى الفناء، وهو يقول:

ـ رآني رسام فرنساوي اسمه «ريجو»، فقرر أن يرسم لي صورة، فاشترطت عليه أن أرى كل بقعة في البيت قبل أن أجلس أمامه في المرسم الذي نصبه بالفناء، فاصطحبني إلى كل مكان.. كنت أرغب في أن أرى المكان الذي كنت تعيشين فيه، تأكلين وتشربين وتنامين وتستحمين.

لم تنشغل بتهدج صوته وهو يقول كلماته الأخيرة عن أحوالها في «بيت السناري» بل بما طرأ على ذهنها من حيلة لدخول البيت أيضًا، للاطمئنان على الخبيئة.

فسألته في دلال:

ـ ألا يحتاج الرسام إلى صور حريم؟

لم يفهم ما تقصده، وقال في تعجب:

ـ حريم! وهل ينكشف حريمنا على الفرنسيس الغرباء.

ضحكت من أعماقها وقالت:

ـ أنت طيب.. ألم تسمع عن بيوت الخبص التي يذهبون إليها، فيها حريم مصريات مسلمات

ونصرانيات ويهوديات.

تدفق غضب عارم إلى نفسه، وقال لها:

ـ خبص! وهل وصل الأمر إلى هذه الدرجة.

شعرت بحرج وخجل، فابتسمت في فتور وقالت:

ـ أريد دخول «بيت السناري»، وجلوسي بكامل ملابسي في الفناء أمام الرسام ليرسم وجهي، لن ينقص مني شيئًا، ولا تنسى أن الضابط «دوبريه» الذي يريدني مباشرة بأي ثمن، لم يمس طرف ثوبي ولا إصبعي الخنصر.

لم يرد، وغرق في الوجع الذي أصابه من كلامها، الذي لم يتوقعه أبدًا، ولم تدعه هي يهرب بسكوته، فعاجلته بطلب جديد:

ـ هل بوسعك أن تسأل الرسام وأنت جالس أمامه إن كان في حاجة إلى رسم امرأة مصرية؟

هز رأسه في فتور وقال:

ـ حاضر، سأفعل.

27

لم يكف الضابط الفرنساوي «دوبريه» عن الذهاب إلى «بولاق» رغم أن توزيعه الجديد جعله ضمن حراسة مركز القيادة قصر الألفي بالأزبكية، واستغرق منه ساعات طويلة، ومكّن عيون قادته من مراقبته ليل نهار. كان يختلس أوقاتًا قليلة تتاح له ويهرول إلى حيث تكون «زينة». وأحيانًا كان يتذرع بأي حجة، ويبادر بقبول مهمات مع الوحدات العسكرية المتمركزة في «بولاق»، والتي تحمي مخازن تموين الجيش.

وحين أنشأ الفرنسيس «كرنتيلة» (12) هناك لحجز القادمين من السفر إلى المحروسة أيامًا لإخضاعهم للفحص الطبي قبل السماح لهم بالدخول، طلب «دوبريه» نقله إليها، لقيادة الحامية التي تحرسها. ورغم أن قادته حذروه من الابتعاد عن الوحدات المقاتلة لأن هذا سيحط من شأنه، إلا أن تعلقه بـ«زينة» كان أكبر من أي مناصب يرتقيها داخل الجيش، فصمم على ما طلب، ولم يجدوا بدّا من الاستجابة له.

وغمرته سعادة لأنه صار بالقرب منها. وقال لها ذات مرة بعد أن ركع أمامها في ساحة البيت:

- أنا جاهز لأفعل لك أي شيء في سبيل أن ترضي عني.

ووجدتها فرصة لتصل إلى غرضها فقالت له على الفور:

- أريد أن تصلني أخبار عن «السناري».. فأنا أعرف أن جيشكم يتعقبه هو و«مراد بك»، ومن المؤكد أن لديك ما تطمئنني به.

زام من فرط الغيظ المكتوم، وتلفت حوله، ليتأكد من أن الجنود الذين اصطحبهم إلى هنا لا يسمعون طلبها، ثم قال لها:

- سوف آتي إليك بخبره، لكن ما بوسعك أن تعطيني مقابل هذا؟

تذكرت ما فعلته مع «حسن جعيدي»، الذي دفعته محبتها إلى قبول المهمة الشاقة التي تضنيه الآن، وقالت للضابط:

- أنت تعلم أن «السناري» رجل كبير في السن، ولن يعيش طويلًا، وبعده سيكون الطريق أمامك مفتوحًا لتنال ما تريده، لكن بالحلال، وطالما أن لديك استعدادًا لإعلان إسلامك فلن يكون هناك عائق.

نفخ في وجهها وندت عنه صرخة، سرعان ما ابتلعها، وقال لها وهو يدوس على أسنانه:

- كبير أم صغير، ما حاجتك إلى انتظاره؟!

ابتسمت وفتحت عينيها على اتساعهما ودفعت إليهما دفقة من التدلل، وقالت له:

- لديه ثروة طائلة، لا يعرف مكانها غيره، وإن عاد سأرث الكثير، وتمضي حياتي معك في رغد.

رقصت الفرحة داخله، لكنه تصنع الاستغناء، فقال لها:

- لا يهمني المال، إنما أنت.

فقالت له:

- قادتكم سكنوا قصور المماليك، وتركوا الضباط في بيوت ضيقة، ومثلك يستحق قصرًا.

ابتسم لها في امتنان، وقال:

- ستكون عندك أخباره بلا انقطاع، وإن شئت أن آتي به أسيرًا وأجبره على التنازل عن ثروته لك سأفعل.

انزعجت لما قاله، وشعرت أنه يضيق الخناق عليها، لكنها، كعادتها، لم تعدم طريقة للخروج من المأزق، فردَّت عليه:

- إنه شخص عنيد وأشد الناس حرصًا على المال، سيفضل الموت على تركه لكم، كما أخشى إن أُفتضح أمر ثروته أن يستولي عليها قادتكم، ولا يكون لك ولا لي نصيب فيها.

أومأ راضيًا بكلامها، ثم انصرف.

وبمرور الوقت تواطأت زوجات السناري مع مجيء الضابط الفرنسي لأنه عافاهم من التفتيش والسلب، وحماهم ذات مرة من هجوم أراذل أهل البلد من الزعر والجعيدية على بيوت الأثرياء في «بولاق»، وحتى الفتوة «شديد الحوت» رفع عنهم الإتاوة، بعد أن نهره الضابط ذات ليلة:

- هؤلاء في حمايتي، وإياك أن تقترب منهم بسوء.

وامتد الأمر إلى أن أعفاهم من تفتيش الفرنسيس على بيوت «بولاق» جميعًا، يوم أن علموا بأن عددا من الكرتيلة (13) ، الموالين لـ «مراد بك» قد اندسوا فيها، بعد أن تسللوا إلى المحروسة ليلًا.

ووجدت الزوجات في علاقة الضابط بـ «زينة» فرصة سانحة ليوغروا صدر «السناري» عليها، فعشقه لها لن يخلعه سوى أن يراها خائنة، وأهل الحارة شاهدون عليها، وسيطلبونهم حين يأتي، ويتركونهم يصبون في أذنيه كل ما رأوه أو سمعوه، وهو سيغضب لشرفه، وقد يقتلها، أو على الأقل يطردها شر طردة.

لهذا لم يجد «دوبريه» صعوبة في الطريق إلى «بيت السناري» الآخر في «بولاق»، فكان يروح ويغدو، يدخل من الباب، وتأتيه «زينة» ليجلسا في الفناء، والعيون تتلصص عليهما. وبمرور الوقت علمته أنها إن كانت تشبه «إيلين» أو هي، كما يعتقد، فإن هذا الشبه هو في الهيئة فحسب، أما هي فلا يمكنها أن تمنحه لأسباب عديدة ما كان يأخذه من عشيقته الفرنسية التي ماتت.

ورضي بأوقات سعيدة يقضيها وهو ينظر إليها في تبتل، هنا في البيت، ولم يغضبه رفضها أن تذهب معه إلى «حديقة الأزبكية» التي سورها الفرنسيس وغرسوا فيها شجرًا وورودًا لتكون متنزهًا لعشاقهم، وكان رجال الفرنسيس يجالسون فيها النساء، كما يفعلون في بلادهم.

وطلب منها غير مرة أن ينتظرها عند مركب في النيل يستأجره لها، ويقضيان وقتًا سويًّا، أو يركبا حمارين ويسيران على النيل حتى الزراعات عند «قليوب» لكنها أبت، ولم تجعله يجد سبيلًا للانفراد بها بعيدًا عن البيت، ولم يكن أمامه سوى الرضا بما حددته له.

وفي يوم أطلق «دوبريه» مفاجأة في وجه «زينة» حين قال لها:

- لك عندي خبر عظيم.

تهلل وجهها، ونظرت إليه مستطلعة، فلم يبخل عليها بنطق ما أرادت سماعه منذ زمن:

- سيعود «السناري» قريبًا.

صرخت وكادت تطير في الهواء من شدة الفرح، ولولا العيب لاحتضنت «دوبريه» للمرة الأولى،

وربما الأخيرة، في حياتها. وسألته على الفور:

ـ كيف سيعود؟

ردَّ بصوت فاتر، وهو يداري غيرة اشتعلت في نفسه:

ـ اتفق ساري عسكر «كليبر» مع «مراد بك» على تهدئة، وسيرجع مع مماليكه من مهربهم بالصعيد، بعد أن هزمناهم غير مرة، حتى حصرناهم في «قنا» وساحل البحر الأحمر.

ونظر إلى الجنود الذين اصطحبوه إلى «بولاق» ليتأكد من أن ما سيقوله لن يصل إلى أسماعهم، ونطق:

ـ أصبح ساري عسكر موقنًا من أن الأحوال لن تستتب في «القاهرة» وغيرها من الأقاليم إلا إذا أعطى كبار المماليك بعض ما كان يأخذونه من الترك، وسمعت أن «كليبر» أرسل عالم الرياضيات «فورييه» ليجس نبض «نفيسة البيضا» زوجة «مراد بك» حول صلح، وأنها راسلته ووافق، على أن يترك له الصعيد ليحكمه.

وتلفت حوله من جديد وهمس في أذنها:

ـ الصلح مع المماليك كان في حسبانه، لاسيما بعد أن وافق على أخذ الكثيرين من نصارى الروم والقليونجية، ممن كانوا مع «مراد بك»، وأدخلهم جيشنا، فلبسوا زينا، وحملوا أسلحتنا، وصاروا منا، ونعتمد عليهم، فهم يطيعون من يعطيهم ويقودهم.

ورفع وجهه إلى السماء التي تطل من مساحة غير مسقوفة في الفناء وقال:

ـ السياسة متقلبة، ولم أعد أفهمها، فقد وافق قادتنا على الأتراك بأن يجمعوا أموالًا من المصريين كما كانوا يفعلون قبل مجيئنا، ربما هناك اتفاق ما لا أعلمه، أو أن «ساري عسكر كليبر» يريد أن يثبت للمصريين أننا لسنا ضد الخلافة الإسلامية، وهذه مسألة كان يحرص عليها «بونابرته» ويرسل بشأنها رسائل إلى المصريين ونحن نزحف في الصحراء إلى «القاهرة».

هنا تذكرت «زينة» الرسالة التي كانوا قد بعثوها إلى «السناري» وقالت:

ـ أعرف هذا، فقد وصلت إلى «إبراهيم كتخدا السناري» رسالة من هؤلاء، لكنه لم يقرأها.

أصيب بخيبة أملٍ من قولها، فمن مصلحته أن يكون «السناري» متمردًا مهزومًا، حتى لو أُذن له بالعودة، فيعود ذليلًا كسيرًا، بلا مال
ولا جاه، ، وتظل رقبته طيلة الوقت مطلوبة، فيسهل التخلص منه، وبالتالي يخلوا لـ «دوبريه» الطريق إلى «زينة».

تصنع الاندهاش وسألها:

ـ أي رسالة؟

ـ رسالة مطوية، تطلب منه أن يبتعد عن «مراد بك» مقابل الأمان، وألا يسلب ماله ولا بيته، وأن يكون له موضع في إدارة البلاد، كما كان.

وظهر في أول الحارة ركب من جنود الفرنسيس يمتطون حميرًا تجري وتتزاحم في سباق رهيب، وتدوس في طريقها الصغار، وبعض بائعات العسلية، الجالسات إلى جانب الحوائط، وراحوا يتصايحون ويرطنون بلغتهم، والناس منهم في ذعر. ورآهم «دوبريه» فخرج إليهم، وطلب منهم العودة فعادوا.

وبعد أن اطمأن إلى ابتعادهم، عاد وقال لـ «زينة» في تبجح:

ـ سيعود رجلك الذي يقف على حافة القبر، وبوسعي أن أزيحه داخله في لمح البصر، لو وجدتك قد بعتيني لأجله.. أنا صبرت طويلًا، وتنازلت كثيرًا، وعرضت نفسي للخطر من أجلك، والآن أتعلم اللغة العربية كي أتمكن من مناجاتك منفردين، وعندي استعداد أن أعلن إسلامي لو أعطيتني إشارة إيجابية.

وبعد أن خطا نحو الباب توقف والتفت إلى الخلف فوجدها واقفة صامتة تتابعه، فنظر إليها، وقال:

ـ لديَّ أمل أن تكون قد عرفت أين تكون مصلحتك وسلامتك.. وليكن في علمك أن بوسعي أن أخطفك لو أردت.

كتمت غيظها، وانتزعت ابتسامة صفراء من أعماقها التي تغلي، ورمتها في وجهه، وانسحبت صامتة، وهي تقول في سرها: «وهل كنت قد اشتريتك حتى أبيعك؟».

وتمنت في هذه اللحظة أن يكون «جعيدي» قد وصل إلى الشيخ «العيوطي» وأن تنقطع رجل «دوبريه» عن الدبيب في الحارة، بل في «بولاق» بأسرها.

(12) حجر صحي.

(13) نسبة إلى جزيرة «كريت» في البحر الأبيض المتوسط.

28

مضت الأيام على منوال واحد إلى أن جاءت أخرى عصيبة، لم تخطر على بال «زينة» ولا «دوبريه»، ولا حتى الفرنسيس أنفسهم، الذين كانوا يعتقدون أن أهل مصر قد سلموا وخضعوا لهم، ولن يكرروا ما فعلوه في أول شتاء أعقب مجيء «بونابرته»، بعد أن ذاقوا مرارة المدافع والقنابر التي هدمت البيوت فوق رؤوسهم، وجعلت الدم يجري في الشوارع والأزقة، فامتلأت المقابر، وهجم الذباب على الوحل الأحمر.

لكن دوام الحال من المحال، فها هي البشائر التي قام «السناري» بإبلاغها لـ «زينة» تتحقق: «الأتراك لن يسكتوا، والإنجليز يتحينون الفرص، كل شيء يسير نحو رجوعي من الصعيد مظفرًا»، وهو الكلام نفسه الذي تلاه على مسامع من اجتمع معهم في بيت «الخضيري» مع تغيير بعض ألفاظه وتوسيعه إلى أقصى حد.

استيقظت «زينة» ذات صباح ربيعي على هدير شديد، فتحت عينيها، ونادت الخادمة، وسألتها:

ـ ما الذي يجري؟

نظرت نحو الأفق الذي هجم عليه فجأة غيم أبيض، وقالت:

ـ يقولون إن أربعين ألف تركي يقاتلون الفرنسيس في «عين شمس».

رمت «زينة» دثارها، فسقط على الأرض، وجرت نحو المرآة، وساوت شعرها الهائم على كتفيهاوجهها، ثم صرخت فجأة كطفل وجدت لعبته الضائعة من زمن طويل:

ـ سيعود حبيبي.

لم تفهم الخادمة شيئًا، وانصرفت من أمامها وهي تغمغم: «يبدو أن كل آل السناري قد أصابهم جنون منذ أن جئنا إلى هذا البيت الضيق».

ولم تمر ساعات حتى استعرت «بولاق» نارًا، بعد شهور طويلة من الهدوء، وهاجم أهل الحي يقودهم تاجر الزيوت الحاج «مصطفى البشتيلي» مخازن جيش الفرنسيس، وأبادوا الحامية التي تحرسها، واستولوا على كل ما فيها من مؤن كان كثير منها قد اغتصبوه من أهل البلد.

ورأت «زينة» وحريم «السناري» من المشربيات الأمامية للبيت الناس يخرجون من الشقوق وفي أيديهم النبابيت والبُلط والحراب والسنج والمناجل والبنادق القديمة ويجرون وهم يصيحون في حماسة.

وسمعت رجلًا يقول وهو يجري:

ـ سنحرر «بولاق» وأهالينا هناك على الشط الشرقي يحاصرون قصر ساري عسكر في «الأزبكية»..لن تمر الليلة إلا وستأتي نهاية الفرنسيس.

في هذه اللحظة كان «إبراهيم السناري» موجودًا بالقرب من الأزهر، يجتمع مع بعض أرباب الصنائع، وشباب من الأزهريين وكثيرين من أولاد البلد، ويحرضهم على القتال.

فما إن زحف جيش الترك إلى «عين شمس» حتى تسلل أمراء المماليك ودخلوا المحروسة، هذه المرة أكثر شجاعة وتحد من المرات السابقة، ووصل بعضهم إلى «نصوح باشا» بعد أن نجح في دخول المحروسة على رأس فيلق من جيش الترك الذي كان يقوده الصدر الأعظم «يوسف باشا».

التقوه ورتبوا كل شيء على أن ينتفض الناس في كل أخطاط القاهرة، (14) في الساحات والشوارع والحواري والعطوف والأزقة، فيطبقوا على الفرنسيس من كل جانب.

وأقام الناس المتاريس المنيعة في الشيخ ريحان والناصرية وقصر العيني وقناطر السباع وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد وباب الرقية وباب القراقة والسويقة والرويعي وباب اللوق والمحجر والمدابغ.

وكان حظ «بولاق» من الثورة كبيرًا، ولحظة اندلاعها هناك كان «حسن جعيدي» يعبر النيل إليها، لينقل إلى «زينة» خبر الموعد الذي حدده الرسام «ريجو» كي يصنع لوحة لها، قرر أن يهديها إلى ساري عسكر ليعلقها في بيته.

قال لها «جعيدي» وهو فرحان في الزيارة قبل الأخيرة:

- أوصلت رسائلك إلى «العيوطي» ووعدني أن يعمل ما في وسعه حتى لا يضايقك الضابط «دوبريه» بعد الآن، وفاتحت الرسام فيما طلبتيه، وابتهج لهذا، ووعدني أن يهدي الصورتين، صورتي وصورتك، إلى ساري عسكر ليعلقهما في قصر الألفي الذي يسكنه.

تذكرت في هذه اللحظة «زينب بنت البكري» التي اختارها ساري عسكر «بونابرته» من بين ست فتيات قدمن إليه. وقالت في سرها: «أنا أحلى منها، والسناري عندي أكبر من كل كبار الفرنسيس»، فجفلت من رسمها حتى لا تصير حديث أهل المحروسة، ويكرهها الناس كما كرهوا «زينب» وأبيها، بينما كان «جعيدي» غاية في الانبساط لأن مكانًا ما سيجمعه بـ «زينة» حتى لو كان جدارًا أصم.

دخل «جعيدي» إلى «بولاق» فوجدها مشتعلة، فرمى بنفسه في النار، بلا تردد، وصار ينادي في الشوارع:

- أين «البشتيلي»؟ أين تاجر الزيت الشجاع؟

وأخذوه إليه، فقال له فور أن رآه:

- أنا وراؤك حتى آخر قطرة في دمي.

ابتسم «البشتيلي» وردَّ عليه بصوته الطليق كالريح:

- لا تمشي ورائي، بل بجانبي.

وخارج «بولاق» سارعت سرايا من الفرنسيس إلى قلعة قنطرة الليمون التي كان الأهالي يحاصرونها، وانهمر الرصاص كالمطر فسقط مائة بولاقي صرعى. وغضب أهل المحروسة للموتى فهبوا في وجه الفرنسيس، وحاصروا مقر قيادتهم في «الأزبكية»، معهم بعض المماليك والعثمانيين، بعد أن أخرجوا مدافع قديمة مطمورة تحت الأرض، وصبوا لها دانات في ورشة الحدادة، واستخدموا ما أنتجوه في معامل بارود، أنشأوها سرًّا، في صناعة القنبر، وتجمع الحدادون والنشارون والسباكون وأرباب الصنائع في «بيت القاضي»، خلف «المشهد الحسيني»، وفي «الخرنفش»، ليصنعوا ما يطلبه الناس في مهاجمة الفرنسيس.

وتناثر أولاد البلد في الشوارع كالنحل يجمعون القنابل التي تتساقط من مدافع الفرنسيس، ويستعملونها قذائف جديدة.

وتحولت الوكالات والحوانيت المتتابعة على النيل إلى قلاع احتلها الثوار، وأحكموا قبضتهم على حركة الملاحة.

وسمع بما يجري أهل القرى فهرعوا إلى المحروسة يحملون المؤن لناسها من اللبن والسمن والجبن

والبيض والغنم والتبن، يبيعونه دون غرر ثم يعودون من حيث أتوا. وكان بعضهم يتسلل إلى «بولاق» على ما فيها من اضطراب، فخرج خدم «السناري» واشتروا منهم ما يحتاجه البيت.

وذات ليلة فوجئ «السناري» بالشيخ «الخضيري» يصرخ في وجهه ويقول:

ـ الخائن باع البلد، انهزم الأتراك في «عين شمس»، فوضع يده في يد «كليبر» ليقتلنا جميعًا.

ـ من تقصد؟

سأله «السناري»، وفي عينيه دهشة، وفي قلبه خوف، فطوح يده في الهواء غاضبًا، وأجابه:

ـ أرسلك هنا لتحمس الناس، ثم طعنك وطعننا جميعا في ظهورنا.

ـ أتقصد «مراد بك»؟

ـ الغادر الفاجر أمد ساري عسكر بالبارود والحطب وأوصاه بحرق القاهرة على رؤوس أهلها.

ضرب «السناري» جبهته بيده حتى كاد يسقط على ظهره، وتذكر ما قالته له «زينة» عن ذلك الرجل الشهواني الدموي الذي لا عزيز لديه ولا صديق. ولم يكن ما يجري غريبا عليه، رغم اندهاشه، فـ «مراد بك» كان يتصل بالفرنسيس والإنجليز والأتراك في وقت واحد، ويقول لـ «السناري» وهو يضحك ويمرر أصابعه فوق شاربه الكث: «أخدعهم جميعًا، لأعود للمحروسة وأقبض عليها في يميني، ولن يبق أمامي سوى شريكي إبراهيم بك، الهارب إلى الشام، وهذا له ترتيب آخر، لينتهي الأمر لي في النهاية».

واستيقظ «السناري» في صباح اليوم التالي على خبر يقول إن فرقة من الفرنسيس بقيادة الجنرال «ربلييه» احتلت الآكام المشرفة على القاهرة من الشرق من قلعة «كامان» إلى مسجد الظاهر وقلعة المقطم. وفي الليل بدأ الهجوم على مواقع الثوار، فاقتلعت متاريسهم، وأضرمت النار في المباني، وانتشر الجند في البيوت يقبضون على الغاضبين أو يقتلونهم، في «أبو الريش» و«بركة الرطلي» و«الأزبكية» و«الفجالة» و«باب الشعرية».

وجاء الدور على «بولاق»، وبينما كان «جعيدي» في زيارة خاطفة لـ «زينة» ليطمئن عليها وسط هذا الجحيم، انفتح باب جحيم أشد، فعند الضحى بدأ الرصاص ودانات المدافع والقنابر تنهمر على حصون الثوار كالمطر، فتزحزحوا يمنة ويسرة، وقامت بين أجسادهم التي كانت متراصة ثغرات واسعة، تدفق منها جند الفرنسيس إلى الحي، وأشعلوا النار في كل البيوت والوكالات ومخازن الغلال، بلا تمييز، وأبيدت أسر بأكملها تحت الركام، بعد أن هدت المدافع الجدران المتهالكة.

وزلزل بيت السناري القديم، وانهارت أجزاء من سوره، وفرقعت داخله قنبرة فأتت على فسقية صغيرة مهملة من زمن. وطارت أحجار وسقطت أمام «جعيدي» وهو يتحسس خطاه نحو البيت بعيد الظهر، ونادى بأعلى صوته:

ـ يا «زينة»..

وكان على باب البيت، فسمع الحارس يرد عليه: «تعال بسرعة وأغلق الباب خلفك»، لكنه لم يأت إذ سرعان ما لمح واحدًا من الفرنسيس على أول الحارة، فكمش وراء جدار انقض قبل ساعتين حين ضربته دانة مدفع، وتحسس خنجره، ثم استله، وأمسكه في يمناه.

تقدم الفرنساوي حتى وصل إلى باب البيت، وطرقه، ونادى الحارس باسمه، ففتح له وهو يقول معاتبًا:

ـ تركتنا وسط هذا الجحيم، ولم تعد لنا حماية، الحريم والأطفال والخدم منكمشون في الأركان يكاد الخوف يقتلهم.

طلب منه أن ينادي له «زينة»، فجاءته على مهل، ورآها «حسن» من مكمنه وسمعها وهي تطلب منه ألا يدع أحدًا يمد يده إلى آل السناري بسوء، ونطقت اسمه: «دوبريه» فملأ «حسن» عينيه منه، وضغط على أضراسه، وتوعده بألا يدعه يمضي حتى لو كلفه هذا حياته، وقال في نفسه: «لم تعد الآن مسألة غيرة، بل ثأر لمن ملأت جثثهم الشوارع، وحولت دماءهم ترابها إلى وحل، وكذلك البيوت التي صارت خرابات».

قهقه «دوبريه» وقال في غيظ:

ـ يضنيني أن أبدو خائنًا وأنا أحميك بينما غريمي يحرض علينا أراذل الناس وأوباشهم عند «الأزهر» و«الحسين» و«الأزبكية».

امتلأت عيناها دهشة، ودقت على صدرها:

ـ أتقصد أن...

لم يدعها تكمل، وقال في اشمئزاز:

ـ نعم «إبراهيم السناري» يحرض الخلق علينا، دخل المحروسة سرًّا مع أمراء وقادة من المماليك.. هذا ما عرفته من القيادة، التي طلبت القبض عليهم بأي ثمن.

امتلأت بهجة وعزة، لكنه ألقى في قلبها رعب شديد، حين قال لها:

ـ إن أمسكوا بهم سيعدمونهم، ولن أستطيع التشفع له، ووقتها
لا تلوميني، ومن الآن إياك أن تعتقدي أنني دبرت له سوءًا كي أتخلص منه.. في الحقيقة هو الذي أودى بنفسه إلى التهلكة.

صرخت فيه:

ـ لن يهلك طالما حوله الناس.

سخر منها:

ـ هكذا كان يظن «البشتيلي» وقبضنا عليه، وجرى منه الذين كانوا حوله، واختفوا في الشقوق، وبعضهم رمى بجسمه في النهر حتى لو لم يكن يعرف السباحة، وجمعنا ما تبقى منهم، وصدر قرار بأن يقوموا هم بإعدامه، لأنه تسبب في كل ما جرى لهم من أهوال.. سيضربونه بالعصي والنبابيت حتى يصير أشلاء.

وغاظ كلامه «جعيدي» وقاوم نفسه حتى لا يجهش بالبكاء فيفتضح أمره، ونظر إلى الناحية الأخرى، فرأى جدرانًا مهدمة يمكن أن يقفز منها إلى الحارة الأخرى، التي تنتهي بحوش وسيع، تجمعت فيه أوساخ البيوت والشوارع، وترعى فيه إبل مريضة وكلاب، ومنه يمكن أن يفر، دون أن يشعر به أحد.

وتمنى «دوبريه» في هذه اللحظة أن تصدقه «زينة» حين يقول لها إنه لم يطلق رصاصة على مصري واحد إكرامًا لها، وكان يخشى من لقائها بعد ما فعله زملاؤه وجنودهم بفقراء المصريين، لكن كان لديه ما سيشغلها عن كل هذا.

لكنه حين نطق بهذا لم تصدقه، وصرخت فيه:

ـ والذين مروا من أمامنا ينزفون دمًا، من الذي فعل بهم هذا؟

لم ينطق فواصلت:

ـ قد تكون لم تطلق رصاصة، لكنك أعطيت أمرًا بالقتل.

نكس رأسه في خجل، وقال:

ـ أنسيت أنني أبعد نفسي عن الجيش المقاتل من أجلك..يبدو أن أعصابك ليست على ما يرام، سأذهب الآن، وسآتي في وقت لاحق، بعد أن تكون هذه المقتلة قد انتهت.

وأشار إلى الجنديين، فعدلا وضع البندقيتين على كتفيهما،ومشيا أمامه، وكانت المسافة بين قدميه وأقدامهم واسعة، فقفز «جعيدي» من مكمنه، وصوب خنجره إلى ظهر «دوبريه»، في مقابل قلبه، ورماه بقوة، ولاذ بالفرار.

(14) الأخطاط هي «الأحياءالسكنية» بلغة زماننا.

29

عبرت «زينة» إلى شرق النيل متوجهة إلى مسجد «السيدة زينب»، بعد أن عزمت على أن تزور المقام ثم تقترب من «بيت السناري»، ربما ترى الرسام «ريجو» وتقدم له نفسها: «أنا التي اتفق معك جعيدي على رسمها».

وكان لديها أمل أن تجد «جعيدي» جالسًا على مقعده المعتاد بالمقهى، وهو ما جرى بالفعل. فما إن اقتربت من المقهى حتى وجدته شاردًا يسحب أنفاسًا متلاحقة من النارجيلة، وعيناه زائغتان. عدلت اليشمك على وجهها، ونادته، فقام إليها، ولم يكن لمثله أن يخطئ صوت له في نفسه رنين لا يضيع مهما ابتعدت الأزمنة والأمكنة.

قالت له بصوت خفيض:

ـ ما هذا الذي فعلته يا مجنون؟

ـ فعلت ما كان يجب أن أفعله.

ـ لكننا اتفقنا على ألا تقتله.. وأنت وعدتني.

ـ لم أتمالك نفسي وأنا أسمعه يتحدث بهذه العجرفة عن البطل «مصطفى البشتيلي»، ولولا الجنديين اللذين كانا يحرسانه ببندقيتين، لوثبت فوق صدره، وطعنته ألف طعنة.

ضحكت ورأى ضحكتها في عينيها، وقالت له:

ـ لكنه لم يمت.

كتم صرخته: «آآآه»، وعض بأسنانه على شفتيه، وهو ينفخ في وجع، لكنها خففت عنه، حين قالت له:

ـ لو مات «دوبريه» كان من الممكن ألا تراني مرة أخرى. هو يأتي لي، وكانوا سيتهمونني بقتله. عاش كي يبرئني، ويقول بملء فيه: «لم يمسسني أي من آل السناري بسوء». وحارس بيتنا رآك لكنه قال لهم: «الذي طعن الضابط غريب، لم أره في «بولاق» من قبل».

التقط أنفاسه، وسألها:

ـ لِمّ عبرت إلى هنا؟

ـ أنسيت ما وعدتني به.

ـ أتقصدين موضوع الرسام؟

ـ نعم، أريد أن أدخل بيتنا الذي أخذوه منا عنوة.لديَّ رغبة عارمة في أن أعود ولو لحظة للمكان الذي قضيت فيه أيامًا سعيدة.

صمت برهة ثم رفع عينيه إليها وقال في حسرة:

ـ تأكلني الغيرة من أن الغريب سيملأ عينيه منك.

ابتسمت وقالت:

ـ ستكون إلى جانبي وهو يرسمني، ولن يرى مني شيئًا.

نظر إلى يمينه فرأى جنديًا خارجًا من «بيت السناري» وهو يرفع بندقيته ويصوبها إلى الأمام، كأنه يواجه من يهاجمه، أو يسعى لاصطياد أحد مختبئ بجوار الجدار المقابل. وعاد إليها ليقول:

- اذهبي في اتجاه البيت وأنا سألحق بك، فقد قضيت أيامي الفائتة في «بيت السناري» أجلس أمام الرسام.. إنه أفضل مكان يمكن أن أختبئ فيه من الفرنسيس.

ضحكت وقالت له:

- لم أكن أظن أنك بهذا الدهاء.

- من لا يُعلمه أبوه وأمه، تُعلمه الأيام والليالي.

وسارت خلفه إلى أن دخل «بيت السناري» وقدمها لـ «ريجو» قائلًا بلسان متعلثم:

- لولا أنني مطمئن إليك ما جئت بها إلى هنا.

شعرت «زينة» بالخجل، وتطلع الرسام إليها متلهفًا، ثم قال لها في لطف:

- لا بد من أن تكشفي وجهك يا سيدتي.

رمت مقلتيها عند قدميها خجلًا، وقالت:

- أليس من الممكن أن ترسمني هكذا؟

هز رأسه نافيًا:

- لا، لا، أريد أن أصنع «بورتريه» لأجمل امرأة مصرية، سأخلدك يا سيدتي، ولتكن لوحة أجمل من «الموناليزا».

لم تعتن بما قال، وكان كل ما يدور في رأسها هو أن تدخل البيت، وتقف فوق الخبيئة، ويا ليتها تتمكن من أن تزيح الحجر، وتطمئن تمامًا إلى أنها في مكانها.

نظرت إلى «ريجو» وقالت:

- مستعدة أن أكشف وجهي، لكن لي شرط..

ضحك وقال:

- تريدين أن ترى كل بقعة في البيت مثل ما اشترط زميلك.

أومأت برأسها:

- نعم، هو كذلك.

تنهد وهو يبتسم وقال:

- أتفهم تمامًا أن تكون لدى كل من يدخل هذا البيت رغبة في أن يرى كل جزء فيه، من كثرة ما أشيع حوله في المحروسة وخارجها، فهو يستحق، وكم أنا محظوظ أن أصبح هذا الفناء الرائع مرسمي.

نظرت إليه «زينة» بنصف عين، وهي تداري وجعها، وتكتم الكلام الذي انفجر داخلها: «محظوظ أم لص؟». ومدت إصبعها نحو السلم الحجري الصلد، وقالت:

- هل أبدأ رحلتي من هنا؟

ـ يمكنك أن تبدئي من أي مكان تريدين، لكن ليس بوسعي أن أصعد معك، أنا غاية في الإجهاد.

وهنا وجد «جعيدي» فرصة سانحة كي يصطحبها، فنظر إلى «ريجو» وقال:

ـ أصبحت أحفظ كل مكان في هذا البيت.

رفع قبعته وراح يجفف جبهته، التي تتصبب عرقًا، بمنديل أبيض وقال:

ـ اذهب معها أنت.

وأخذته معها، وأمرته أن يمشي أمامها، فضحك وقال لها:

ـ هل صدقتي أن مثلي يدلك على ما في هذا البيت؟

غمزته في كتفه، وقالت:

ـ لا، بل لا أريدك أن تغرس عينيك في جسدي وأنا أسير أمامك، كما كنت تفعل أيام الزقاق.

بدا محرجًا لما قالته، لكنه فرح بتذكرها ما كان يفعله معها أيام الجيرة والحيرة والأمل، وقفز ثلاث خطوات حتى صار أمامها، يمشي بجانبه الأيمن، ليوسع لها الطريق، ولا يترك فرصة إلا واختلس نظرة إلى عينيها، متمنيًا أن يرى فيهما أي لمحة رضاء.

ولما وصلت إلى الحرملك توقفت، ونظرت إليه بعينين دامعتين، وقالت:

ـ هل يمكنك أن تتركني وحدي الآن، ولو قليلًا؟

أدرك أنها تتأهب لاستعادة ذكريات حميمة، ولا تريده أن يراها وهي غارقة فيها، فأعطاها ظهره وانسحب مكسورًا إلى الخلف نحو ممشى خارجي.

حين اطمأنت إلى تباعد دبيب قدميه دلفت بسرعة خاطفة إلى الدهليز، وأسقطت في جريها مزهرية من الفخار كانت مركونة إلى جانب الحائط، فانتبه «حسن» وتسلل خفيفًا حتى صار بوسعه أن يراها وهي جالسة فوق الدرجة الحجرية، ثم وهي تخرج من جيبها مفتاحًا كبيرًا، وتزيح الحجر قليلًا، وتضرب المفتاح فيما لا يراه هو من مكمنه، وبعدها تمتمت بكلمات لم تصل إلى أذنيه، ووقفت وأعادت الحجر إلى مكانه، فساوى ما فوقه وما تحته وما على جانبيه، وقفلت راجعة إلى الحرملك، ونادت:

ـ يا «حسن».

كتم أنفاسه ولم يرد، فعاودت النداء، فردَّ بصوت خفيض: نعم، فحسبته كان بعيدًا، فانتظرته أن يعود، وآتاها، فلما رأته قالت له:

ـ أريد أن أتجول في البيت كله، لا أترك حجرًا ولا شبرًا إلا ورأيته ولمسته بيدي، ووعدته بأني سأعود، والعودة قريبة.

ومرت بين الكتب المرصوصة والأجهزة المسنودة إلى الحوائط، وتعجبت مما آل إليه «بيت السناري». ولما هبطت السلالم جلست ساعة واحدة أمام «ريجو» فرسم نصف وجهها، وتذرعت بصداع داهم رأسها، فسمح لها بالذهاب على أن تعود في اليوم التالي، لكنها لم ترجع إليه، واكتفت باطمئنانها على الخبيئة، ولم تنس لـ «جعيدي» هذا الجميل.

30

ذات عصر، كانت «زينة» عائدة من حمام مغربي، تذهب إليه مرة كل يوم خميس، حين سمعت شابًا يجري في الحارة ويصرخ:

- قتلوا ساري عسكر.

نظرت إلى السماء الصافية، وتذكرت ما فعله «جعيدي» مع الضابط «دوبريه»، وسألت الشاب:

- من قتله؟

أجابها وهو يزاور عينيه بعيدًا عنه:

- شاب يقال إنه تنكر في هيئة شحاذ، لبد له في بستان الأزبكية، وطعنه بخنجر حاد طعنات نافذة.

ولم يمر وقت طويل حتى امتلأت الشوارع بجنود الفرنسيس، وقال رجل طاعن في السن وهو يغلق حانوته:

- ربنا يستر، سينتقم الفرنسيس منا جميعًا لمقتل كبيرهم.

وفوجئت بالرجل يقول:

- سمعت أن الضابط الذي طعنوه هنا تعافى.. رآه نشار يهبط من مركب على شاطئ «بولاق».

ولم تمض أيام حتى نزل «شكر الله» القبطي إلى «بولاق» ومعه عسكر الفرنساوية، تسبقه سيرته، فطالما أمر بهدم بيوت لم يدفع أصحابها ما فرضه ساري عسكر من مال على البيوت والرؤوس، وكان يحبس الرجال مع النساء دون تحسب ولا ورع، وأحيانًا كان يحرق إلى جانبهم القطن والحطب فيتعذبون بلفح النار وكثافة الدخان الذي يجعلهم يسعلون بقسوة، حتى تكاد رئاتهم تشق أقفاص صدورهم.

مر «شكر الله» بالوكالات والخانات على حين غرة، فأمر بإغلاقها، وختم عليها، حتى فارقها أصحابها، فعاد إليها مع رجاله ونهبوا ما فيها من أقمشة وعطور ودخان وبضائع، أمر بنقلها على ظهور الجمال والحمير والبغال. وكان يمر على الحواصل فيفرض عليها مكوسات أغلى ثمنًا مما فيها من حبوب فيضطر صاحبها إلى التنازل عن حبوبه، فإن لم توف ما على صاحب الحاصل، أخذ عنوة من جاره ما يوفي به ما عليه. وطالما سطا على دراهم وريالات كانت في خزائن أو أدراج.

ولم تختلف الأحوال مع ساري عسكر الجديد، رغم أنه أعلن إسلامه، وتزوج فتاة مصرية. فلا يمر يوم على أهالي جزيرة «بولاق»، شأنهم شأن بقية الأخطاط، إلا ويهبط عليهم من يسلب أموالهم، ويثير فزعهم، حتى تركت البيوت خواء. وشعر أرباب الصناعات والحرف، وملاك الحوانيت والوكالات، أنهم يعملون عند الفرنسيس، فكلما توفر في جيوبهم مال، ولو شحيح، جاء إليهم من يسلبه، والذرائع لا تنتهي.

لكن الجديد بالنسبة لـ «زينة» كانت الرسالة التي وصلتها من «السناري» وتقول لها:

- أنا في الطريق إليك.

وشرح لها كيف اتفق «مراد بك» و«عبد الله مينو» على صلح يحكم الأول بمقتضاه الصعيد من «برديس» إلى «أسوان». وعرفت منه أنه استأذن «مراد» كي لا يعود معه إلى الصعيد بعد أن يحلا بالقاهرة أيامًا، يتممان فيها هذا الاتفاق، وأن يرجع كبير المماليك من دونه، ويتركه هنا في

المحروسة، وقد أقنعه بأنه سيكون أذنه وعينه وحامل أسراره، وأنه سيعمل ما بوسعه حتى يمهد له الطريق كي يعود إلى القاهرة ذات يوم مظفرًا، ليحكم مصر كلها، كما كان حاله قبل وصول الفرنسيس.

«سأترك كل شيء من أجل أن أقضي أيامي الأخيرة معك».

أبهجتها عبارته، لكنها لم تلبث أن ارتعبت من ذكره أن الآتية هي أيامه الأخيرة.

وزادت مخاوفها، وصارت كابوسًا يسيطر عليها في النهار، وفي ليال لا يفارقها الأرق حين أتاها خبر موت «مراد بك».

قال لها «الخضيري» وهو يمصمص شفتيه:

ـ هلك بالطاعون وسط مماليكه، وهم زاحفون نحو المحروسة.. خان كي يتنعم بملك استرده، لكن شاء ربك ألا يكون له ما أراد، وجعل تدميره في تدبيره.

وعلى قدر سعادتها بهذه النهاية التي تليق بظالم جبان كانت حزينة، لأنها لن تتمكن من الانتقام لأبيها من «مراد بك». وكانت تقول دومًا: «جاء الفرنسيس بغتة، فبعثروا أوراقي».

وسألت «الخضيري» إن كانت لديه أخبار عن «السناري» فأجابها:

ـ تابع دفن «مراد بك» في «سوهاج»، وتلقى عزاء مماليكه، وركب النيل عائدًا في أمان.

ابتسمت في مرارة، وقالت:

ـ أي أمان لمثله وأعداؤه هنا كثر.

صمت برهة ثم قال لها:

ـ لم تخل أيامه كلها من أعداء، لكن لم يطارده بهذه القسوة سوى الفرنسيس، والآن هو قد أمِن شرهم.

تذكرت الرسالة التي كان «بونابرته» قد أرسلها إليها، ولم تصله في وقتها، وقالت:

ـ لم يكن عدوّا لهم في البداية، لكن ذهابه خلف من قتله الطاعون جعله خصيمًا لهم بلا جريرة.

ضحك، ثم طوح يده في الهواء، وقال:

ـ وهل ينتظر الفرنسيس جرمًا من أحد حتى يعادونه.. «البك» من أهل الحكم، وهذا يكفي لكي يطلبوا رأسه.

وقفت في مكانها، ونظرت من نافذة ضيقة إلى الأفق الأزرق المفتوح، وقالت:

ـ أنتظر عودته، لكن أخشي من أن تدور عليه دوائر جديدة، والأحوال في بلدنا متقلبة، بما يجعل الحليم حيرانًا.

31

عاد «دوبريه» يتوكأ على ألمه، قاطعًا شوارع «بولاق» الضيقة، وتوقف قليلًا في المكان الذي سحل فيه «مصطفى البشتيلي» وتمتم في سره: «كان بطلًا لكن لم يكن هناك بد من قتله حتى يرتدع الرعاع».

حين وصل إلى بيت السناري القديم، طرق بابه خمس طرقات قويات، لكن لم يفتح. نادى بصوته المميز: «زينة»، فسمعته إحدى الخادمات، فقالت وهي تسعى وراء الحارس: «جاء غراب البين». وجدت الحارس خارجًا من الكنيف الصغير، يعدل هندامه، فعاجلته: «الضابط الفرنساوي رجع، ويقف بالباب».

خرج إليه فوجده متعبًا، يسند ساعده على واجهة الباب ويلهث. كان وجهه أصفر وعيناه غائرتان، مد إليه يده وأخذه إلى مقعد في الفناء، وقال له:

- صاحب البيت راجع من الصعيد، ولن يكون من المناسب أن يأتي وأنت هنا.

اكتسى صفار وجهه بحمرة معكرة، وصرخ بصوت واهن:

- عليه اللعنة هو ومن صالحه.

واجه كلامه بصمت، وتطلع إلى المشربيات فرأى وجوه الحريم وراءها، وبعضهن قد أخرجن أصابعهن من بين الفتحات ولوحن بإشارات بذيئة، ثم اختفين، وظهرت «زينة» في الممر المكشوف، ثم بدأت قدماها تكركبان على السلم الحجري حتى ظهرت في أول الفناء.

لم يكن لديها ما تقوله لـ «دوبريه» سوى جلوسها بعيدًا عنه بخطوات، فوق بسطة من الحجر المتساوي، وأعطته ظهرها. وناداها هو: «يا زينة» فلم تجب، وقالت للحارس:

- ألم أنبه عليك ألا تسمح لغرباء بدخول بيتنا.

ردَّ عليها بصوت واهن:

- ما أقساك! فعلت كل شيء من أجلك ولم ترِّقِين، تعلمت اللغة العربية حتى أستطيع التواصل معك من دون مترجم، مهما بذل من جهد لن يتمكن من أن يبثك عواطفي، ومستعد أن أدخل الإسلام إن أردت، والآن لن يلومني أحد من قومي، فقد فعلها قائدنا.

لاذت بالصمت، ونظرت إلى الباب الموارب، الذي وقف به السقاء وعلى ظهره قرب مملوءة بالماء، ونادى: «يا ساتر»، فأجابه الحارس: «ادخل يا عبد الموجود».

تابع «دوبريه» السقاء وهو يتقدم نحو الأزير المرصوصة إلى جانب الجدار الأيمن، وقال:

- ضابط فرنسي لا يلقى معاملة سقاء في هذا البيت.

وهنا ردَّت «زينة»:

- السقاء لا يأتي إلى بيتنا بلا سبب، وحضوره لا غنى عنه.

نفخ وجحظت عيناه، لكنه لم يلبث أن كظم غيظه، وقال بصوت كساه برقة مصطنعة:

- لا غنى لي عن حضوري إلى هنا، وأنت تعلمين.

واربت جسدها، لكنها شملته بعينين جريئتين من وراء اليشمك، وقالت:

- هذا أمر يخصك، ولا يلزمنا في شيء.

ثم وقفت وواصلت:

- من تخصك كانت في بلادك، ولم تعد موجودة، وإن أردت أن تحظى بمن تشبهها، أو تنسيك إياها، فارجع إلى «باريس» فقد تجدها هناك.

قام من مكانه ومشى نحوها بخطوات وئيدة وهو يقول:

- لا تتعجلي، فهذا آت لا محالة. لم يعد أحد يريدنا هنا، ورحيلنا لن يستغرق وقتًا طويلًا.

عادت وأعطته ظهرها، ومدت ساقيها حتى لامس كعباها الأرضية الحجرية، وقالت:

- ما دامت الأخبار عندك، ألم يأتك نبأ عودة صاحب البيت.

ملأ صوته بكل الغيظ الذي كتمه طويلًا، وقال:

- حضوره لن يمنعني من أن أجيء إلى هنا وأراك.

- أنت مجنون.

- فعلًا.. مجنون أنا بك، وجنوني قد يقودني إلى قتل من تظنين أنه سيحول بيننا.

كان يتحدث في جدية تامة، وفي كتفه بندقيته، ونادى الجنديين اللذين يتبعانه، فدخلا مشهرين سلاحهما. أوقفهما بإشارة من طرف أصابعه، وقال:

- بوسعي أن أخطفك الآن، وآخذك إلى فراشي، وأفعل بك ما أريد.

دخلها خوف منه، فتراجعت في مكانها، وقالت بصوت غارق في الرجاء:

- حتى الآن لم أكرهك، فلا تجعل بُغضًا يتسرب إلى نفسي منك.

- لم تعتني بحبي لك، فلن أعتني بكرهك لي.

- كرهك لا يشغلني، كما لم يشغلني حبك.

صرخ من جديد:

- سأذهب إلى المحققين وأبلغهم أنك من أمرت بإطلاق
الرصاص عليّ.

- لكنك إن فعلت ذلك ستكون كاذبًا.

طوح يده في الهواء ضجرًا، وقال:

- في الكذبة الكبرى التي نعيشها لا تهم كذبة صغرى، بوسعها أن تشفي غليلي، ومن يدريني لعلها تقود إلى سجنك، وهناك ستكونين لي رغم أنفك، ومن يدري ربما آخذك معي إلى فرنسا، إن صح ما نسمعه من أن وقت مغادرتنا سيأتي عما قريب.

لم يكن أمامها بد من العودة إلى مجاراته، فقالت له بصوت غارق في حنان عابر:

- لا أنسى وقوفك إلى جانبنا، وحمايتك لنا من كل شر فعله بني قومك بجيراننا.

ارتاح قليلًا لما بدر منها، وأشار إلى الجنديين أن يعودا ليقفا بالباب، ثم تقدم خطوات حتى وقف أمامها، وجثا على ركبتيه، وقال لها:

ـ الذي تنتظرين قدومه له حريم وخادمات، وهو يكبرك بثلاثين عامًا، وإن لم ينشغل عنك، فلن يتمكن بعد سنوات أو شهور من أن يعطيك ما يليق بشابة جميلة مثلك.

تذكرت فراشها الدافئ مع «السناري» وقالت في نفسها للضابط الفرنسي: «أنت تجهل من تظن به ضعفًا، وقبله ضاجعني غيره،ولم يشبعني سواه». لكنها لم تكن قادرة على أن تجهر بهذا، إنما بغيره نطقت:

ـ إذا كان الأمر كذلك فلمَ العجلة؟

ـ صبرت طويلًا، لأني كنت أظن أن بقاءنا هنا مستمر، لكن الأمور التي استجدت جعلتني لا أطيق على ما أريد صبرًا.

ـ لا يزال «السناري» في الطريق، وربما يطرأ ما يجعله يعود إلى الصعيد.

ضغط على أضراسه وقال:

ـ وربما لا يدخل المحروسة أصلًا.

ـ لا تضمر الشر لمن لم تصدر عنه إساءة لك.

ـ وجوده على قيد الحياة يسيئني، وإن كنت قد تغاضيت عمن أراد قتل جسدي، فلن أتغاضى عمن يقتل روحي.

ونادى على الجنديين فأتيا مسرعين، ووقفا أمامه، فمال على أحدهما وهمس في أذنه بكلام لم يسمعه سواه، وهو يرنو بطرف عينه إلى «زينة»، ثم توجه إليها قائلًا:

ـ لو كنت تحبينه بوسعك أن تضحين من أجله.

ـ ماذا تقصد؟

ـ قصدي سيصلك خبرًا أليمًا.

صرخت فيه:

ـ معلون أنت وكل الفرنسيس.

رفع يده في الهواء وطواها فصارت قبضة في وجهها، يلمع في أوسطها خاتم من الذهب الخالص، اغتنمه ذات يوم من بيت بك تركي داهمه في أول أيام الفرنسيس بالمحروسة، وعض على أضراسه، وقال لها:

ـ لولا أنك سيدة جميلة، ومقربة إلى نفسي فوق ما تتصورين، لألزمتك حدك.

وتراجع خطوتين ورمى في وجهها ما أفجعها:

ـ الشيخ «العيوطي» الذي أرسلتيه ليوشي بي صارحني، وأخذ أجره، وقد أبلغت قائدي أن «السناري» هو من حرض رجلًا على قتلي، فإن جاء لينضم إلى من أرسلهم «مراد بك» من مماليك لحماية القاهرة أثناء انشغال جيشنا بقتال الإنجليز والترك عند «الإسكندرية»، سيتم القبض عليه ومحاكمته.. ينتظره الإعدام.

صرخت فيه من جديد:

ـ أتتسبب في إعدام رجل بريء؟

ـ هذا البريء يحرمني منك، وحرمني من أن أتخذ خليلة مثل بقية ضباط جيشنا.

ـ أمامك الخليلات كثيرات، وهو لا يمنعهن من أن يكن ملك يديك، ولا يمنعك من أن تفعل مثل زملائك الفجرة، فاذهب إلى سوق الجواري البيض في «خان جعفر» أو «وكالة الكُشُك» وستجد هناك من تريد.

بصق على الأرض بعنف، ودقها ببيادته القاسية، وجرى نحو الباب غاضبًا، وصفقه بقسوة، فسقط الفانوس المعلق في منتصفه فوق رأس الجنديين، وغاصوا في الحارة حتى اختفوا، وتركوا «زينة» في حيرة شديدة.

32

لم يكن أمام «زينة» من سبيل لحماية سيدها ومالك قلبها من غضب الضابط الفرنسي سوى الاستعانة بـ «حسن جعيدي».

أرسلت إليه خادمًا، بعد أن وصفت له المقهى الذي يجلس فيه، فجاءها على وجه السرعة.

ما إن رأته حتى قالت له:

- لا أجد لي عونًا غيرك، وأنت جمل المحامل.

أدرك أنه مقبل على مهمة أخرى، وتمنى في نفسه هذه المرة أن ينجح، فقال لها بصدر منشرح:

- اطلبي ما تريدين.

نظرت في عينيه بعمق، فارتبك قليلًا، وقالت:

- الضابط الفرنساوي الذي كدت تقتله، يتوعدني بقتل «السناري».

ابتسم في فتور، وقال:

- «السناري» هناك في قلب الصعيد، ولن يتمكن مثل هذا الضابط من الوصول إليه أبدًا.

تنحنحت وشرحت له في هدوء:

- «السناري» في طريقه إلى «المحروسة»، ولديه أمان من ساري عسكر، بعد اتفاق «مراد بك» معه، لكن «دوبريه» لا يعنيه مثل هذا الاتفاق، ويتصرف على أن الفريسة التي انتظرها قد اقتربت من مصيدته، اتهمه هو بمحاولة قتله، ويريد محاكمته بدلًا منك.

غاظه أنها لا تزال حريصة على حياة «السناري»، لكنه تذكر كلامها السابق عن كبر سنه، والثروة الطائلة التي تنتظرها، لاسيما بعد أن رآها تفتح صندوقًا حين كانت تظن أنه ابتعد عنها في بيت السناري بـ «الناصرية»، فتصنع الطاعة والامتنان، وقال لها:

- مستعد أن أذهب إلى آخر الدنيا إن كنت أنت تريدين هذا.

ابتسمت له وقالت:

- لكنني لا أريدك هذه المرة تعود بلا جدوى.

وأطلعته على رسالة «السناري» الأخيرة، وكان موضحًا فيها خط سيره، وأعطتها له كأمارة يبرزها له حين يراه حتى يطمئن إليه، وقالت:

- الأبلق مربوط خارج البيت، بوسعك أن تركبه وتذهب.

لكنه عزم على أن يركب النيل في اتجاه الجنوب، وقال:

- سأنادي على كل مركب آتية من الصعيد، وأقترب منها، بحثًا عن «السناري».

فكرت قليلًا ثم تساءلت:

- ومن صاحب المركب الذي سيعطيك فرصة أن تفعل ذلك؟

أمهلته دقائق ثم عادت ومعها صرتين من الريالات الفرنساوية، مدتها إليه وقالت:

ـ استأجر بواحدة مركبًا صغيرًا، والأخرى لقاء نفقات الطريق.

وانطلق قبيل العصر ليطارد المراكب الشراعية الآتية من الصعيد، استقل مركبة راسية في الضفة الغربية المحاذية لـ «بولاق»، فمرت من أمام شون القمح الموجودة في العراء، وأكوام الشعير والفول التي تملأ الميناء، ورصات البضائع الآتية من أوروبا، وبالات القطن والكتان، وأكياس الحناء والسكر والأرز والزعفران والنطرون والبن، وصناديق الصمغ والعاج.

كان الميناء خلية نحل، بضائع تحمل فوق المراكب وأخرى تنزل منها، ورجال معروفون يدورون في كل مكان، عيونهم على البضائع والمحاصيل، وآذانهم تتلقى أوامر التجار ومقاولي الأنفار وحراس الميناء.

وراح الميناء يصغر في عين «حسن» ومركبه الصغير يمضي نحو الجنوب في عجل، حتى عثر في صبيحة اليوم التالي على المركب التي تقل «السناري». اقترب منها، ونادي:

ـ معي رسالة إلى «إبراهيم كتخدا السناري».

وبرز له مملوك، وصوب تجاهه بندقيته، وأمره أن يرفع يديه إلى أعلى ففعل، وأن يهبط من المركب الصغير على متن المركب الكبير فهبط، وقاده إلى المنتصف حتى أوصله إلى مراده.

كانت المرة الأولى التي يرى فيها الرجل الذي يحيل وجوده حيّا بينه وبين «زينة»، وتساءل في نفسه فور أن ملأ عينيه منه: «أي شيء يعجبك
يا من أحب في هذا الأشيب الناشف». لكن حين صافحه، وشد «السناري» على يمينه حتى أن عرف أن كبر السن وجفاف العود لا يعني أن من أمامه ضعيف متهالك.

سحب يده وقال له:

ـ أرسلتني الست «زينة» برسالة عاجلة إليك.

ـ هاتها.

رفع جلبابه وأخرج من تحت الحزام المربوط على وسطه ورقة مطوية، وأعطاها له.

نظر فيها، وقال:

ـ هذه رسالتي إليها.

ـ نعم، وأعطتها لي كي يطمئن جنابكم إلى أنها هي من أرسلتني.

ـ وما رسالتها؟

ـ تقول لك إن ضابطًا فرنساويّا اسمه «دوبريه» يبحث عنك
كي.. كي..

ـ كي.. ماذا؟

ـ كي يقتلك.

ـ يقتلني!

ـ توعدها غاضبًا أن يفعل ذلك بك.

ـ لكن بيننا وبين ساري عسكر اتفاقًا، فهل تراجع الفرنسيس فيما اتفقوا عليه بعد رحيل «مراد بك»؟

ـ لا، لم يتراجعوا، لكن بين هذا الضابط وبينك ثأر.

ـ أي ثأر؟ أنا لا أعرفه.

ـ لكنه يعرف «زينة».

تغضن وجه «السناري» بغضب شديد، واتسعت حدقتا عينيه، وزم شفتيه، متذكرًا ما قالته له زوجاته عن هذا الضابط، الذي نسي اسمه في زحام الملمات التي مر بها منذ أن قابلهن في رحلته الأخيرة إلى المحروسة. ونفخ وهو ينظر في عيني «حسن» وقال:

ـ بل أنا الذي سأقتله إن رأيته.

لم يجد «حسن» ما يقوله، فصمت، بينما واصل «السناري»:

ـ عمومًا أيام الفرنسيس في بلادنا أوشكت على النهاية، وإن كان هذا الضابط المغرور لا يريد العودة من حيث أتى، فسيدفن هنا، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه أن يمد عينيه إلى حريمنا.

ونظر «السناري» إلى «حسن» وسأله:

ـ هل أنت من أرسلتك «زينة» خلفي إلى «الفيوم»؟

ـ نعم يا سيدي.

ابتسم له وقال:

ـ أنت رجل مخلص، أتذكر اسمك جيدًا، وحين تزول هذه الغمة، ستكون لك عندي مكافأة مجزية.

تمتم «حسن» في سره قائلًا: «مكافأتي أن تتركها لي طوعًا، وإن لم يقتلك الضابط الفرنساوي، فمن يدري لعلي أجد نفسي في النهاية مضطرًا إلى قتلك، أو قتل نفسي كي أستريح من عذابي، ولو رحمني الله، منك ومن نفسي، فليميتك بعيدًا عني، بيد واحد من أعدائك وهم كثر، أو مُمددًا في فراشك كالبعير».

ثم نظر إليه وقال:

ـ مكافأتي أن أرى جنابكم بخير.

هز «السناري» رأسه بامتنان، وسأل «حسن»:

ـ هل وقعت في طريقي من قبل هذا اليوم.

تنهد «حسن» بحرقة، وردَّ عليه وهو يزاور عينيه بعيدًا ليسقط ناظراه في البحر:

ـ بل عرفت بيتك.

ـ أي بيت؟

ـ بيتك الذي كان حديث أهل المحروسة.

ـ أدخلته؟

ـ ثلاث مرات ليرسمني رسام فرنساوي اسمه «ريجو»، ورأيته من بعيد سنينًا، حين كنت أرنو إليه وأنا جالس على المقهى القريب منه.

ابتسم السناري من جديد، ووقف في مكانه، فبدا أطول من «حسن» بكثير، ونادى أحد المماليك الذين كانوا يقفون متأهبين في انتظار أوامره، وجذبه من أذنه، وهمس فيها كلامًا لم يسمعه «حسن»، لكنه فهم كل شيء، حين قال له المملوك: تعال معي. وأخذه إلى غرفة صغيرة في قلب المركب،

وأجلسه، وأخرج له طعامًا شهيّا، وقال:

ـ يظهر جوعك في عينيك، فكل واسترد عافيتك، فمركبنا سترسو هنا وقتًا، وسننتظر أوامر «البك» ما إذا كنا سنكمل رحلتنا فوق الماء، أم ننزل ونقطعها برّا.

وبعد نصف ساعة نزل عشرون مملوكًا، وغابوا في طريق ترابي نحو قرية كانت حوائط بيوتها ظاهرة، وعادوا ومعهم ثلاثة أحصنة وأربعة بغال وجملين وخمسة عشر حمارًا، وأوقفوها مقابل المركب، فنزل «السناري» وهو يأخذ «حسن» في يده، وركبوا في اتجاه المحروسة.

كاد الفضول يقتل «حسن» فوجد نفسه يسأل «السناري»:

ـ لمن هذه الدواب؟

ـ لنا.

ـ وهل لكم إسطبل في هذا المكان؟

ضحك «السناري» وهو ينظر إلى جنوده، وقال:

ـ لنا فردة متأخرة على هذه القرية، وحصلنا عليها.

غمغم «حسن» وهو يزم شفتيه حتى لا ينفلت حرف من بينهما، وقال في نفسه: «فردة يا أولاد اللصوص، تنتظرون ذهاب الفرنسيس لتواصلوا نهب أقواتنا وأرضنا وبهائمنا»، وتذكر ما جرى لصاحب المدبغ الذي يعمل فيه، حيث أفلس من كثرة المكوسات، ونظر إلى «السناري» وقال:

ـ سيؤول الأمر إليكم بعد رحيل «مينو» ومن معه، والناس ينتظرون منكم عدلًا، يخفف عنهم ما ذاقوه من ظلم.

ضحك أحد المماليك، وردَّ عليه:

ـ أي عدل أيها الرجل؟ هؤلاء الناس يستحقون الحرق، لأنهم صبروا على الفرنسيس ثلاث سنوات، بينما كنا نحاربهم في كل مكان.

انفجرت ضحكة من صدر «حسن» لم يستطع كتمانها، وقال:

ـ الناس خرجت عليهم مرتين، ولم يجدوا من ينصرهم.

وهنا تدخل «السناري» بعد أن أوقف حصانه، فتوقف الركب:

ـ أنسيت يا هذا أنني كنت موجودًا بينهم في الهوجة الأخيرة؟

بلع «حسن» لسانه، ونظر نحو فلاحين تأكل الشمس ظهورهم بين زروعهم الخضراء، وغنم ترعى خلفهم في سلام. ثم رفع سبابته وقال:

ـ كثيرون من أهل المحروسة لا يطلبون سوى أن يرعوا بسلام مثل هذه الغنم.

ردَّ المملوك غاضبًا:

ـ بل هم ملاعين، نتركهم يرعون ونحن نحمي ظهورهم، ثم يستكثرون علينا القليل في سبيل حمايتهم.

وتدخل «السناري» من جديد:

ـ دعكم من هذا الكلام البائس، فالفرنسيس لا يزالون جاثمين على صدرونا جميعًا، وكانوا قد اتفقوا

على الرحيل، ثم عادوا في كلامهم، وما يدرينا أن يفعلوا هذه المرة ما فعلوه من قبل.. عمومًا إن خرجوا فهناك من ينتظرون أن يدخلوا مكانهم، الإنجليز الذي يرابطون عند الثغور في البحر الكبير، والأتراك الذين يعملون ليل نهار على أن يعيدوا مصر إلى حوزة بني عثمان.

ثم نفخ وهو يضرب حصانه بقدميه حتى يرمح وقال:

ـ لديَّ شعور قوي بأن الأتراك لن يتركوننا في حالنا، ولن تعود علاقتنا بهم إلى ما كانت عليه قبل مجيء «بونابرته».

وهنا قال مملوك آخر:

ـ نحن نعرف هذا البلد أكثر منهم، ولن يستغنوا عنا أبدًا.

زام «السناري» ضجرًا، وقال له زاجرًا:

ـ لا تنسى أنني أرى ما لا ترى، وسيأتي يوم، ليس بالبعيد، وتتذكر فيه كلامي هذا.

ولاحت مآذن «قلعة الجبل» وقبابها، فقال «السناري» لهم:

ـ ترجلوا ولننتظر قدوم الليل ثم ندخل المحروسة خلسة.

تحلقوا حوله حين أشار إليهم بطرف إصبعه أن يقتربوا. نظر في عيونهم وقال:

ـ انضموا إلى رفاقكم الذين أرسلهم المرحوم «مراد بك» لحراسة القاهرة لحساب الفرنسيس حتى يعودوا من قتال الإنجليز عند البحر المحيط، أما أنا فسأذهب إلى «يافا» في مهمة سرية.

والتفت إلى واحد منهم كان دومًا طوع بنانه، وأمره:

ـ ارجع بهذه الدواب، ووزعها على أصحابها إكرامًا لـ «جعيدي».. هذه المرة الأولى التي تعاد فردة إلى أصحابها، وقد تكون الأخيرة.

ونظر في وجه «حسن» وابتسم قائلًا:

ـ الشعور بدنو الأجل يرقق القلوب القاسية.

33

خرج الشيخ «الخضيري»من الجامع الأزهر بعد أن صلى العشاء جماعة، فوجد زوجته في انتظاره، همَّ نحوها، فقالت له:

ـ «إبراهيم بك السناري» ينتظرك في الدار.

كان «السناري» مجهدًا فوقع في سِنة من النوم على حاشية طويلة ملضومة من صوف الغنم مفروشة فوق حصير من الحلفا، ممددة تحت الأريكة المسنودة إلى جدار بصالة البيت. جاء «الخضيري» وجلس إلى جانبه، وسمع غطيطه الخفيض. مد إصبعه وغمسه في كتفه، فتململ قليلًا، ثم فتح عينيه، ونهض يتلفت حوله، وقال:

ـ أعتذر عن دخولي بيتك في غيابك.

ـ البيت بيتك يا بك، ومن فيه أختك.

ـ وأنت أخي.. ليس لي أخ في هذا البلد سواك.

ـ هذا من كرمك.

تنحنح وألقى طلبه على مسامعه:

ـ أريدك أن تعبر إلى «بولاق» وتأتيني بـ «زينة» في سرية تامة.

وجاءته متلهفة، وتركهما «الخضيري» وزوجته، فأخذ يديها لتنام بين كفيه، وقال لها:

ـ وصلني رسولك، وفضلك عليَّ كبيرًا.

وضعت يدها فوق خده، وقالت:

ـ ليس بيننا ما يطلب كلامًا عن فضل ولا عدل، إنما هي المحبة.

تساقطت دمعتين من عينيه، وقال:

ـ شوقي إليك يجرفني، وأتوق إلى أيامي معك في بيتنا الذي أخرجونا منه.

رفعت وجهها إلى السقف، وقالت:

ـ سترجع هذه الأيام..لديَّ شعور قوي بأن رجوعها قد اقترب.

ـ تأتيني الأخبار عن قرب رحيل الفرنسيس، لكن أخشى أن تنقلب الأحوال فيبقون هنا، ليطول بعادنا.

تذكرت ما سمعته من «دوبريه» فابتسمت وقالت:

ـ الضابط الفرنساوي أخبرني بأن وجودهم هنا لن يطول.

وجاء «الخضيري» بصينية عليها عنب وبلح ومانجو. وضعها أمامهما وقال:

ـ تصبيرة حتى يجهز العشاء.

مد «السناري» يده والتقط حبتين من العنب، مد إحداها إلى فم «زينة» ورمى الثانية في فمه، وقال:

ـ لديَّ مهمة لا بد من أدائها في قلب الليل وأنت معي، و«زينة»
لا يجب أن تغيب طويلًا، حتى لا ينتبه أحد إلى غيابها.

وأمام «الخضيري» طمأنته على الخبيئة، وشرحت له كيف ذهبت إلى هناك مرة واحدة بدعوى أنها فلاحة تريد رسمًا من «ريجو»، فتابعها صامتًا، ثم قال:

ـ دومًا تبهرني فطنتك كما يبهرني جمالك.

وخرجت «زينة» فصحبها خادمها الذي جاء معها، وبعد دقائق خرج «السناري» و«الخضيري» وغاصا في ظلام الحارة حتى انتهيا إلى فسحة في طرف «الموسكي»، وجلسا على طرفها تغشيهما أضواء النجوم الزاهية، وخيوط النور التي تمكنت القناديل المعلقة على فوهات الحارات الجانبية من أن توصلها إلى رأسيهما.

قلب «السناري» يديه فلمعت الخواتم في أصابعه، خلعها جميعًا، ومدها نحو «الخضيري» وقال:

ـ هذه من أنفس أنواع الزمرد، لم أضعها في إصبعي إلا لمثل هذه الأيام.. بعها، إلا واحد فهو هدية لشخص اسمه «جعيدي» تعرفه «زينة» جيدًا، وقَسِّم ثمن البقية بين حريمي، فلا أحد يدري ما تخبئه لي الأيام المقبلة.

شعر «الخضيري» بحرج بالغ، وقال:

ـ القادم خيرًا، ولا تفعل ما يقوم به المودعون.

ـ ليس وداعًا، إنما بيتي في حاجة إلى مال، عينا «زينة» فضحت لي ما كتمته حين سألتها عن أحوال أهل البيت، كما أن مثل هذه الخواتم في أصابعي لا تتناسب مع هيئتي التي يجب أن أكون عليها مختبئًا في المحروسة، حتى يأذن الله برحيل الفرنسيس.

صمت «الخضيري» برهة ثم قال:

ـ لوازم بيتك عندي حتى تتكشف الغمة.

ضحك «السناري» وقال:

ـ كريم أنت، وهذا أعرفه، لكنني أعرف أيضًا أن حالك بسيطة،
ولا قبل لك بما يحتاجه أناس اعتادوا العيش في بحبوحة.

وكان ما قاله «السناري» صدقًا، فلم يجد ما يقوله سوى أن يسأله:

ـ علامّ تعتزم في الأيام المقبلة؟

سأشتري حمارًا قويًا، وأعمل عليه، بعد أتخلص من ملابسي تلك، وتساعدني أنت على اقتناء ثوب واسع مرقوع، ومركوب من الجلد الرخيص، وأن تقدمني لشيخ طائفة الحمَّارين على أنني عبد أعتقه سيده، ويريد أن يرتزق من شغل شريف.

ونظر إلى النجوم الزاهية وواصل كلامه:

ـ لا يجب أن تنقضي هذه الليلة إلا وأكون حمَّارًا، ولتكري لي غرفة قديمة على أطراف الأزهر، حتى يكون بوسعي أن ألقاك كلما أردت.

ضرب «الخضيري» كفًا بكف، وضحك وقال:

ـ جار الزمن على البكوات فصاروا حمّارين.

ابتسم «السناري» وقال:

ـ وماذا كنت أنا في أول الطريق..لو رأيت «مراد بك» وهو يتلوى من الألم قبيل احتضاره، لعرفت أن حمَّارًا سعيدًا خير من بك ذهبت عنه عافيته.

وصمت قليلًا وواصل:

ـ كنت إلى جانبه في اللحظات الأخيرة، ورأيت جبروته يذوي، ويبكي كطفل شريد جائع، ويرفع يده إليَّ، وكأنه يريدني أن أفعل ما يبقيه على قيد الحياة ولو دقائق. وقبل أن يغمض عينيه راحلًا بصق وسالت بصقته على خديه، وقال: هذه بصقة على رجل ضيّع عمره فيما كان يظن أنها الحياة، هو أنا.

وأدرك «الخضيري» أمرًا فسأله:

ـ ألا يعلم أحد بوجودك هنا؟

ـ لا، قلت للمماليك الذين اصطحبوني إنني ذاهب في مهمة سرية إلى «يافا» ولم أخبرهم بموعد للعودة.. كذبت مضطرًا.

ـ خيرًا فعلت، إنك في حرب، والحرب خدعة، وأنت تعرف أكثر مني أن المماليك لا عهد لهم، وقد يخونوك، أو يضطر أحدهم إلى ذلك.

أخذ نفسًا عميقًا كأنه خارج للتو من لجج الماء أو مصدور خنقه دخان ثم خرج إلى الهواء الطلق، وقال:

ـ لا يجب أن نضيع وقتًا، اختر لي مزينًا تثق فيه، لأحلق لحيتي وشاربي وشعر رأسي، وبعدها سأشتري طاقية من صوف الغنم، وأكبسها فوق هامتي، وحتى الجرح الذي كان في ساعدي، وقد يدل عليّ من عرفني أيام إصابتي في إحدى معارك الصعيد، سأضع فوقه جبيرة، ولن أرفعها حتى يرحل الفرنسيس عن مصر.

وقال «الخضيري»:

ـ المزين الذي أذهب إليه دومًا رجل ماهر في صنعته، وسأخبره بأنك قريب لي من الصعيد.

ـ هل تضمن أنه لم يرني من قبل؟

ـ هذه مضمونة، لأنه جاء إلى المحروسة قبل سنة من «دمياط» سعيًا وراء رزقه.

ـ هذا هو المطلوب.

وقاما نحو بيت المزين في عطفة «شومر»، فجلس أمامه «السناري» تحت قنديل واهن الضوء، لكن عين المزين كانت حادة إلى درجة أنه لم يضرب مقصًا واحدًا ولا موسى في غير موضعه.

وكعادة الحلاقين لم يكف الرجل عن الثرثرة وهو يعمل بهمة شديدة إكرامًا للشيخ «الخضيري» كما قال، فحكى أنه قد قضى طفولته في «المنصورة» مع أبيه، الذي أغلق حانوته هناك بعد أن تراكمت عليه ديون طائلة من كثرة المكوسات التي كان يأخذها المماليك، عليهم لعنة الله، وعاد إلى مسقط رأسه في «دمياط».

وسأله «السناري»:

ـ وهل تتذكر أيام المنصورة؟

فوجدها فرصة سانحة كي يواصل ثرثرته:

ـ أيامها لا تُنسى، كان لأبي صديق جاء من السودان، فيه شبه منك، أتذكر أنه يشبهك، وهذا عادي فكثير من السود يتشابهون، لكنه كان له باع طويل في السحر ومعرفة الطالع، وقد أبلغ أبي أن عيشه في «المنصورة» قد انقطع، وأن رزقه يناديه في «دمياط»، وأقرضنا مقابل ديننا، لكن أعتقد أن أبي مات قبل أن يرد له القرض.

وخرجا من عند المزين يتبادلان ضحكًا مكتومًا فلماابتعدا عنه، قال «السناري» للشيخ «الخضيري»:

ـ فعلًا مزين مضمون.

وانفجرا ضاحكين، ثم قالا في نفس واحد:

ـ الدنيا ضيقة.

صار الرجل الذي دخل بيت المزين غير الذي خرج منه، وطلع النهار ليجده حمَّارًا يذرع الشوارع والفسحات بحثًا عن أي زبائن، دون أن يتشدد أبدًا في تحديد أجره، فما يخرجه الراكب من جيبه، يأخذه دون أن ينظر فيه، حتى سأله رجل طاعن في السن بعد أن أوصله إلى «درب الحبَّالة»:

ـ هل أنت غريب عن بر مصر؟

وفزعه السؤال، وخاف أن يكون الرجل قد تشكك فيه فردَّ على السؤال بسؤال:

ـ وهل أبدو غريبًا؟

ردَّ الرجل وهو ينزل ويمد يده ليساعده في النزول من على ظهر الحمار:

ـ إن لم تكن غريب الدار فأنت غريب الأطوار، فمنذ صباي وأنا أركب حميرًا في هذا البلد، فلم أجد أيًا من الحمارين لا يفاصل ويجادل في أجرته.

ابتسم «السناري» وقال له وهو يسنده حتى تحط قدماه على الأرض:

ـ خليها على الله، ربك يبارك في القليل فيصير كثيرًا.

وفي يوم كان يوصل زبونًا إلى «حمَّام كولوغلي» وما إن نزل حتى نادته سيدة بدينة:

ـ وصلني عند «بيت السناري».

اهتز حين سمع اسمه، وتردد في أن يستجيب لطلبها، لكنها كانت قد وضعت كفيها على بردعة الحمار ونادت صبية مارة كي تساعدها على الركوب، جرها ومشى نحو بيته غارقًا في ذكرياته.

وأمام المقهى القريب من البيت طلبت منه أن ينزلها فأنزلها، ودست في يدها أجرته، ومضت تدب على الأرض نحو مدخل بيت عتيق.

نظر نحو مدخل المقهى فوجد «حسن جعيدي» جالسًا كالمعتاد، ظهره إلى درفة الباب، ووجهه نحو «بيت السناري».

ربط الحمار في شجرة أمام المقهى، وسحب مقعدا وجلس إلى جوار «حسن» الذي كان ذاهبًا في شرود طويل، فلم يشعر بأن أحدًا قد جاء وجاوره.

غمزه «السناري» في كتفه فتنبه، وهو يقول:

ـ أهلًا وسهلًا.

ـ أهلا يا «حسن».

نظر في وجهه مستغربًا، وسأله:

ـ أتعرف اسمي؟

ـ اسمك ورسمك، وغيرهما معروف لديَّ.

ـ في كل الأحوال، أهلًا بك.

وضرب كفيه مناديًا النادل، وسأل ضيفه الغريب عما يريد أن يشربه، فطلب «قهوة» ونارجيلة. وما إن مضى النادل حتى سأله:

ـ ألم تعرفني حقّا؟

نظر في وجهه مرة أخرى، والشكوك تساوره، لكنه قال:

ـ لم يحصل لي هذا الشرف.

ابتسم وقال له بصوت هامس:

ـ أنا «إبراهيم كتخدا السناري»، ثم مده يده سريعًا ليغلق فمه ويمنع صرخة كانت ستخرج وتلفت انتباه كل الجالسين.

وقبل أن ينطق «حسن» عاجله «السناري» وهو يمد إصبعه نحو الحمار:

ـ أتخفى في هيئة حمَّار، ليس فقط من الضابط الفرنساوي، فهذا مقدور عليه، إنما أيضًا من الأتراك، الذين سيذهب الفرنسيس ويتركوننا فريسة لهم.

تعجب «حسن» من كلامه، وقال:

ـ الترك شركاؤكم في الحكم، هذا ما كان يجري قبل مجيء الفرنسيس، وسيصير بعد رحيلهم.

ـ لا، لن يصير على النحو الذي كان، ولديَّ شواهد على ذلك، وحتى «مراد بك» كان يستعد لمعركة مع بني عثمان، بعد رحيل بقايا «جيش الشرق» الفرنساوي.

كان «السناري» يحكي بصوت خفيض، لا يصل إلا إلى أذن «حسن» اليمنى، الذي راح يهز رأسه دون أن يعقب على ما يسمع، فهو يعرف أن من يتكلم أدرى بشئون السياسة منه، وأنه من العبث لواحد من عموم الناس أن ينشغل بأمور الحكم مثل واحد من أهله. في النهاية لن تختلف أحواله، ولا من هم مثله، إن تصارع المماليك والترك أم تصالحا. فهم بين شقاق ووفاق، تتقلب أحوالهم في أطوار من الرغد والتجبر، بينما أولاد البلد على حال ظالم واحد.

كان «السناري» يتكلم وعيناه ذاهبتان إلى بيته، الذي لم يدخله منذ أن استدعاه «مراد بك» قبل معركة «إمبابة». فجأة توقف، وسأل «حسن»:

ـ هل يحتاج الرسام إلى صورة حمَّار؟

سكت «حسن» برهة، ثم أجابه:

ـ أعتقد أننا لو عرضنا عليه هذا سيفرح.

ـ إذا كان الأمر كذلك فأنا..

قاطعه «حسن»:

ـ هناك مشكلة في هذا الأمر، فالرسام يهدي صوره لساري عسكر، ومن يدري لعل أحدًا من

زائريه، خاصة من شيوخ الديوان، يراها عنده فيعرفك.

ضحك «السناري» وسأله:

ـ كم من الوقت يستغرقه «ريجو» في رسمي؟

ـ ساعات طويلة، يقسمها على أيام.

ـ إذن، ليست هناك مشكلة، أنا لن أمكنه من رسم شيء، فكل ما أريده هو دخول البيت الذي سرقوه مني، فهذه أمنيتي.

ـ إذا كان الأمر كذلك فستمر الأمور بسلام.

عاد «حسن» إلى الصمت، وعاد «السناري» يسأله:

ـ متى يمكنني دخول البيت؟

ـ سأذهب الآن لأبلغ «ريجو» وأعود إليك.

وعاد بعد ربع ساعة يقول:

ـ يمكنك الآن أن تدخل بيتك، وقد اشترطت أن تتفرج عليه قبل أن تجلس في المرسم.

تهللت أسارير «السناري» وجرى نحو الحمار، ففك قيده، وسحبه خلفه حتى دخل حارة «موسى جاويش».

وما إن رآه «ريجو» حتى صاح:

ـ حمَّار أسود، يبدو أنني سأفني كل ما تبقى لديَّ من ألوان الفحم.

وسأله «السناري»:

ـ هل سترسمني بمفردي أم مع حماري؟

ضحك وقال:

ـ أنت والحمار، مرة وأنت راكبه، وأخرى وأنت بجانبه.

ابتسم «السناري» وقال له:

ـ سأكون تحت أمرك، لكن أريد أن أتفرج أولًا على هذا البيت الذي سمعت الناس يفرطون في وصفه.

أشار «ريجو» إلى «حسن» وقال:

ـ هو يعرفه جيدًا ويمكنه أن يصطحبك.

وتمتم «السناري»: «لا أنت ولا هو تعرفانه، أنا فقط من يعرفه في بر مصر، فكل حجر فيه أعرف من أين أتى، وكل جدار أعرف من بناه، وكل مشربية وشخشيخة وثريا أعرف من أين تم ابتياعها، وكل قدمين دبت هنا لها معي ذكرى».

توقع «حسن» أن يذهب «السناري» مباشرة إلى الدهليز، الذي وقفت فيه «زينة» ثم جثت على ركبتيها، وأخرجت من جيبها مفتاحًا، ورفعت حجرًا رقيقًا تعرف أنه باب لكنز ثمين. وقد ذهب «حسن» نفسه ذات مرة، ورفع الحجر، فلما رأى الصندوق غلبته الدهشة، لكنه لم يلبث أن تماسك، وتركه مكانه إلى أن تحين اللحظة المناسبة. فلو رفعه سيراه أي من الفرنسيس، وسيسلبونه، أما إن

تركه وتابعه من بعيد، فربما يؤول في النهاية إلى «زينة» بعد موت «السناري» فيكون له نصيب فيه، أو يسطو عليه إن ضمن الخروج به في أمان، وقال لنفسه: «من يدري أن يكون هذا الصندوق هو الذي يجعل زينة تأتي إليَّ خاضعة في النهاية بعد أن يغمض السناري عينيه إلى الأبد».

وأحيانًا كانت تتوارى مطامعه،ويقول لنفسه في عزم: «إذا انتهت هذه الثروة لي، سأجعل لأصحابها الحقيقيين خيرًا كثيرًا فيها.. إنها جمعت من قوت هؤلاء الغلابة الذين يدبون في الشوارع كنمل جائع، ومن العدل أن يعود إليهم ما سلب منهم».

وكان يتذكر ما قالته له «زينة» قبل أن ينطلق خلف «السناري» إلى «الفيوم»: «في هذه المهمة خير للبلد، التي لا ينتهي حبها من قلب أبنائها الشجعان مثلك».

توقف «السناري» طويلًا عند القاعة الكبرى، التي كان يجلس فيها، سيدًا مهابًا، يستقبل القادمين إلى بيته بمطالبهم ومظالمهم وشكاواهم، فلما وصل إلى الحرملك، جلس في الركن، ومال على جنبه، وبانت في عينيه صورة «زينة» هكذا رآها «حسن» حين اقترب منه، وقال له:

ـ الفراق صعب.

لم يرد عليه، فقد كان مأخوذًا بنداء يأتي من نفسه، وفي غنى عن أن يسمع أي شيء يقال حوله أو بجانبه.

وطال جلوس «السناري» حتى خاف «حسن» من أن يأتي «ريجو» خلفهما، ليبحث عنهما، وقد يشك في هذا الحمَّار، إن وجده على حالته تلك. غمزه في ركبته، وقال:

ـ ألا تريد أن تدور في كل أركان بيتك؟

هز رأسه بالنفي، وقال:

ـ أحفظ كل شبر فيه، هو محفور داخلي، يذهب معي أينما كنت، في حلي وترحالي، لكن لا يحن الإنسان إلى الأحجار إنما إلى من سكنوها.

ومد يده وأخذ يد «حسن»، وقال:

ـ تعال نمر سريعًا على الغرف والدهاليز، لأعرف كم سأنفق من المال لأعيد هذا البيت إلى هيئته التي كان عليها قبل أن يسلبه الفرنسيس مني.

34

خطط «دوبريه» للهرب حين تأكد من أن رحيل الفرنسيس عن مصر بات أمرًا محتومًا. فذات مساء استدعى قايمقام «بليار» بعض الضباط وأبلغهم أن ساري عسكر «مينو» قبل اتفاق «العريش» مع الإنجليز والأتراك وأن عليهم أن يستعدوا للرحيل. كان مكسورًا وحانقًا وهو يقول:

ـ قتل «كليبر» وترك «جيش الشرق» لرجل يصلح فقط أن يقشر بصلًا في مطبخ الجمهورية الفرنسية، قادنا إلى هزائم متوالية حول «الإسكندرية» وها هي «القاهرة» قد حوصرت من الإنجليز في الغرب والأتراك من الشرق، وبتنا نتودد للمصريين حتى لا يثوروا، وتنصب فوق رؤوسنا النيران من كل جهة.

في هذه اللحظة فكر «دوبريه» كيف يبقى إلى جانب «زينة»، وهو يقول لنفسه: «لن أعود إلى بلد ليست فيها إيلين، وسأبقى هنا حيث شبيهتها. إنها معركتي الخاصة، وإن كنا قد هزمنا في المعركة الكبرى، وتبدد حلمنا في أن نحقق ما أردناه باحتلال مصر، فحلمي أنا في الظفر بهذه الحسناء لم ينته بعد، ولا يجب أن يصبح كابوسًا يشبه ذلك الذي يعيشه كل الفرنسيين».

كان أول ضابط يقوم من جلسة الاستسلام تلك، ويمضي نحو الباب الخارجي لقصر الألفي، الذي انتقلت منه «زبيدة» زوجة «مينو» قبل ساعات لتقيم بقلعة الجبل ومعها أغراضها التي حملتها من «رشيد».

بدا منهكًا ومشتت الذهن، وانتابه شعور جارف بالوحدة والغربة والضياع. وحين لاحت لعينيه حديقة «الأزبكية» تهكم من فرنسي يقبض بيمينه على واحدة من بنات الهوى، ويتودد إليها كي تكون له هذه الليلة. اقترب منه وناداه في غيظ فأتى إليه مسرعًا يقطر خجلًا، حدجه بنظرة غاضبة وقال:

ـ ألم يأتك نبأ استسلامنا واستعدادنا للرحيل.

صمت برهة، وهو يرسل عينيه إلى قدميه، ثم نطق:

ـ أبحث في لياليَّ الأخيرة عن انتصار ولو في فراش غانية.

وأصاب رده «دوبريه» بحرج بالغ، وهو يشعر أن هذا الرجل، المستسلم هو الآخر للذة عابرة، قد اقتحمه، وكشف ما يدور برأسه، خاصة حين واصل:

ـ جئت إلى هنا على غير رغبة مني، لكن يمكنني أن أبقى برغبتي.. ألم تنادي ثورتنا بالحرية، فلماذا تكرهونني على المجيء، وتكرهونني على الرحيل؟

في هذه اللحظة بدا متعاطفًا مع الرجل، فمد يده إليه، وقال:

ـ لكن في بقائك خطر عليك.

طوح يده في الهواء، وقال:

ـ لست وحدي الذي سيخاطر، فقد سمعت أن كثيرين سيبقون، علماء وعسكر وتجار، كلهم يقدرون ما أقدره، فالخطر قائم في كل الأحوال، وما يدريك أن ينقض الإنجليز العهد ويحطمون بقايا أسطولنا في البحر ونموت جميعًا غرقى، وتأكلنا الأسماك الجائعة.. هنا على الأقل إن قُتلت أو مت بعد عمر طويل سأجد بقعة أرض تحوي جثتي، ولست كبيرًا مثل «كليبر» الذي تفاوضتم على نقل رفاته، وستؤدون لعظامه النخرة التحية كأنه عائد مظفر من معركة فاصلة.

بلع «دوبريه» لسانه، ومضى يمشي بقدمين ثقيلتين حول سور الحديقة، التي بدت في عينيه شاحبة، وكأنها ترثي حال من شيدوها للعشاق،
وها هم يستعدون لتركها لمن سخروا منها، ونددوا بها على منابر الجوامع، واصفين إياها بأنها أرض الفسق والفجور والتهتك والعهر.

فكر في أن يعبر إلى جزيرة «بولاق» لكنه خشي أن تكون «زينة» قد وصلها نبأ استسلام الفرنسيس، وتسمعه ما لا يطيق، وقد تصرخ في وجهه، فيتجمع أهل الحارة، ويفتكون به. لكن فضوله وشغفه وشوقه كانوا يدفعونه للذهاب، وقال لنفسه: «يجب أن أخبرها أنني سأبقى من أجلها، وأقول لها ما نقوله لبقية الناس في المحروسة بأننا سنعود، وقد لا نخرج لأن أساطيل وعمائر فرنسية ضخمة تحركت في عرض البحر لمساعدتنا على الصمود والبقاء».

لكنه تذكر أمر الحامية التي لا تزال باقية في «بولاق» وفيها كثيرون من الجنود الذين يدينون له بالولاء، وقال لنفسه: «سأصطحب عشرة منهم، أو عشرين، وأبلغهم أنها مهمة رسمية كلفني بها قائمقام «بليار»، وعندها لن يتأخروا في مؤازرتي، ولن يكون هناك وقت لقائدنا ليصل إليه شين ما أفعل».

وأشار إلى مكاري بدين كان يمشي بخطوات ثقيلة خلف حمار نحيل، فتعلل الرجل بأنه متعب، وسيعود إلى بيته. بصق «دوبريه» وقال: «حتى الحمَّارين يتهربون منا، ويتصرفون معنا على أننا بتنا أناسًا بلا حول ولا قوة».

في هذه اللحظة ظهر «السناري» وراء حماره، وقد كان يمكث على قرب من قصر الألفي يلتقط أي خبر يطمئنه إلى أن الفرنسيس يستعدون لإنهاء وجودهم في بر مصر. ناداه «دوبريه» فتوقف أمامه، وهو يمسك رسن حماره العفي، فلم يستأذنه، وقفز فوق الحمار، وقال:

- خذني إلى شاطئ «بولاق».

نطقها بالعربية الفصحى، فوجدها «السناري» فرصة كي يعرف الكثير عما قرره الفرنسيس، ولم يدر الضابط أن الذي يمشي أمامه شادّا الرسن عن آخره هو غريمه الذي يريد قتله.

بادره «السناري» بحديث ودي:

- أيامكم في بلادنا سعيدة علينا نحن الحمارين، فما ركب معنا فرنساوي إلا وأجزل لنا العطاء.

اعتقد «دوبريه» أن الرجل يمهد لأجر مرتفع فتجاهله، لكن «السناري» واصل كلامه:

- نخشى رحيلكم وتتركونا للمماليك والأتراك الظلمة.. كانوا قبل مجيئكم يسخروننا ولا نستطيع الاعتراض.. لك أن تتخيل أن مملوكي ركب حماري قبل ثلاث سنوات ودرت به المحروسة كلها ماشيًا أمامه حتى تورمت قدماي، ثم أنزلته في المكان الذي كان يريده، فصفعني على وجهي، وتركني ومضى.

هنا تدخل «دوبريه»:

- إذا كان الأمر كذلك فلم لا تخرجون في الشوارع معنا كما خرجتم علينا.

التفت «السناري» إلى الخلف حتى صار يمشي بظهره، وقال:

- عموم الناس لا يحركهم سوى الأكابر، الشيوخ والأمراء والتجار.

ابتسم «دوبريه» لنباهة الحمَّار، ثم ذابت ابتسامته في حزنه الدفين، وقال:

- لكن مكر هؤلاء شديد، ويميلون إلى رحيلنا.

وهنا وجد «السناري» فرصة أقوى ليطمئنه:

ـ إنهم ملاعين لا تشغلهم غير منافعهم.

لاذ «دوبريه» بالصمت، ثم نظر إلى الحوانيت المغلقة على الجانبين، وقال:

ـ أرأيت، ها هم يغلقون حوانيتهم، وهذا ما يريده الإنجليز والأتراك، إنهم يعملون ضدنا حتى بالصمت والانسحاب.

طالع «السناري» الأبواب المغلقة، وقال:

ـ لو الأمر بيدي لقبضت على أصحاب هذه الحوانيت، وركبت في أعناقهم أرسانًا، وجعلت الحمير تركبهم، لأنهم قوم لا يفهمون أن صالح أهل البلد هو في بقاء جيشكم.

وتنحنح، واعتدل فأعطى ظهره للضابط الفرنساوي، وأخرج لسانه مرة أخرى وقال:

ـ أتعرف من هو الأكثر فهمًا في بر مصر؟

ـ من؟

ـ «يعقوب القبطي»،الذي عرف مبكرًا أنه لا خير لا في المماليك ولا الأتراك.

ردَّ عليه «دوبريه»:

ـ حتى هذا الذي تراه أفهمكم لن يبقى هنا، فقد قررنا أن نأخذه ورجاله معنا، وبعض الأروام والسوريين، كل من قدموا لنا خدمات جليلة، ونخشى الانتقام منهم بعد رحيلنا.

اتسع السرور على صفحة وجه «السناري»، لكنه جارى «دوبريه» ليأخذ منه أكثر، فقال:

ـ سمعنا أن هناك مددًا لكم في الطريق.

نفخ «دوبريه»:

ـ من أسف فقد فات الأوان، وانتهى الأمر إلى رحيلنا، وهذا لا رجعة فيه.

رقصت الفرحة في نفس «السناري»، وقال للضابط:

ـ يعز عليَّ فراقكم، فقد صادقت بعض جنودكم، ولو تعرف موعد الرحيل أخبرني به، لأذهب فأودعهم.

تنهد «دوبريه» بحرقة وقال:

ـ أعتقد أن الرحيل سيكون بعد أيام قليلة.

سكت «السناري» فقد وصل إلى ما أراد، لكنه فوجئ بـ «دوبريه» يقول له:

ـ أنا لن أرحل، سأبقى هنا، فقد وقعت في هوى المحروسة.

تعجب «السناري» والتفت إلى الخلف مرة أخرى، ونظر مليًّا في عيني الضابط ليعرف ما إذا كان يمزح أم هو جاد، فوجده مطرقًا في حزن، فقال له:

ـ من يبقى معنا لا يجب أن يحزن.

تنهد مرة أخرى وقال:

- ليس بيدي أيها الحمَّار الطيب.

كانا قد اقتربا من الشاطئ، وظهر جنود فرنسيون يقفون صفين، وأمامهم ضابط يأمرهم، فيرفعون أرجلهم ويضربون أقدامهم في الأرض بشدة، وبنادقهم مسنودة إلى أكتافهم، وعيونهم مصوبة إلى الأمام،
لا يلتفتون يمنة ولا يسرة.

حين رآهم «دوبريه» سرت في نفسه طمأنينة، وقال لـ «السناري»:

- لك أن تحدد أجرك كيفما تقدره.

ابتسم وقال له:

- سآخذ منك أجرين.

- لا بأس، سأعطيك ما تريد.

- لا، أريد حقي فقط، لكن الأجر الثاني على قراءة كفك، فأنا لي في هذا باع طويل.

تهللت أسارير «دوبريه» وقال:

- جئت في وقتك، فأنا في حيرة شديدة حيال أيامي الآتية في هذا البلد.

- سأقرأ طالعك، وهذه هدية مني لك.

- لا، بل ستأخذ أجرك.

ابتسم وقال له:

- اعتبرها عربون صداقة آتية، إن كان لي شرف صداقتك.

غمغم «دوبريه» قائلًا في نفسه: «بعد رحيل الجند، سأصير أنا من يسعى إلى شرف صداقتك أيها الحمَّار».

ونزل من فوق الحمار وأعطى كفه اليمنى لـ «السناري»، الذي فردها بأصابعه، ونظر فيها مليًّا وقال:

- خط القلب يشي بأنك عاشق.

نظر «دوبريه» إلى «السناري» وقال بعد أن اغتصب من أوجاعه ابتسامة فاترة:

- يا لك من رجل خطير، أنا بالفعل كذلك.

ثم رفع وجهه نحو بيوت «بولاق» التي كساها صفار شمس العصر، فوهبها شجنًا وألفة، ومد سبابته في الهواء، وقال:

- معشوقتي في واحد من هذه البيوت، لكنها بخيلة رغم كرمي معها.

بدأت الشكوك تساور «السناري» لكنه تحايل من جديد، فسأله:

- وهل سترحل؟ أم ستبقى معك؟

- ستبقى طبعًا لأنها مصرية.

تحمل «السناري» ألم نفسه الذي انطلق ضاريًا، وداس فكه العلوي على السفلي، حتى أن «دوبريه» شعر بتغير مزاجه، فضحك وقال:

ـ أتغير عليها لأنها من بلدك، اطمئن فأنا لم أنل منها شيئًا، لأنها ببساطة تحب رجلًا هاربًا من الذين تكرههم أنت، رغم أنه أسود مثلك، وأعدك إن وجدته سأقتله، سواء كان جيش الشرق موجودًا أم رحل.

وغطت حمحمة الجنود المصطفين على صوتيهما، فنظر «السناري» إليهم، وقال:

ـ لا بد أن أعود لأولادي قبل الغروب.

فدس «دوبريه» يده في جيبه وأخرج ريالات، ومدها إليه وقال:

ـ خذ منها ما تريد.

ابتسم «السناري» وقال:

ـ تكفيني صداقتك، وهذا تذكار.

وأخذ ريالًا واحدًا، ثم ركب الحمار ورمح، بينما وقف «دوبريه» ينظر إليه وهو منه في عجب شديد.

35

رمح «السناري» نحو بيت «الخضيري» فلم يجده، وقالت له زوجته:

ـ ذهب يبحث عنك في الشوارع.

انزعج «السناري» وسألها وهو في خوف:

ـ خير؟

ـ يقال إن الفرنسيس يقبضون على الحمَّارين من الشوارع.

انتبه «السناري» إلى أهمية ما سمع، وقال لها وهو في فرح:

ـ قطعًا سيسخرونهم الفرنسيس في حمل أمتعتهم من قلعة الجبل والقصور والبيوت التي اغتصبوها إلى المراكب التي ستحملهم إلى البحر المحيط.

ابتسمت زوجة «الخضيري» وقالت، وهي تزاور بعينيها بعيدًا:

ـ ليس هذا، والخبر عند الشيخ.

وقالت له:

ـ يمكنك أن تدخل الحمار إلى بيتنا، حتى لا يأخذوك به.

هز رأسه وقال:

ـ أدخليه، وأنا سأنتظر «الخضيري» على مقهى قريب.

على المقهى وصل الخبر إليه دون جهد منه، إذ كان الجالسون يتحدثون عن امرأة اسمها «هوى» تركت زوجها وصارت عشيقة لضابط فرنساوي يدعى «نيقولا» هربت من القلعة على حمار، واختبأت في إحدى الحارات.

وقال أحدهم وهو ينفخ دخانًا كثيفًا من منخريه:

ـ سمعت أنها سرقت مالًا وذهبًا.

وقال آخر:

ـ ما ذنب الحمَّارين أن يجمعوهم ويعاقبوهم؟ وما جريرة سكان الحارات أن يهددوهم بحرق بيوتهم إن لم تظهر هذه الخاطئة؟

وسخر ثالث:

ـ هل «هوى» اسمها أم فعلها؟

وقهقه الجالسون وتصايحوا، وبدا في الفسحة رجلين يقبضان بيديهما على إناءين تفوح منهما رائحة الزيت، وعلى وجهيهما أسف. وجلسا على مقعدين متقابلين بالمقهى، وقال أحدهما وهو ينفخ في ضجر:

ـ لا يوجد زيت بالمحروسة، لا لطعامنا ولا لإنارة القناديل، وشح اللحم والغلال ، رطل اللحم أصبح بتسعة أنصاف، والدجاجة بأربعين، والسمن بخمسة وثلاثين، ورطل زيت السيرج بعشرين، ورطل

الصابون بثمانين فضة، وقنطار البصل بأربعمائة فضة. أثمان فوق قدرتنا، ولا يعلم أحد متى تنتهي هذه الورطة.

وردَّ عليه صاحبه:

ـ حتى الينسون لم يعد موجودًا في سوق الأبزار، وإن وجد فالأردب وصل إلى خمسمائة ريال.

وقال الآخر:

ـ درت الشوارع والحواري على قدميَّ، فالحمارون اختفوا، ورأيت عشرة منهم يسيرون ماسكين أرسان حميرهم، وأمامهم وخلفهم جند من الفرنسيس.

وتدخل رجل يجلس في منتصف المقهى، وفي يمينه السوربيت، وفي يساره النارجيلة:

ـ الإنجليز مسكوا النيل من ناحية بحري والصعيد، ومنعوا كل شيء، والأتراك أمسكوا بتجار اللحوم والغلال القادمين من الصحراء.

وتدخل رجل طاعن في السن:

ـ سمعت أن «عثمان بك البرديسي» سافر إلى الصعيد ليسوق المراكب بالأقوات، وسيساعده في هذا فرمانات يحملها بالأمان، وآلاف من عسكر الإنجليز نزلوا من بحر القلزم في «القصير» (15) .

ولاح في جانب الفَسَحة الشيخ «الخضيري» فقام إليه «السناري» بعد أن وضع ثمن القهوة والنارجيلة على الطاولة، وقال له:

ـ أخبرتني زوجتك بأنك تبحث عني.

ـ خفت أن يمسك بك الفرنسيس.

ـ دعهم يتخبطون فأمر استسلامهم بات مؤكدًا، وعلينا الآن أن نستعد لما بعد رحيلهم، ولهذا جئت إليك.

ـ انظر ماذا ترى؟

ـ أريد عشرين من الفواعلية بأجر، يكونون محل ثقتك، ويَجهَزون للحظة التي أحتاجهم فيها.

ـ هذا سهل، لكن ماذا تريد منهم؟

ـ لا بد من أن أدخل بيتي في «الناصرية» فور إخلائه ممن احتلوه.

ـ أليس من الأفضل أن تستعين ببعض المماليك الذين جاءوا معك من الصعيد؟

ـ لا، هؤلاء لا أمان لهم، وقد يثرثروا فيصلوا الخبر إلى الأتراك، فيضعون أيديهم على البيت فور إخلائه من الفرنسيس.

ـ لكن الأتراك إن كانوا طامعين في بيتك، فلن ينتظروا ثرثرة المماليك.

ـ لا، سيجدون حرجًا بالغًا في أن يخرجوني وأهلي منه إن دخلته، لأن هذا سيجعل عموم الناس تنظر إليهم باعتبارهم مثل الفرنسيس، وهو ما يحاولون البرهان على نقيضه طيلة الوقت.

ـ من الممكن أن تستعين بأحد الفتوات؟

ـ لا، هؤلاء تبعتهم ثقيلة، وقد يرتكبون حماقة تكلفني الكثير.

- عين العقل.. سأجهز لك الفواعلية من الآن، ومعي أثمان خواتمك، سأعطيهم نصف أجرهم، والنصف الآخر بعد أن يتمموا مهمتهم.

- لا تخبرهم بحقيقة الأمر، قل لهم إنك تريدهم في إزالة أنقاض بيت قديم في «الناصرية».

- فور أن يدخلوا البيت، سأبقى معهم، ولتذهب أنت إلى «بولاق» تخبر أهل بيتي، ليجهزوا أمتعتهم، ويعودون على الفور.

ثم تذكر أمرًا فقال:

- ليكن هذا بعد أن تبحر مراكب الفرنسيس.

- رأيت بعضهم يحملون أمتعتهم فوق عربات كارو من «الأزبكية» ويسيرون بها ناحية الجنوب، وعلى وجوهوهم كآبة، وسمعت أنهم يبيعون خيولهم وجواريهم ونحاسهم وفرشهم، رغم أنهم يشيعون في الناس أن «بونابرته» قادم بعمارة عظيمة إلى «الإسكندرية»، وأن الإنجليز يتراجعون إلى عرض البحر.

ضحك «السناري» وابتهج كما لم يحدث له من سنوات، ثم لم تلبث ملامحه أن اكتست بجدية ظاهرة وقال:

- الإنجليز أصبحوا في الورايق وإنبابة، (16) ومراكبهم تملأ النيل، وطلائع الأتراك وصلت منية السيرج، وفي لحظة خروج الفرنسيس ودخول الترك، أتوقع أن تعم الفوضى فور خروج الفرنسيس، وإن لم أدخل بيتي فقد يجري إليه من يسكنه.

- لا أعتقد أن أحدًا من الناس جرؤ على هذا، وإن جرى سنخرجهم على الفور.

- لا أخشى هؤلاء، بل الأتراك، الذين يتحينون الفرص. فقد سمعت أن جنودًا منهم قد نزلوا إلى المدبح، ورآهم الفرنسيس فأطلقوا عليهم نار بنادقهم، ودارت بينهم معركة، قتل وجرح فيها كثيرون.

وبينما هما واقفان جاء رجل يجري في اتجاه المقهى وهو يصرخ:

- نفر من عسكر العثمانية وصلوا إلى «الحسينية» وجلسوا على مصطبة مقهى، يشربون القهوة، ويأكلون خبزًا وكعكًا وفولًا مسلوقًا.

فرفع الرجل الآنية الفارغة ورماها على الأرض فأحدث فرقعة شديدة، ونظر إلى كل الجالسين، وقال:

- أبشروا بعذاب طويل.

(15) كان البحر الأحمر يسمى بحر القلزم أيامها.

(16) الورايق هي «الوراق» في زماننا، وإنبابة هي «إمبابة».

36

حين وصل «دوبريه» إلى مقر حامية «بولاق» وجد الجنود يجهزون معداتهم في صناديق ضخمة. كانت قرقعة المعدات مسموعة بقوة من على مسافة بعيدة، تغطي على الهمهمات التي كانوا يصدرونها، على النقيض تمامًا من الحال الذي كان وقت أن كانوا يجهزونها للمجيء إلى مصر. وقتها كان صدح غنائهم له دوي هائل، لا يساويه إلا دوي حديث قادتهم عن سحر الشرق، والإمبراطورية الكبرى التي تُبنى، والحضارة العظيمة التي تمد ذراعيها إلى الدنيا بأسرها.

اقترب منهم وهو يشعر بحرج بالغ وتردد، لكنه تماسك، وتغلبت رغبته على حكمته، وأراد أن يمنح طلبه منهم طابعًا رسميًّا، حتى يضمن تنفيذ أوامره، فوقف على رؤوسهم، وصرخ: قف. وقفوا جميعًا، وأدوا له التحية، فبادلهم إياها. وساد صمت، قطعه هو:

- هناك مأمورية عاجلة تم تكليفي بها، وسيقضيها معي عشرون منكم.

انبرى له صف ضابط، وتقدم حتى وقف أمامه، وسأله:

- أين الأمر المكتوب، لأن لدينا أوامر أخرى؟

أُسقط في يد «دوبريه» لكنه تماسك وقال:

- الظرف الذي نمر به لا يمهلنا لكتابة الأوامر، قائمقام كلفني بنفسه، بعد انتهاء اجتماع «الأزبكية».

وهنا ظهر ضابط كان في غرفة داخلية، وسأل:

- ما طبيعة المأمورية يا حضرة الضابط العظيم؟

تلعثم «دوبريه» ثم نطق بجسارة:

- ليس مسموحًا لي بذكرها إلا في مكان تنفيذها.

هنا قهقه الضابط وقال:

- معي أمر مكتوب بتجهيز الحملة للرحيل، والذي تدعي أنها مأمورية، ليست سوى نزوة أخيرة لك في المحروسة.

صرخ «دوبريه»:

- كيف تجرؤ على أن تتحدث بهذه الطريقة مع ضابط أرفع منك؟

- إن كنت رفيعًا حقًّا، فلم تسخر جنود الجمهورية الفرنسية من أجل رؤية امرأة تحتقرك؟

عندها أدرك «دوبريه» أن أمره افتضح، وأنه لو عاد مع الحملة فقد يتسلون على وجعه ساخرين حتى شواطئ فرنسا. تقدم وهو يعرف أن هذه اللحظة هي آخر عهده بالعسكرية الفرنسية، ثم لطم الضابط على خده، وتكاثر الجنود بينهما فحالوا دون وقوع مشاجرة حامية، ولم يجد الاثنان سبيلًا للتناحر سوى بتبادل السباب، وكل منهما يحاول أن يفلت من ماسكيه ليصل إلى غريمه، بلا جدوى.

وفجأة انسل «دوبريه» إلى الخارج، وغاص في الظلام، تاركًا الضابط الآخر يواصل شتائمه، ويتوعده بأن يلقيه في البحر الكبير حتى لو كلفه هذا أن يبقى في السجن بقية عمره.

وكانت آخر كلمة سمعها «دوبريه» من صراخ الضابط الغاضب: «أنت خائن، وأنا سأثبت خيانتك حتى أمام بونابرت نفسه».

ابتعد عنهم كثيرًا وهو لا يعرف إلى أين يسير؟ ثم جلس على الشاطئ، وخلع بيادته، ورمى قدميه إلى الماء، فتخللت أصابعه، وشعر ببرودتها القليلة في فمه، بعد نهار قائظ، فمال بجسمه وغرف حفنتين وشربهما، متذكرًا ما كان يسمعه من المصريين دومًا: «من يشرب ماء النيل، لا بد أن يرجع إليه».

كان كل ما يشغل باله هو كيف يختفي عن الأنظار أيامًا حتى ترحل الحملة. انتابه إحساس جارف بأن كل ما يربطه بماضيه يتقطع، بل شعر أنه لا يصلح أن يكون مقاتلًا من الأساس، يزهق أرواحًا بضغطة بسيطة على تتك بندقيته من أجل أن يساهم في دفع رجل واحد إلى قمة التاريخ.

وتذكر قائده الكبير «بونابرته» الذي يخطط للمعارك الكبرى أمام قادة الفيالق والساسة، ثم يختلي بنفسه ليبكي عشيقته وزوجته «جوزفين»، التي يتذلل لها رغم خيانتها له، وعدم إنجابها ولدًا من صلبه، وهي أمنية غالية لديه. وقال: «لديه قدرة عجيبة على أن يحافظ على العاشق والمقاتل متعانقين في نفسه، أما أنا فلا أقدر، ولن أقدر».

وبينما هو غارق في هواجسه رأى فلاحًا يمتطي حمارًا، ويسحب خلفه جاموسة سمينة، ويغني بصوت له طلاوة وحلاوة. خلع «دوبريه» قدميه من الماء، وخطف بندقيته التي كان قد وضعها جانبه، وجرى خلفه حافيًا، فلما رأى الرجل لباسه الفرنساوي، تملكه خوف شديد، وقال مستعطفًا:

ـ ليس لي من حطام الدنيا سوى ما ترى، وقراريط أزرعها ليأكل أولادي، أنعم بها عليّ علي بك عندما غنيت أمامه فأعجبه صوتي، في مصادفة، كان الحظ فيها حليفي.

أشار «دوبريه» بيده ليهدئ من روعه:

ـ أريد مقايضتك، وستكسب.

ـ مقايضتي على ماذا؟

رمى بندقيته على الأرض، وشرع في خلع بذلته العسكرية، وقال:

ـ سأعطيك هذه البندقية وبذلتي تلك مقابل ثوبك ومركوبك المقطوع وطاقيتك الكالحة وتلفيحتك الممزقة.

استغرب الفلاح هذا العرض، ونظر طويلًا في وجه «دوبريه» وهو يقول لنفسه: «هل أصابت الهزيمة هذا الضابط بجنون؟».

وفهم ما يدور في رأس الفلاح، فقال له:

ـ لا حاجة لي بهذا، ولا تظن أنني أنصب لك فخًا، فبوسعي أن آخذ كل شيء منك دون أن أعطيك شيئًا.

والتقط بندقيته من على الأرض، وقال:

ـ في خزنتها رصاصتان، واحدة فقط تكفي لأسلب كل ما معك، وأتركك هنا جثة هامدة، ولن يحاسبني أحد.

وهو على حماره خلع الفلاح ما يلبس، وأعطاه إياه، فخلع «دوبريه» بذلته بعد أن أخذ ما تبقى فيها من مال، وفرَّغ البندقية، ورمى الرصاصتين في الماء، وأعطى الرجل البذلة والبندقية وعشرة ريالات، ومضى.

عبر النيل إلى الشرق، ودخل ماشيًا إلى «باب اللوق»، وسأل الناس عن سكن رخيص، وحين سألوه: من أنت؟ أجاب: رجل رومي أناخ عليه الدهر.

ووجد غرفتين فوق سطح بيت قديم، ليس فيهما سوى حصير وملحفة وحاشية من القطن، وأخرى من الليف، وزير فخاري صغير عليه كوب من الصفيح، وبعض أواني نحاسية صدئة، وقنديل زيت ذو ضوء شحيح، وقادوم ذو يد خشبية طويلة.

رمى جسده على الحصير، ورغم تعبه الشديد لم يزر النوم جفنيه، وبقي مؤرقًا، يحملق في السقف، ويرى في دوائر الضوء الباهت خيالات كل ما مر به منذ أن أتى إلى المحروسة قبل ثلاث سنوات، وحتى اللحظة التي يجد نفسه فيها معزولًا ومحزونًا وجائعًا، لا يعرف شيئًا عما ينتظره هنا.

وجاءه طيف «زينة» فعاتبها: «تركت كل شيء من أجلك، ولا تدرين. كم أنت قاسية يا حبيبتي؟».

وجاءه الرد بطرقات مفزعة كادت تخلع الباب، انتفض مذعورًا، وفتح الباب ليجد خنجرًا في رقبته، ورجلًا طويل الهامة، يصرخ فيه بصوت أجش:

- هات كل ما معك، وإلا قتلتك أيها الرومي الفاجر.

تقهقر إلى الوراء وقال للرجل:

- ليس معي شيء إلا ما يظهر أمامك.

صرخ فيه:

- لا تضيع وقتي، وانقذ نفسك.

فأخرج من جيب ثلاثين ريالًا، ومدها إليه. لكن الرجل تشكك في أنه لم يخرج كل ما معه، فنقل الخنجر سريعًا إلى يسراه، ومد يمناه يفتش جيبه، وهنا قفز «دوبريه» إلى الخلف في خفة، والتقط القلة وضرب بها رأسه فشجها، ثم خلع القنديل ورماه نحوه، فاشتعلت ملابسه، فخرج يجري وهو يصرخ.

واختلط صراخه بزعيق نسوة في الطابق السفلي، وجاءه صوت رجل من بيت مجاور يقول:

- اللصوص المجرمون استغلوا غيبة الحكم وينهبون بيوتنا.

أغلق الباب، وزحزح الزير حتى وضعه خلفه، وبدا نادمًا على أنه قد بَكَّر في التخلص من بندقيته. ولم يجد في الظلام الذي ساد بعد أن انطفأ القنديل خارج الباب، سوى القادوم، فأمسكه في يده، وبقي ساهرًا إلى أن نضح النور في النوافذ الضيقة.

لكن عند الظهر عاد الرجل، وعلى رأسه المشجوج رباط متين، ومعه خمسة أشداء من أصحابه، فخلعوا الباب من مكانه، ولم ينفع «دوبريه» قادومه، فقد تكفل خمسة بضربه حتى سقط بينهم مغشيًا عليه، ولولا أنهم سمعوا صياح الناس لأجهزوا عليه، أما السادس ففتش ملابسه بسرعة، وسرق كل ما معه من مال، ثم قفزوا إلى سطح بيت مجاور، وهبطوا منه إلى شارع خلفي، وجروا نحو «الناصرية».

37

في اللحظة التي جاءه فيها خبر قيام العلماء والفنانين بإخلاء بيته في «الناصرية»انطلق «السناري» على حماره إلى هناك ومعه ثلاثون نبوتًا وبندقية، كان قد اشتراها خصيصًا لهذا اليوم، فوجد «الخضيري» في انتظاره بالقرب من حارة «موسى جاويش» ومعه الفواعلية.

ما إن خرجوا حاملين أجهزتهم وكتبهم ولوحاتهم وأقلامهم على عربات كارو حتى دخل. أبقى الرجال في الفناء ووزَّع عليهم النبابيت وقال لهم:

ـ احموا البيت من الطامعين.

قال أحدهم:

ـ لكن هذا بيت «إبراهيم كتخدا السناري».

ابتسم «السناري» له، وقال:

ـ أنت رجل جدع، أنا من رجال «السناري» والشيخ «الخضيري» شاهد، وسنحافظ على البيت حتى يعود، هو مَن أرسلنا، ومَن دفع لكم أجركم، فإن جاء سيُجزل لكم العطاء.

وقال لأحدهم:

ـ اذهب إلى المقهى القريب، واسأل عن شاب اسمه «حسن جعيدي» فإن وجدته فأتني به، وإن لم تجده فاترك له خبرًا أن يجيء إلى هنا سريعًا فور وصوله.

ثم نظر إلى «الخضيري» وهمس في أذنه:

ـ اذهب وارقب ميناء «بولاق»، وحين تمر من أمامه مراكب الفرنسيس التي تتجمع في «قصر العيني» و«الروضة» و«الجيزة»، فاعبر وآتني بأهلي.

ولم يؤذن لصلاة العشاء في جامع «السيدة زينب» إلا وكانت «زينة» ممددة على سريرها، ترنو إلى نافذة يتسرب منها ضجيج العوام الذين خرجوا من الشقوق لينعموا بساعات قليلة من الحرية، بعد أن خرج الفرنسيس، وقبل أن يملأ المماليك والترك شوارع المحروسة، ببنادقهم وسيوفهم وخيولهم.

نام الرجال، ومعهم «حسن جعيدي» أمام الباب، بعد أن فرش لهم الخدم حصرًا وبسطًا بطول الحارة.

رفع الرجال أكوامًا فارغة من قنينات خمر «البرجندي» و«البرندي»، وألقوها فوق أكوام قمامة في الفسحة الكائنة خلف صف البيوت التي تقع خلف المقهى. ومع قدوم الليل انبعث دخان الحطب من المواقد، وانتشرت روائح الطبيخ تملأ أنوف الأنفار الجائعين، ودارت الرحى على جوال من القمح، وصهل الحصان الأبلق الذي وجد نفسه ينظر باستغراب نحو حمار سمين وقف إلى جانبه خائفًا، ومرَّ السقَّاء بقربه المملوءة يملأ خزانات المياه التي تعتلي الحمامات.

وعند الضحى، بدا «السناري» في غير حاجة إلى الفواعلية الذين صاروا حرسجية، فحين فجَّ النور أرسل إليه «محمد باشا أبو مرق» الذي عين واليًا جديدًا من السلطان العثماني على مصر، فذهب إليه، وعاد منشرح الصدر، ومر بهم وهم يلتهمون فطورهم، فلم يقُل لهم شيئًا غير إلقاء السلام، ثم نادى «حسن» وأعطاه بقية أجورهم، وطلب منه توزيعها عليهم، ثم تسريحهم، إلى غير رجعة.

لكن فرحته راحت تتسرب منه وهو يصعد سلالم البيت، وانهمرت في رأسه هواجس سوداء، ومرت

حياته المترعة بالشقاء أمامه سريعة خاطفة، فكان يرى مع وضع قدميه على كل درجة سلم جديدة صورة مؤلمة صنعتها التقلبات والدسائس والمؤامرات. فلما وصل إلى باب الحرملك كانت الشكوك قد ملأت رأسه، في أن ما سمعه هذا الصباح من وعود قابل للتحقق، بأي حال من الأحوال.

وحين اختلى بـ «زينة» سألها:

ـ هل اطمأننت على الخبيئة؟

ـ انتظرتُ حتى انقطعت أقدام الحريم والخدم عن الدبيب وتسللتُ إلى هناك، ورفعت الحجر الرقيق، ورأيت الصندوق في مكانه، لكنني لم أفتحه، خوفًا من أن ينتبه أحد إليَّ.

ـ حسنًا، لم أعد أملك إلا هذا الصندوق، والأيام المقبلة تحتاج إلى نفقات باهظة كي تعود الحياة في هذا البيت إلى طبيعتها.

ـ لكنك كنت تدخر هذه الخبيئة إلى زمن آخر.

ـ يبدو أن هذا الزمن الآخر قد حان، ولا مناص من أن أتصرف فيها. البيت يحتاج إلى مؤن، والخدم والحرسجية يحتاجون أجورهم، ونريد أن نشتري خيولًا ودوكارًا وبُسطًا جديدة بدلًا من تلك التي دنَّسها الفرنسيس.

ـ وماذا عن لقاء هذا الصباح، ألم يفتح أمامك بابًا للحصول على مالٍ آخر؟

ـ لا أعتقد في هذا حتى الآن، ويبدو أن أيام الالتزام والمكوسات والميري قد ولَّت إلى غير رجعة.

ـ لا تقُل هذا، فالأتراك لن يستغنوا عن جند المماليك.

ـ هم جاءوا بأروام وأرناؤودوسوريين وبعض القبط الذين كانوا مع «يعقوب» ورفضوا المغادرة بصحبة الفرنسيس، وجروا منهم يتصايحون في شوارع المحروسة، وسمعت أن ضباطًا فرنسيس قد هربوا وسينضمون إلى خدمة الترك، وهناك ضباط آخرون مصابون، وقد ينضمون أيضًا بعد تماثلهم للشفاء.

ـ كل هؤلاء لن يغنوا عنكم أبدًا، وحتى لو استغنى الأتراك عن جند المماليك واستبدلوهم بآخرين، فإن لهم في الأمراء من أمثالك حاجة، خاصة أنت الذي تجيد لغتهم، وعملت في خدمة واحد منهم وهو «مصطفى بك الكبير» سنوات، وكنت متفانيًا وبارعًا في أداء المهام التي توكل إليك.

ـ الظروف تغيرت يا «زينة» ولم يعد الأتراك يأمنون جانبي،
لا ينسون أنني كنت أقرب الناس إلى «مراد بك» وقت أن وضع يده في يد الفرنسيس، وراهن عليهم، لكنه رحل عن الدنيا بأسرها، وغادر الفرنسيس أرضنا إلى غير رجعة، وبقيت الإحن والضغائن في نفوس الترك من كل رجال «مراد» وأنا أولهم.

كانت «زينة» تتابعه والخوف ينشب أظافره في روحها، ناظرة إلى اللوحة الوحيدة التي تركها «ريجو» معلقة في الجدار. كانت صورة «جعيدي» الذي جلس في الفناء أيامًا ينفذ كل ما يصدره الرسام من أوامر حتى اكتملت، ولم تُهد إلى ساري عسكر كما كان ينتظر.

لمحه «السناري» بطرف عينه، وسأل:

ـ أليس هذا هو..؟

لم تدعه يُكمل:

ـ هو الذي كان يسافر خلفك بالرسائل.

- نِعمَ الرجل هو! لقد وعدته بمكافأة، وأوصيت «الخضيري» أن يعطيها له إن لم أقابله، والآن أريد أن أقربه مني على قدر استطاعتي.

لم ترد عليه، وراجعت كل ما قرأته في عيني «حسن»، وتمتمت بكلمات لم يسمعها، فسألها عن رأيها، فقالت:

- أنت لا تعرفه جيدًا.

نظر إليها باندهاش، فواصلت:

- وجوده هنا سيثير لنا متاعب لا داعي لها.

- متاعب!

- هو شاب وفيّ، لكنه ينظر إلى أعلى، ولا يقنع إلا بالوصول إلى ما يريد.

- الطموح ليس عيبًا، وحالتي شاهدة.

- طموحه طمع فيما بيد غيره.

- لم أرَ عليه هذا.

- لديه قدرة عجيبة على إخفاء ما في نفسه.

- وما الذي في نفسه؟

- أراه متعلقًا بي، فهو ابن الزقاق الذي قضيت فيه طفولتي وأول صباي، وكان يُلمِّح إلى رغبة في الزواج مني، لولا ساقتني الأقدار إلى قصر «مصطفى بك» وقابلتك، وكان ما كان.

سرت الحيرة في وجه «السناري» واعتدل في جلسته، وأمسك بكتفي «زينة» ونظر في عينيها، وسألها:

- هل كل ما فعله معي كان من أجلك؟

- أعتقد هذا، ولذا أرجو أن تبعده عن طريقنا، فقد يركبه جنون مثلما ركب الضابط الفرنساوي، ويفعل ما لا تُحمد عقباه.

ضرب «السناري» واجهة السرير بقبضة يده وصرخ في غيظ:

- يبدو أن غيابي الطويل جعل كثيرين يطمعون فيما لديَّ.

أزاحت يديه في لطف، وهي فرحة بغيرته عليها، وقالت متدللة:

- اطمئن، لم يمسَّ أحد طرف ثيابي في غيابك، ولم يحلَّ بقلبي غيرك.

وقف في مكانه، فرأى من فتحات المشربية «جعيدي» واقفًا أمام الباب الخارجي يتحدث إلى الفواعلية الذين لم يغادروا حارة «موسى جاويش» بعد. لكن نظراته المتقطعة إلى المشربية، أثارت حفيظة «السناري» ووجد نفسه يقول:

- عينا الشاب معلقتان بنافذتك، وفي هذا ما لا يجب أن أنتظر عليه.

ودفع قدميه في مركوبه، وهبط السلم إلى الفناء، وطلب من الحارس أن ينادي «جعيدي» فجاءه على عجل.

وقف أمامه في أدب، فراح «السناري» يقلب عينيه فيه حتى جعله يرتبك، ويبدأ هو بالكلام:

ـ تحت أمرك يا بك.

داعب لحيته بأطراف أصابعه، وهو ينظر إلى «حسن» مليًّا، ثم قال:

ـ وعدتك بمكافأة، وسأصف لك بيت الشيخ «الخضيري» فقد تركتها لك معه، فاذهب واحصل عليها، ولا أريد أن أراك هنا مرة أخرى.

38

لم يجد «دوبريه» في جيبه سوى خمسين فضة، قلَّبَها في يديه، وغرق في نوبة ضحك طويلة، ثم انهمرت دموعه، وبدا عاجزًا عن فعل أي شيء، فرمى جسده على الحصير ساعة، ثم قام ولبس مركوبه وخرج إلى الفَسَحة، حيث المقهى الواسع.

جلس فِي الركن، وطلب قهوة، وراح يقلب في رأسه ما كان قد اعتزم القدوم عليه، وحدَّث نفسه به وهو يُغطِّس قدميه في مياه النيل: «لديَّ خبرة لا بأس بها في إصلاح الأسلحة المعطلة، ويمكن أن أجد لنفسي مكانًا في سوق السلاح.. أي شغل يدر عليَّ ما أقتات به إلى حين تتضح الأمور»، وتناهى إلى سمعه قول أحد الزبائن لصاحبه:

ـ تقلبت الأحوال، فحتى العاهرات اللاتي منحن أجسادهن سنينًا للفرنسيس تحجبن، وعرضن أنفسهن للزواج من الأتراك الذين دخلوا إلى المحروسة، فصدر أمر يحرم على جند الترك ورجالهم الزواج من مصريات.

ضحك الثاني، وقال:

ـ سمعت أن ضباطًا من الفرنسيس، وجندًا من الأروام، عرضوا أنفسهم للانضمام إلى صفوف الترك، وقبلوهم، مع أن جرم هؤلاء أكبر بكثير في نظري من الغواني اللاتي دفعتهن الحياة القاسية ليصبحن خليلات لغرباء النصارى.

تذكر «دوبريه» أن معه أوراقًا تدل على هويته الأصلية، فنادى النادل، وأعطاه عشرة فضة، واشترى خبزًا وجبنًا بعشرين أخرى، وصعد إلى غرفته، فالتهم طعامه على عجل، وهبط قاصدًا «قلعة الجبل».

نزل من على حمار اكتراه، وأعطى المكاري عشرة فضة، ووقف على حافة جمع من الجند، يتأهبون للصعود إلى معسكر قريب. فلما تحركوا تقدم وصار في قلبهم، وسأل أحد السائرين إلى جانبه:

ـ أذاهبون أنتم للانضمام إلى الجيش العثمانلي؟

نظر الرجل إليه في ريبة وسأله:

ـ هل أنت تركي؟

صمت برهة وردَّ في ثبات:

ـ رومي، لي في المحروسة ثلاث سنين.

تفرس في هيئته وزادت الريبة في عينيه، فقال له:

ـ لا تتعجب، أنا ضابط متخفٍّ.

وحين اختلى بضابط تركي، أخرج له ما معه من أوراق، وقال:

ـ جئت إلى هنا مجبرًا، ولم أغادر مع ساري عسكر، وأضع نفسي في خدمتكم إن أردتم.

ابتسم الضابط له، وقال:

ـ نحتاجك في تدريب جند من المماليك والترك والأروام والسوريين.

تهللت أسارير «دوبريه» وقال:

ـ هذه كانت مهمتي مع «جيش الشرق الفرنساوي»، ولديَّ الكثير أقدمه لكم.

نظر إليه الضابط التركي وسأله:

ـ أين زيك الفرنساوي؟

ـ تخلصت منه حتى يسهل هروبي.

هز رأسه، وعاد يسأله:

ـ أين تقيم؟

ـ ببيت قديم في «باب اللوق».

نادى الضابط جنديًّا تركيًّا فأتاه مسرعًا، ووقف أمامه وأعطاه التحية، فأمره:

ـ خذ الضابط..

والتفت إلى «دوبريه» وسأله:

ـ ما اسمك؟

ـ «دوبريه».

عاد ينظر إلى الجندي، وأفرج عن الأمر الذي أجَّله:

ـ خذ الضابط «دوبريه» وسلمه زينا العسكري، وعرِّفه مكان إقامته في معسكرنا الجديد.

وتحدد له راتب جيد، فقال في نفسه: «ها أنا قد بقيت كما كنت يا زينة، فلم يذهب عني ما كان بيدي، ضابطًا كنت، وضابطًا صرت، وأملي في رضاكِ لن ينقطع، ومَن تبقين معه لتبتعدي عني، لن يكون بعيدًا عن يدي، وبيني وبينك وبينه ثأر لن ينقضي إلا إذا رغبتِ عنه، ورغبتِ فيَّ».

وعرف من الضابط التركي أن أعداء العثمانيين بعد رحيل الفرنسيس هم أمراء المماليك، فضحك وقال له:

ـ عدوكم عدوي، ولي فيهم عدو فوق العادة.

وحتى ينخرط أعمق في صفوف الجندية الجديدة أعلن ذات صباح إسلامه، وطلب من قائده أن يسميه، ففكر قليلًا ثم قال له:

ـ كان لي صاحب يشبهك إلى حد بعيد، وقتل في معركة «عين شمس» ضد قوات «كليبر»، كان اسمه «سنبل»، فما رأيك لو حملت أنت هذا الاسم؟

وجدها «دوبريه» فرصة سانحة كي يتقرب من الضابط التركي، فقال له: «اسم رائع، خفيف نطقه، وله معنى طيب»، وقال لنفسه: «لم يعد يحول بيني وبين زينة سوى العبد الأسود الذي صار أميرًا في غفلة من الزمن».

وذات مساء استأذن من قائده، وعبر إلى جزيرة «بولاق»، وتوقف في المكان الذي كانت تستقر فيه حامية الفرنسيس، وجلس قليلًا، يستعيد الشجار الذي وقع بينه وبين ضابط فرنساوي، كان قد عاد في هذه اللحظة إلى بلاده مكسورًا. ثم قام ودخل إلى شارع أودى به إلى الحارة التي كانت تقيم بها من تعذبه.

طرق الباب فلم يرد عليه أحد. وجاءته امرأة هرمة من بيت مجاور، فلما رأت هيئته انكمشت وتلعثمت، فهدأها حين ناداها بالخالة، وأفهمها أنه قادم إلى هنا ليؤدي أمانة في عنقه لأهل البيت.

عندها استردت أنفاسها المبهور، وقالت له:

ـ أهل هذه الدار قد فارقوها.. عادوا إلى بيتهم الكبير في «الناصرية».

شكرها وهو يقول في نفسه: «حسنا فعلت، فقد اقتربت من قلعة الجبل، وفي هذا فأل جيد»، وأدار ظهره إلى الحارة، وعبر إلى الضفة الأخرى قاصدًا أول مكان رأى فيه «زينة»، وهو يستعيد اللحظة التي وقعت فيها عيناه عليها، وناداها: «إيلين».

في طريقه إلى «بيت السناري» مر بكثيرين من الملاعيب والبهلاوين والرقاصين والجنك، الذين عادوا يمرون في الشوارع، بعد أن هدأت الأحوال، صانعين بهجة عابرة في نفوس الناس. واقترب منه مجذوب في مدخل «الناصرية» وهز الخرز الملون المرصوص فوق صدره، وأمسك بيد «دوبريه»، الذي صار اسمه «سنبل»، ووضعها في مزقة من أسماله البالية، وراح يضحك بلا توقف، فتوجَّس منه خيفة، وخلع يده وجرى إلى الأمام، والمجذوب خلفه يفضحه: «غشاش.. غشاش»، فلم يجد وسيلة للهروب منه سوى الدخول سريعًا إلى المقهى، والاختباء في الداخل حتى انصرف المجذوب، فانتقل ليجلس في مدخل المقهى، وجاءت جلسته إلى جانب «حسن جعيدي» الذي كان يعطي ظهره للزبائن، ووجهه نحو بيت السناري، وهو غائب تمامًا عمَّن حوله، ولا علاقة له بالمكان سوى بالنارجيلة التي يرفع قصبتها بين حين وآخر، ويبلع الدخان بلعًا، وهو يقتل الوقت، آملًا أن تطل «زينة» من فوق السطح، أو يأتي إليه صاحبه، الذي فرَّقت بينهما الأيام، بعد إغلاق المدبغة، وواعده أن يلتقيا هنا بعد طول غياب.

تابعه كل مَن في المقهى، لاسيما أن الراوي توقف عن سرد حكاياته الأسطورية، وذهب إليه النادل، وسأله:

ـ ما اسم الكريم؟

ردَّ على الفور:

ـ سنبل.. اسمي «سنبل».

ـ اسم كله خير، خصوصًا في أيامنا تلك التي شحَّ فيها القمح والشعير.

ومال أحد الزبائن على أذن صاحبه:

ـ سيشرب ما يريد ويدخن، وسيذهب دون أن يدفع شيئًا.

ـ عادتهم ولن يشتروها.

ـ كان الفرنسيس يقتلون منا في أوقات الغضب بلا حساب، ويسلبوننا بما يحصلون من ميري ومكوسات باهظة، لكنهم كانوا يدفعون مقابل
ما يشترون.

ـ وكانت لهم أمور تثير الإعجاب، لم يفعلها الترك أبدًا، مثل قيامهم بشنق رجل منهم إلى شجرة ببركة «الأزبكية» لأنه سرق، وكان هذا في آخر أيامهم بالمحروسة، ولو أنهم لم يعاقبوه ما حاسبهم أحد، ولا دفعوا ثمن إهمالهم وتواطؤهم.

ـ في يوم واحد ظهرت فظائعهم، بائع العرقسوس، وحادثة دار الرجل النصراني، فهل سمعت عنهما؟

ـ لا.

ـ قتل الجند العثماني تسعة من الأهالي في شربة عرقسوس، فأحدهم شرب شربة ولم يدفع ثمنها، فشكا العرقسوسي، وهو من الأرناؤود، إلى قائد الإنكشارية فأحضر الضابط ووبَّخه وأمره بالدفع، فما كان منه إلا أن سحب طبنجته، وقتل آمره، وهرب إلى «حارة الجوانية»، ودخل دارًا وظل بها عنوة، وأطلق النار على كل مَن حاول إخراجه، وقتل الإنكشارية اثنين من الأرناؤود انتقامًا لصاحبهم. ولم تمر ساعات حتى دخل شخصين من القليونجية دار نصراني وسرقا بقجتين من الثياب، وحملوهما سخرة فوق عنقي اثنين من الفلاحين تصادف مرورهما، ولما شكا النصراني إلى القلق، أمر بالقبض على المعتدين، فهربا، وأخذا معهما الفلاحَين، وقطعا رأسيهما.

ـ يحدث هذا رغم أن بقايا مراكب الفرنسيس لم تغادر نيل المحروسة بعد.

ـ فما بالك حين يؤول لهم الحكم دون منازع، فالإنجليز كل ما يهمهم هو خروج الفرنسيس، وبعدها سيرحلون وراءهم، هكذا سمعت من أحد مشايخ الأزهر، أما المماليك فسيسعون إلى خدمة الترك، ومشاركتهم
في ظلمنا.

ونادى أحد الرجلين النادل، وسأله:

ـ هل دفع الضابط التركي حسابه؟

أومأ برأسه، ونطق لسانه:

ـ دفع أكثر من المطلوب.

نظر الرجل إلى صاحبه وقال:

ـ أراهن أنه ليس من العثمانلية.

وظلا ينظران إليه متفحصين إياه، حتى شعر بالقلق، فقام من مكانه، دون أن يشعر «حسن» بقيامه، وكان قد لمحه حين جلس لكنه انصرف عنه إلى شجونه. ومشى الضابط نحو «بيت السناري»، لكنه لم يدخل «حارة جاويش»، بل عبر إلى الناحية الأخرى، حتى يتسنى له رؤيةِ البيت، لكن الجدار الخارجي السميك حجب عنه كل شيء، إلا السطح، الذي كان أحد الخدم منهمكًا في تنظيف سوره الخارجي.

وظل «دوبريه» يتراجع في اتجاه قصر العيني، ثم عدل مساره إلى الجهة الشرقية مرة أخرى، ومر من أمام مسجد «السيدة» زينب، وشق شارع «طولون» عائدًا إلى «قلعة الجبل»، وهو يقول لنفسه معزيًا إياها: «يكفي اليوم أنني اقتربت من المكان التي حلت فيه، وفي قابل الأيام سأسعى إلى لقائها بأي طريقة».

ولم يتأخر قدوم هذا اليوم، فقد همس قائده في أذنه ذات يوم، بعد أن استأمنه لِما أظهره من ولاء وتفانٍ في شغله:

ـ اقترب «حسن باشا القبطان» من أن يحقق ما دبَّر له طويلًا.

لم يكن «دوبريه» يعلم على وجه اليقين مَن «القبطان» هذا، وما هو
ما يخطط له، فأطرق صامتًا، لكنه تنبَّه بكل كيانه حين قال الرجل:

ـ سترتاح المحروسة كلها من غريم الفرنسيس وغريمنا، المشعوذ الأكبر «إبراهيم كتخدا السناري».

39

ارتدى «السناري» ملابسه على عجل، بعد أن نادى واحدًا من الحرسجية، ليبلغ ثلاثين رجلًا من مماليكه بأن يجهزوا لاصطحابه إلى «الإسكندرية». كان متوترًا وصدره ضيقًا بما لم تره «زينة» عليه من قبل. اقتربت منه وداعبته:

- لمَ السفر؟

أجاب بصوتٍ واهن:

- «القبطان»عزمني وبعض أمراء المماليك في الغليون الكبير «أزج عنبرلي» الراسي في مياه «الإسكندرية».

- غريبة.

- يقول إنه جهز حفلًا مشهودًا هناك بعد سفر آخر جندي فرنساوي من بر مصر.

- لكنك طالما تحاذر من هذا الرجل.

- كلما دعاني أو أحد أمراء المماليك صعدنا إلى «قلعة الجبل» ومعنا رجالنا؛ لأننا لا نأمن جانبه، ونرى في عينيه غدرًا مكتومًا.

- إذا كان الأمر كذلك فلا تذهب.

- أرسل إليَّ مَن يستدعيني، وإن لم أذهب ستكون العاقبة وخيمة، لاسيما أنه شدَّد على حضوري، وقد فاتحني في هذا الأمر في آخر زيارة إليه، ووعدته بأن أجيء لمثل هذا الحفل، الذي لم يحدد مكانه إلا الآن، وقد أخبرني بهذا رسوله، الذي ينتظرني الآن عند باب البيت.

- أي عاقبة لكن تكون أوخم من انفراده بكم في مكان بعيد.

- لهذا سأصطحب معي مماليك أشداء، وكل الأمراء سيفعلون مثلي، كعادتنا معه.

صمت قليلًا، وقال وهو يدس قدميه في مركوبه:

- ألف فأر تلعب في صدري؛ لأن ما أنا مقدم عليه حدثتني به شياطيني قبل سنين، لكن أنت تعلمين أن وساوسي لا تصدق جميعها.

- ماذا لو صدقت هذه المرة؟

شدَّ على يدها، وقال:

- (ىى

يـ بم)

سالت دموعها غزيرة على خديها، وأمسكت طرف ثوبه، وتوسلت إليه:

- أرجوك لا تذهب، وليكن ما يكون.

- عهدتك شجاعة، وعهدتيني كذلك، وآن الأوان أن نعرف قصد هذا الرجل الذي كلما وجدنا بين جنودنا يبش في وجوهنا، بينما عيناه تشيان بخطر، لا يجرؤ على الإفصاح عنه.

- ليست الشجاعة أن تُمكَن عدوك منك، وأن تقابل غدره بوفاء، وإن كنت قد وعدته، فيمكنك أن تتذرَّع بما يعذرك لأجله، ومثلك لن يعدم الوسيلة.

- إن قبل هو عذري فلن يعذرني أمراء المماليك، ولا أريد أن أخسرهم، وأفضل لي أن ينال مني بينهم من أن ينفرد بي فيما بعد، بينما هم قد انفضوا عن نصرتي.

عدلت عليه هندامه، وأمسكت خديه بأطراف أصابعها، وقالت له:

- حاذر، ولا تجعل إقدامك يغلب حيلتك، وتلقَّط أنت ومَن معك الأخبار قبل أن تصلوا إلى «الإسكندرية» فإن وجدتم شرًّا، فعودوا معًا، وبعدها تفكرون في ترتيب آخر.

- ليس لديَّ شك في أن الأتراك لن يتحملوا أن نبقى شركاءهم في حكم، بعد خيانة «مراد بك» لهم، وحالة الضعف التي صار عليها «إبراهيم بك» بعد هروبه الطويل، وانفضاض كثيرين ممَّن حوله عنه، وحتى لو وجد هو سبيلًا للتفاهم مع بني عثمان، فمن المؤكد أن مثلي سيكون خارج هذا التفاهم؛ لأني لست محسوبًا عليه.

وجاءت خادمة، وطرقت الباب، وفتح لها، فقالت له:

- رسول الباشا التركي يستعجل جنابك.

هزَّ رأسه، وقال لها:

- أبلغي الحارس أن يخبره بأني قادم بعد دقائق.

في هذه الدقائق، كان عليه أن يطلق وصيته الدائمة إلى «زينة»:

- إن جاءك خبر بمكروه، فأرسلي إلى الشيخ «الخضيري» كي يفتح الصندوق، ويوزع ما فيه عليك وعلى حريمي وأولادي وخدمي، حسب المكتوب الذي أعطيته له. أما بيتي هذا، فقد كتبت به وصية، كما تعلمين، ستجعله في ذريتي إلى أن ينقضوا، فيؤول إلى نفع عموم الناس.

وتركها، ودخل إلى حريمه، فقبَّل كل واحدة في جبينها، وجمع أولاده، كبارهم وصغارهم واحتضنهم احتضان مودِّع، ثم انطلق إلى «الروضة» حيث ينتظره مركب، هو ومَن معه من المماليك، ويأخذهم إلى «رشيد» ومن هناك يتوجهون على خيول أعدها لهم الباشا إلى «الإسكندرية».

وأقلع عشرون مركبًا من «الروضة» و«الجيزة» و«بولاق» وتقابلت في «الورايق» فسارت معًا، كأنها حملة كبيرة، رآها الفلاحون في حقولهم، وراحوا يخمنون حول مسارها ومصيرها.

على إحدى هذه المراكب جلس «السناري» يكتب رسالة إلى «زينة» فلما انتهى منها طواها، ونادى أقرب مماليكه إلى نفسه، وقال له:

- مهما جرى، وحتى لو عدت معك لا تُعطها لي حتى لا أتراجع عنها بعد أن عزمت على هذا.. ستظل هذه الرسالة أمانة لديك، سلمها إلى «زينة»، وإياك أن تقع في يد أحد.

ما إن وصلت الخيول إلى باب الغليون حتى أخذها الحرسجية، ليربطوها إلى مزاود العليق، وطلب أحد الضباط الأتراك من الأمراء أن يتركوا مماليكهم، وقال لهم:

- الباشا أعد لهم وليمة هنا، بينما وليمة الأمراء هناك في قلب «أرج عنبرلي» الساحرة.

لكن «عثمان بك الطنبورجي» أصر على أن يصعد جند المماليك جميعًا إلى الغليون الكبير، فتذرع الضابط بأن الفسحة التي سيلتقي فيها الأمراء بالباشا لا تسع إلا عددًا محدودًا. وتدخل «علي بك أيوب» وهوَّن من الأمر قائلًا:

- سيبقى جنودنا هنا، وتكون آذانهم معنا.

وتنحى جانبًا، وأشار إلى الأمراء أن يقتربوا منه، فجاءوه ليستعلموا عما يدور في رأسه، فقال لهم:

- لا يجب أن نستقدم الشر قبل الخير، فربما لا يكون ما يدور في رؤوسنا سوى هواجس، ويثير إصرارنا على اصطحاب كل المماليك إلى سطح الغليون حفيظة الباشا، فيتحول خيره، إن كان موجودًا، إلى شر، ونحن بتنا في حاجة ماسة إلى أن يطمئن الترك إلينا في قابل الأيام.

والتفت «محمد بك الحسني» إلى «السناري» وسأله:

- ألم يأتك الجن بخبر؟

ابتسم وقال:

- أخبروني قبل سنين بأن أحاذر، وحاذرت كثيرًا في كل السنين الفائتة، حتى إنني ضقت بالحذر.

وتدخل «مراد بك الصغير»:

- لا يمنع حذر من قدر، ولا تنسوا أنكم أناس مسلمون.

وصعدوا، وكان آخرهم «إبراهيم السناري».

جاءهم «حسن باشا القبطان» بعد أن جلسوا في أماكنهم، وكل منهم يده على سلاحه. قعد الباشا في صدارة الجلسة، وراح يوزع ابتساماته عليهم بالتساوي، ويقول:

- هذه الجلسة يعلم بها الباب العالي.

نظروا إليه صامتين فواصل:

- أمرني السلطان بأن أدعوكم على حضرته الشريفة، ولولا مهامه الثقيلة لجاء بنفسه وحضر لقاءنا هذا، وشاركنا بهجتنا برحيل الفرنسيس.

وهنا انبرى «السناري» قائلًا:

- نتمنى أن يكون حضرة السلطان على دراية بأن ولاءنا للباب العالي ليس له حدود، وأننا على استعداد تام لوضع رجالنا ومالنا وما نعرفه عن كل كبيرة وصغيرة ببر مصر في خدمة الدولة العلية.

هزَّ الباشا رأسه وقال:

- حضرة السلطان على علم بكل شيء، وإلا ما طلب مني أن
ألتقيكم اليوم.

ودخل ساعٍ وفي يده مكاتبة، سلمها إلى «حسن باشا القبطان» قرأها صامتًا، ثم قال:

- أستأذنكم قليلًا.

وغاب نصف ساعة وتركهم يضربون أخماسًا في أسداس، ولم يرجع إليهم، بل دخل عليهم ضابط كبير، ونظر في وجوههم جميعًا، وقال:

- ورد خط شريف يقضي باستدعائكم لمقابلة حضرة السلطان، الذي حضر للتو، وصعد إلى «أرج عنبرلي» دون أن يكون لدينا علم مسبق بقدومه، فهلموا إلى مقابلته.

انتفضوا واقفين، لكن الضابط قال لهم:

- يريد السلطان أن يقابل كلًّا منكم على انفراد، فاتركوا أسلحتكم هنا، فليس من اللائق أن تدخلوا

على السلطان مسلحين.

وتصايحوا في هرج ومرج، وأدركوا الفخ الذي وقعوا فيه، واستل «محمد بك المنفوخ» سيفه، وضرب عنق الضابط، فدخل إليهم جنود ترك كثر من الإنكشارية كانوا يقفون بباب الفسحة المغلقة، ونشب قتال مرير، وأمراء المماليك يريدون أن يوسعوا لأنفسهم بين الجنود مسربًا للفرار، لكن الجنود تمكنوا من قتل بعضهم، وجرح آخرين، وتمكن بعض المجروحين من الفرار إلى خارج الغليون، ووصلوا إلى خيولهم، فركبوها وجروا في اتجاه حامية إنجليزية كانت مرابطة على مسافة ليست بالبعيدة، فطلبوا ملاذًا ودواءً، وأبلغوا عن قتلى وأسرى، وقالوا للإنجليز:

ـ صلتنا بكم لم تنقطع أيام الفرنسيس، ونحن رجالكم في قابل الأيام، فلا تتركونا.

وعلى متن الغليون، سالت دماء غزيرة في الماء المالح، وفيها دماء «إبراهيم كتخدا السناري» الذي تلقى ضربة نافذة في صدره فخرَّ على الأرض محتضرًا.

وهو مطروح على الأرض غارق في دمائه، وسيفه قد مات في يده، تراءى كل شيء على سقف الفسحة في عيني «السناري».

رأى أباه يمد يده إليه من تحت ماء أسمر، كوجهه، ويناديه:

ـ آن للجريح أن يستريح.

وكانت أمه تجري في أرض موحولة، وعلى رأسها حزمة من حطب، ومطر غزير ينهمر فوق رأسها، فتقع وتقوم، فرمت الحطب فصار قاربًا صغيرًا، ركبته، وجدفت بيديها نحو شاطئ لا يبدو إليه وصول، حتى لحقت بالأب، الذي كان وجهه قد امتزج بماء الطين، وطين الماء، فانتشلته، دون أن يتوقف عن النداء على ابنه، وشاركته الأم نداءه، فرفع «السناري» يده اليمنى، ومد أطراف أصابعه إليهما، فسحبا روحه في هدوء.

أما جسده فقد بقي ملقى في فسحة الغليون، وسط جثث الأمراء القتلى، إلى أن استجاب الإنجليز لاستغاثات الهاربين، وذهب قائد منهم إلى متن «أرج عنبرلي»، وهدد بالحرب إن لم يُفرج عن الأسرى، ويتم تسليم جثث القتلى، فكان له ما أراد.

لم تمضِ ساعات حتى كانت «جثة السناري» تمر في صندوق خشبي نظيف، محمولًا على أعناق جنود إنجليز، ووسط صفين منهم، وتطلق على شرف رحيله طلقات من البنادق والمدافع، وتؤدَّى له التحية.

مرَّت جثته كما مرت جثث بقية الأمراء القتلى، ونالوا احترامًا صوريًّا ممَّن لم يذرفوا عليهم دمعة واحدة. أما في المحروسة فقد انهمرت الدموع في «بيت السناري»، حين وصلهم خبر ما جرى، بعد أن ضربت مدافع الحامية الإنجليزية المرابطة في «الجيزة»، وقال ضباطها لمصريين مقربين منهم:

ـ دبَّر الأتراك مذبحة لأمراء المماليك في الإسكندرية، ويجب أن نستعد لأي طارئ.

لم يكن خبرًا مكتملًا، فلم يعرفوا مَن فرَّ جريحًا، ومَن قُتل، ومَن وقع في الأسر، وأُفرج عنه، بأمر من الإنجليز. وتمنى أهل كل أمير أن يكون من الأسرى، أو على الأقل من الجرحى، وعاش كل منهم على هذا الأمل.

وتمسكت «زينة» بهذا الأمل وإن كانت تعاني من هواجس النهار، وكوابيس الليل، ولم تجد أحدًا تسأله، فحتى جنود المماليك الذين ذهبوا مع الأمراء، لم يرجع أي منهم، إلى أن أخبرها «الشيخ الخضيري»، وكان في بيت السناري ليطمئن على أهله، بأن «حسن القبطان» قد عاد من الإسكندرية، فعندها قررت أن تقطع الشك باليقين.

انتظرت على نار، حتى خرج «الخضيري» عائدًا إلى بيته، ثم سارت على قدميها إلى قصر «القبطان» في طرف «الأزبكية».

40

حين وصلت إلى قصر «القبطان» كان هو خارجًا في استدعاء إلى «قلعة الجبل». سمعت بعض الإنكشارية يتهامسون بسيرة «القبطان» الذي سيخرج الآن منفوخًا بعد أن ذبح أمراء المماليك فوق البحر المحيط.

تقدَّمت خطوات في حذر، ثم وقفت على أطراف أصابع قدميها مادة عنقها الطويل إلى أقصى مدى له حتى تراه، ويراها. لمحها أحد الجنود فمشى نحوها، وسألها في جدية:

ـ مَن أنت؟ وماذا تريدين؟

لم ترد عليه، وأسرعت الخطى بعد أن رأت الباشا يخرج من بين صف من الجند منتفخ الأوداج، لا ينظر إلى الجنود إلا من طرف عينه. جرى الجندي وراءها وجذبها بقسوة فسقط اليشمك عن بدرها الحزين، وسقطت فانحسر الثوب عن ساقيها، فإذا بعين «القبطان» تقتحمها في فجور.

أشار بيده إلى الجندي فتراجع إلى الخلف، وتقدم هو إليها، وسألها وهي تشد ثوبها فوق ساقيها، وتعدل اليشمك على وجهها، وتهب واقفة:

ـ مَن أنتِ؟

ردَّت عليه في جرأة:

ـ امرأة من هذا البلد أيها الغريب.

كظم غيظه، وقال في وقاحة:

ـ نساء من هذا البلد يأتين إلى فراشي، فهل جئتِ لهذا؟

واصلت جرأتها:

ـ تأتيك الغواني، والموت أهون عندي من أن أكون منهن، أو أكون لك.

قهقه حتى رجَّ الهواء حول فمه، وعاد يسألها:

ـ ألا كشفتِ عن اسمك أيتها الشريفة العفيفة؟

ـ اسمي «زينة»، وجئت لأسألك عن «إبراهيم بك السناري».

صمت برهة، وسألها:

ـ هل أنتِ زوجته؟

تلعثمت في الرد، فأجاب نيابة عنها:

ـ إذن أنتِ جارية من جواريه اللاتي كُنَّ له في غفلةٍ من الزمن.

ـ لم أكن جاريته.

ـ لستِ زوجته، وتنفين أنكِ جاريته، فهل أنتِ أخته؟

ثم قهقه من جديد، وأجاب نفسه:

ـ من الصعب على أسود مثله أن يكون أخًا لمثلك.

ـ لست أخته، ولا قريبته، لكنه أقرب إليَّ من الأخت والزوجة، وأنا الأقرب إليه في الدنيا بأسرها.

قلَّب عينيه في الجنود الذين كانوا يتابعون ما يجري صامتين، وتلمظ بشفتيه، ثم مدَّ أصابعه إلى شاربه وبرمه، وقال لها:

ـ لم أقابل في حياتي خليلة بهذا الوفاء.

رمت عينيها عند قدميه، وأجهشت ببكاء، وسألته:

ـ جئت لأعرف خبره.

ـ صار في خبر كان.

ضربت صدرها بقسوة، وصرخت:

ـ أقتلته؟

ـ قتل نفسه حين لم يعرف حدَّه، وجثته صارت في حوزة الإنجليز ليدنسوها.

ثم هددها مباشرة وهو ينظر إليها في تحدٍّ:

ـ وكل مَن لا يعرف حدَّه، سيلقى مصيره الذي استحقه.

سقطت مغشية عليها، فأمر الجنود أن يحملوها في رفق إلى بهو القصر، وأجلسوها على أريكة، وأحضروا لها ماءً مذابًا به سكر وليمون، وماءً آخر باردًا رشُّوه على وجهها حتى أفاقت، لتجده جالسًا ينظر إليها في اشتهاء، فأصابها ذعر، ووقفت وجرت نحو الباب الخارجي، واعترضها جنود، فأمرهم:

ـ اتركوها.

ثم نادى أحد الجنود، وقال له:

ـ اركب حصانًا وارمح إلى «بيت السناري» وأكِّد لزوجاته، اللائي صرن أرامله، خبر مقتله، وأبلغهن أن بقاءهن آمنات في بيتهن مرهون بمنعهن هذه الزينة من دخوله.

ونادى آخر وأمره:

ـ اتبعها كظلها، وأخبرني بالمكان الذي ستنتهي إليه.

وقال لنفسه وهو يهم فوق فرسه ليمضي في طريقه إلى قلعة الجبل: «أبى السناري إلا أن يهاديني من قبره بهذه الفاتنة، وكأنه يشكرني على أنني أرحته من هلاوسه ووساوسه إلى الأبد».

حين خرجت إلى ساحة «الأزبكية» أوقفها «مكاري»، وهو يشير إلى حماره العفي، فلم تنتبه إليه، فمشى خلفها وقال:

ـ الدنيا بخير يا ست، إن لم يكن معكِ ما تدفعينه، فلا بأس.

لكنها كانت في حاجة إلى أن تمضي ماشية لتفكر فيما ستؤول إليه حياتها بعد أن تتسلم جثة «السناري» وتدفنه بيديها كما طلب منها ذات ليلة.

قطعت الشوارع والحواري ودمع عينيها يلمع في شمس الصيف الحارقة، حتى وصلت إلى المقهى

القريب من البيت، رمت ناظريها إلى الركن فوجدت «حسن جعيدي» يدخن النارجيلة صامتًا، وهو ينظر إلى «بيت السناري». وقفت على مقربة منه، وأشارت إليه، لكنه لم ينتبه إليها، إلى أن قام رجل يجلس في منتصف المقهى، وهمس في أذنه، وهو يشير إلى «زينة»، فانتبه لها، ورمى القصبة تدفع بقايا الدخان في الهواء، وجرى نحوها.

قالت له بعد أن فقدت تماسكها وعادت تجهش في حرقة:

ـ قتلوا «السناري»، قتله الغز الغدَّارون.

لم يعرف بِمَ يجيبها، ووقف متخبطًا في حيرته، وتضارب أحاسيسه الدفينة بالطافية، وتقلب بين حزنه لحزنها، وجزعه مما يراه من أثر الراحل في عيني محبوبته اللتين احمرَّتا من شدة البكاء، وبين صوت انتهازي ناداه من داخله: «أخيرًا راح غريمك من طريقك».

وكان عليه أن يخرج عن صمته بما يُقال في هذا الظرف العصيب:

ـ البقاء لله، كلنا لها.. البقية في حياتك.

نطقت بصوت خفيض:

ـ المرحوم أوصاني بدفنه، وعليك أن تساعدني في هذه المهمة.

ـ أنا معك، وسأفعل كل ما تطلبينه مني.

ـ لابد أن أذهب الآن إلى الحامية الإنجليزية في «الجيزة» لأسأل عن موعد وصول جثته على المركب القادم من «رشيد».

واشتعلت غيرة في نفسه، ووخزه سؤال: «ماذا لو رآها ضابط إنجليزي فوقع هو الآخر في غرامها؟»، وغمغم دون أن تتبين هي ما ينطق به: «يبدو أن غريمًا جديدًا لك في الطريق، وعليك أن تنتظر جرعات أخرى من الوجع، لا تملك حيالها إلا الصبر».

ووجد يده تمتد إلى كتفها، وهي لا تشعر به، وداس عليها في رفق، وقال:

ـ قلبي يتفطر لدموعك، ولو كان الأمر بيدي لأعطيت إليك من عمري حتى لا يزورك كل هذا الحزن.

لم ترد عليه، ومضت وهو إلى جانبها صامتًا حتى اقتربا من البيت. أوقفها فجأة وقال:

ـ ضابط وجندي تركيان يقفان عند مدخل البيت.

رفعت عينيها، وصرخت في فزع:

ـ المصائب لا تأتي فرادى، هذا هو الضابط الفرنساوي «دوبريه».

هزَّ رأسه نافيًا:

ـ إنه ضابط تركي، جاء إلى المقهى قبل أيام، وجلس إلى جانبي لكنني لم أحدثه..إنه تركي وهذا هو لباسهم.

ـ بل هو «دوبريه» ويبدو أنه انضم إلى الجيش التركي كغيره من ضباط فرنسيس وأروام.

وعدلت من سيرها قبل أن ينتبه الضابط والجندي لها، وعادت تمشي نحو المقهى، ثم انعطفت نحو «قصر العيني» ماشية إلى «الجيزة».

أبلغها ضابط إنجليزي أن الجثة ستأتي في الغد، ويمكن لأهله استلامها.

فلما عادت إلى «بيت السناري» وجدت أغراضها مركونة أمام الباب الخارجي، الذي كان موصدًا. طرقته فخرج الحارس، ونظر إليها مليًّا، وقال وعيناه عند قدميه:

ـ على عيني يا ست «زينة»، وأنا عبدٌ مأمور.

نظرت إليه في استغراب، فواصل:

ـ أرامل البك جمعوا حاجاتك وأمروني ألا أسمح لكِ بالدخول.

في هذه اللحظة جاء «دوبريه» والجندي التركي اللذان كانا واقفين في جانب الحارة، يقرقران ماءً باردًا من قلتين مملوءتين.

قال «دوبريه» معزيًا وفاتحًا لنفسه طريقًا:

ـ قلبي معك، وأنا رهن إشارتك.

لم ترد عليه، وتوجهت إلى الحارس، وقالت:

ـ أريد أن أتحدث مع الأرملة الكبرى للمرحوم.

دخل، وأغلق الباب خلفه، وعاد بعد دقائق، وقال لها:

ـ الست الكبيرة تقول لكِ: لم يعد لكِ مكان هنا.

ثم مال على أذنها وهمس:

ـ هذه أوامر الترك، وهي لا تستطيع مخالفتها، وقد هددوها بأنها إن لم تأخذ بها، سيخرج كل آل «السناري» من هنا، وهذا لا يرضيك.

مالت «زينة» على أذن «حسن»، وقالت:

ـ اذهب لتكتري كارو يحمل أغراضي.

وقبل أن يخطو سألها:

ـ إلى أين؟

حبست الدموع في عينيها وردَّت:

ـ أرض الله واسعة.

وقبل أن يرجع «حسن» جاء جندي مملوكي على حصانه ووقف أمامهم، وسأل:

ـ أين الست «زينة»؟

نظرت إليه وأجابت:

ـ أنا..

هبط من فوق السرج، ورفعه وأخرج ورقة مطوية بعناية، ومدَّها إليها، وقال:

ـ هذه رسالة أوصاني المرحوم بأن أسلمها لك.

فكَّت الخيط الأسود المربوط عليها، وفردتها وهي تبتعد خطوات إلى الخلف حتى التصقت بالجدار، وراحت تقرأ في صمت:

«أكتب إليكِ، لا لأواسيكِ، فأنت قوية بمشاعرك الفياضة، وعقلك الراجح، إنما لأبوح لك بما كتمته عنك، وكان يجب ألا أفعل، لكن ضعفي حجزني، واستسلمت له كل هذه السنين، وتركتك تعتقدين أنني جبار، بينما كان جبروتي في مداراتي وصمتي وكذبي، نعم كذبي، فأنا لم أكن أبدًا كما اعتقد الناس فيَّ، وفهموا عني، ونظروا إليَّ، كان لديَّ ما أفعله لكنهم بالغوا فيه إلى أقصى حد، وأنا جاريتهم. نبتة هشة كنت، قلعتها مياه النيل الجارفة من أرض السودان، ورمتها في أرض غريبة، وكان عليها أن تخرج شوكها حتى لا يدهسها العابرون. وكان شوكي إيهامي، الذي رآه الناس إلهامًا، فجعلتهم يقفون على بابي؛ لأني الساحر وقارئ الطالع، وأخو الجن، وصديق النجوم الزاهية، ولم يكن كل هذا إلا لعبة استمرأتها، ونفخت في قليلها الذي أملكه فصار كبيرًا وهائلًا، وأرادوا هم أن يصدقوها فانساقوا خلفي؛ لأنهم كانوا يبحثون عن أي وهم يمنحهم الأمل، ويجلي لهم غموض ما يحيط بهم، ويريهم ما يغيب عنهم وسيأتيهم حتمًا.

أما ما كنت حقيقة أملكه فهما دأبي وعزمي، حين تعلمت لغة السادة الجبارين، وصنعت لنفسي دومًا مسربًا بين أجساد الطغاة والبغاة، ومكانًا بين أحذيتهم الثقيلة، وتمكنت من أن أجد لنفسي دفقة هواء وشربة ماء مما يبقيهم هم على قيد الحياة كبارًا عند الناس، صغارًا في أنفسهم.

والحقيقة الأكبر من كل هذا في حياتي كلها هو أنت يا زينة، لكن عزَّ عليَّ أن تريني عاريًا، مجردًا من كل حول وطول، وسلطان وجاه، وأنا أحكي بين يديك كطفل، ثم أذهب ولديَّ ما أخفيه عنك، والآن حين تطالعين سطوري تلك، أكون قد قلت لك كل شيء، فأرجو منك الصفح والسماح».

طوت الرسالة، وركبت الكارو، ممسكة أغراضها بيمينها، والأسى بيسارها، وتذكرت في هذه اللحظة أمها الضائعة، وتمنت أن تجدها أكثر من أي وقت مضى، وتلقي بنفسها في حضنها، وتبكي حتى تستريح!

ومضى المكاري أمام حماره، أما في الخلف، فقد مشى الضابط الفرنسي الذي صار في خدمة الترك، والجندي التركي الذي سيتبعها إلى حيث ينتهي بها المقام ليُبلغ سيده الذي ينتظرها في لهفة، و«حسن جعيدي» الذي كان يسبقهما بخطوتين، يرعى «زينة» بعين، وبالأخرى يرقب الاثنين في غيظٍ، ويحاول أن يهزم عجزه وهوانه بلا جدوى.

* * *

Table of Contents

CoverImage
beet el senary
beet el senary-1
beet el senary-2
beet el senary-3
beet el senary-4
beet el senary-5
beet el senary-6
beet el senary-7
beet el senary-8
beet el senary-9
beet el senary-10
beet el senary-11
beet el senary-12
beet el senary-13
beet el senary-14
beet el senary-15
beet el senary-16
beet el senary-17
beet el senary-18
beet el senary-19
beet el senary-20
beet el senary-21
beet el senary-22
beet el senary-23
beet el senary-24
beet el senary-25
beet el senary-26
beet el senary-27
beet el senary-28
beet el senary-29
beet el senary-30
beet el senary-31
beet el senary-32
beet el senary-33
beet el senary-34
beet el senary-35
beet el senary-36

beet el senary-37
beet el senary-38
beet el senary-39
beet el senary-40